

مركز دراسات الدكتوراه: "اللغات والتراث والتهيئة الجمالية"
تكوين الدكتوراه: اللغات والأدب والتهيئة الجمالية.
محور: الدراسات العربية والتواصل.

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية
في موضوع:
جمالية الخطاب في القصة القرآنية:
"سورة طه" نموذجاً

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد الله الغواسلي المراكشي

إعداد الطالبة الباحثة:
جهاد الصاخي

تاريخ المناقشة: 12 يناير 2021.

لجنة المناقشة :

الدكتور(ة)	محمد كنوني	رئيسا
الدكتور(ة)	عبد العلي مسؤل	عضوا
الدكتور(ة)	حسن محب	عضوا
الدكتور(ة)	عبد الله الغواسلي المراكشي	مشرفا ومقررا

السنة الجامعية: 2021/2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى:

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ^ص
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ^ص وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
الَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ^ص ﴾ (111)

سورة يوسف.

إهداء

إلى القلبين الرحيمين، والدي الحبيين، المصباحين المنيرين، حفظهما الرحمن من كل شر، وأسكنهما بفضله نعيم المستقر...

إلى رفيق اللحظات، ورمز التضحيات، الذي كان ولا يزال نعم العون والسند في كبير المهمات، زوجي العزيز...

إلى القلوب الطاهرة البريئة، أبنائي.. رياحين حياتي.

إلى الأيادي الممدودة لي دائماً بالخير.. إخوتي الأحباء.

إلى أساتذة وطلبة أفاضل.. أكرموني بعوانهم، ولم يخلوا عليّ بدعمهم ومساعدتهم..

إلى كل عائلتي الصغيرة والكبيرة، وكل من دعاني..

إلى المشتغلين بكتاب الله تعالى حفظاً ودراسة ونظراً..

إلى كل مُحِبٍّ في الله.

أهدي هذا العمل المتواضع



﴿شكرٌ وتغديرٌ﴾

إلى من كان له الفضل الأول -بعد الله- في مساعدتي على إنجاز هذه

الأطروحة، أستاذي، فضيلة الدكتور

عبد الله الغواسلي المراكشي حفظه الله تعالى ونفع به.

لقد أكرمني بإشرافه، فكان على عادته نعم المرشد والنّاصح، صبوراً عليّ،

حليماً، مشجّعاً، مشفقاً، واسع الصدر، غزير العلم، فله منّي كلّ الشّكر

والتّقدير والامتنان.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يرتكز هذا البحث بالأساس على الغوص في دلالة الخطاب القرآني، والوصول إلى تحديد الجمالية ومكامن الحسن فيه، مع المباحدة بينه وبين الخطاب البشري، وإنها لأحمال ثقيلة وعقبة كؤود ترتمي في الأفق، حين نتصدى إلى استجماع تلك المزايا التي يحتويها النص القرآني، ومحاولة استكناه مكامن الجمال فيه، وما يتطلب لأجل ذلك من تتبع دقيقٍ للآي ومعانيها، واستقراء آراء أهل التدبر والجمال، وتفقد العناصر الفنية والجمالية التي ينطوي عليها الخطاب القرآني.

هذا الخطاب المعجز إذن، لا بد أن يحظى -إلى جانب فهمه وتأويله وتفسيره-، بتذوقه فنيا وجماليا، لأن جزءا كبيرا من أسرار الجمالية ظل ينتظر من يسبر غورها، ويستكشف عوالمها، كونها ركيزة أساسية وفاعلة في تقديم النص القرآني للمتلقي والتفاعل معه، ونستطيع القول إنها الوجه الآخر لرسالة القرآن الخالدة.

وفرق بين الوقوف عند آيات تحمل حكما تشريعا أو تعبديا، لضبط وتنظيم أفعال المجتمع الإسلامي وحياته، وبين ما هو مبثوث في جملة القرآن، من بدايته إلى نهايته، لا تخلو آية منه ولا موضع. وكيف أن الأمر شكل تفردا وتميزا مطلقا عن الكلام البشري والخطاب الإنساني.

إن جوهر البحث إنما هو إبراز صور الجمال فيه كما سبقت الإشارة إلى ذلك، والكشف عن المكامن الفنية والأدبية الدقيقة التي تواكب الحياة البشرية بحيث يستحيل مضاهاته بالخطاب الإنساني، أو جعله على مرتبة واحدة، تسري عليها قواعد الفهم والتأويل والتحليل، سواء على مستوى تفكيك هذا الخطاب، أو على مستوى إعادة فهمه أو قراءته، أو ربطه بحتمية تاريخية أو اجتماعية، تنظر إليه نظرة نسبية، وترفع عنه عناصر التقديس والتوجيه القاطع للمجتمع الإنساني.

وقد ارتأينا في تفكيك الإشكالية، استصحاب القصص القرآني الذي يحيط بالصور الجمالية والفنية، بقصد إفساح المجال للوقوف عند السمات والخصائص التي يسطع منها الجمال مبنى ومعنى، ودلالاته من أجل إسعاد البشرية.

وحيث إننا سننحو هذا الاتجاه، فقد اخترنا الوقوف عند القصة القرآنية، وماهيتها وواقعيتها، وعناصر الجمالية فيها، ليكون هذا التأسيس صُوى منيرة في طريق تمييز النص القرآني عن غيره من الخطابات الإنسانية الأخرى، والتأكيد بالإضافة إلى دوره التربوي والدعوي المحوري في حياة الإنسان، إلى أنه مدرسة فنية وأدبية لمن أراد أن يمتح من معين جمالياته وأساليبه التي لا تنضب.

ثم إن الإنصاف لهذه القضية، يقتضي منا الربط بين النظرة التجريدية والتنزيل الواقعي للصور الجمالية، لذلك حاولنا جاهدين استنباط هذه الأصول لتكون مقابلة

لقصة من القصص القرآني تجسيدا، فكان اختيارنا لقصص سورة " طه " لتكون تنزيلا واقعيًا لما استجمعناه.

كما نرجو الانتقال - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - بدراسة الخطاب القرآني من زاوية الإعجاز البلاغي والبياني التي تطرق إليها النقاد المفسرون واللغويون القدماء، إلى دراسة القيم الجمالية والفنية التي تضمنها القرآن الكريم، " فإذا كانت تلك الدراسات مناسبة لعصرها، فمن غير المجدي تناول الخطاب القرآني الآن على الشاكلة القديمة نفسها، لأنه سيُنَدُّ عندها عن التنامي الكبير لمتطلبات العصر، إذ إن الشوط الذي قطعته الذات الإنسانية في مجال بحثها عن وجودها، أدى إلى وصولها إلى درجة من التكامل بينها وبين كل ما حولها، وانخراط كل تلك الأجزاء في تشكيلها، من خلال تساوقها فيما بينها تساوقا كليًا، أي أن رؤيتها إلى الكون الذي يقطن خارجها، هي التي ستحدد ذلك الوجود، وإذا كانت عناصر ذاك الكون الخارجي متنوعة، فإنها لا بد من أن تتحد أخيرًا، لتحقيق عملية الإدراك المتكامل."⁽¹⁾، وذلك من منظور أدبي جديد يحفظ للنص القرآني خصوصيته وقدسيته، ويفتح آفاقًا جديدة لقراءة النص القرآني المقدس.

وسنسعى أيضًا من خلال هذه المقاربة إلى تأكيد ما حظي به النص القرآني في دراسات سابقة من بيان وإعجاز ميزاه بالتفرد، وأنه ما يزال يزخر بمعطيات ودلالات أدبية وفنية جديدة، تنتظر من يسبر غورها ويخوض غمارها.

(1) - الإشارة الجمالية في المثل القرآني، عشتار داود محمد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2005، ص 8.

وذلك باختيار نموذج تم الاشتغال عليه، وهو نموذج سورة " طه "، وقد تم
الاقتصار على هذه السورة ليكون العمل مركزا بشكل أكثر، والجهد منصبا على زاوية
واحدة، حتى يتأتى لنا بلوغ المقصد المرجو، والله وليُّ ذلك.

ومن الصعوبات التي اعترضت هذه الدراسة، سعة مجال البحث وتعدد منابعه
وعلموه، إذ تلتقي فيه علوم القرآن باللغة والأدب والتاريخ وعلم النفس، في بوثقة
واحدة، وهو الأمر الذي صعب علينا التقصي والبحث.

إذ كان الغرض الأساس هو التأكيد على اتساع المعنى الكلي للنص القرآني، خاصة
حين يتعلق الأمر بالصور الجمالية الممتدة على مجمل الآيات والقصص القرآنية الوفيرة.
فهذا الخطاب المعجز، لا بد أن يحظى إلى جانب فهمه وتأويله وتفسيره، بتناوله من
الناحية الفنية والجمالية. وإذا كان القرآن الكريم يوظف الجمال الفني أسلوبا أساسيا من
أجل التأثير في النفس الإنسانية باستخدام لغة الإبداع والجمال، فأين يمكننا استشفاف
ذلك في القرآن عامة وفي قصصه خاصة؟ مع الاحتراس من الوقوع في المحذور، خاصة
وأنا نتوسل ببعض آليات تحليل النص الأدبي الحديثة في اشتغالنا على النص القرآني،
بغاية فتح آفاق جديدة لقراءته من منظور أدبي نقدي يحفظ للنص القرآني خصوصيته
وقدسيته.

وهذه الرؤية اقتضت الرجوع إلى مصادر عديدة متعلقة بالتفسير وبالدراسات
القرآنية والدراسات الأدبية والنقدية المتقدمة، فضلا عن كتب المعاصرين التي كان

بعضها مبرزاً لهذا الفن، ولم يبق مرتبطاً ارتباطاً قطعياً بالقديم المتصل بزمّنه، والمشدود إلى ظروفه. وغيرها من المراجع التي حاولت مقارنة أدبية النص القرآني من جوانب متنوعة.

وقد اقتضت منا إشكالية البحث تقسيمه إلى بابين اثنين، بحيث إن كل باب يضم فصلين، ليكون استجماع القضية موفى من خلال هذا التصميم:

في البداية ارتأينا أن يكون الباب الأول ملفتاً لجمالية الخطاب القرآني عامة بحيث يتم تفصيل القواعد الجمالية فيه عبر فصلين اثنين، الفصل الأول يكون جامعاً لتفكيك مفاهيم المصطلحات ومعانيها، ويكون الفصل الثاني جامعاً لعناصر الجمال التي يحتويها النص القرآني عامة.

وأما الباب الثاني فإننا ارتأينا تخصيصه لعلاقة القصة القرآنية بالمسحات الجمالية فيه، سواء على مستوى التجريد أو على مستوى التجسيد، فكان الفصل الأول مهتماً بجمالية الخطاب القرآني من خلال القصة عموماً، والفصل الثاني ملامساً لجمالية الخطاب القرآني من خلال سورة " طه " تحديداً. وقد أخذ هذا الفصل الأخير حيزاً أكبر من سابقه، باعتباره تنزيلاً لما تم التطرق إليه في الفصول الأخرى، وتطبيقاً على السورة التي اخترناها للدراسة، ثم أنهيناه بخاتمة تضمنت أهم الخلاصات التي وصلنا إليها في هذا البحث.

والمنهج الذي ارتأينا إعماله إنما هو تعدد للمناهج المتعلقة بتحليل النص، فهناك منهج استنباطي يغوص في الدلالات الجزئية للآيات قصد استخراج العناصر الجمالية من

عمق المعنى الذي يكتنفه النص القرآني، ثم المنهج الاستقرائي الذي يحاول التبع الدقيق للآيات مبنى ومعنى قصد الوصول إلى وضع قواعد تجريدية عامة للأسس الجمالية للقصص القرآني، ثم المنهج المقارن الذي يهدف للوصول إلى مقارنة بين القواعد الجمالية الأدبية والفنية مع ما هو مبثوث في قصص سورة طه.

ومن أهم الدراسات المتعلقة بسورة طه التي وقعت بين أيدينا، كانت " سورة طه، دراسة أسلوبية لغوية مقارنة " لإبراهيم عوض، نشرت عام 1993، وقد كانت دراسة لسورة طه من ناحية النحو واللغة والأسلوب، ومن ناحية موضوعاتها وبنائها وما تفردت به من ألفاظ وتعبيرات وتراكيب دون السور القرآنية، وكذلك توقيت نزولها، وهل هي كلها مكية؟ وكذلك جاءت هذه الدراسة مقارنة بين القصتين اللتين تحتوي عليهما وهما (قصة موسى وقصة آدم) ونفس القصتين في العهد القديم. ووجوه التشابه بين سورة طه وسورة الأعلى في المفردات والعبارات والفواصل والأفكار.

واعتمدت في هذه الدراسة التحليل الأسلوبي في إثبات مكية السورة، بالإضافة إلى المقارنة بين القرآن الكريم والعهد القديم فيما يتعلق بالقصتين اللتين تحويهما السورة، لتؤكد عن طريق التحليل التاريخي والمنطقي مواضع العبث في العهد القديم في هاتين القصتين.

والدراسة الأخرى بعنوان " تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً " لمحمود عبد الكريم أحمد الحسين، وهي رسالة ماجستير أنجزت عام 2004، وقد تناول فيها مواضيع

السورة، ومحاورها، واستنبط الدروس والعبر منها، وحاول ربطها بواقع المسلمين وما يعانونه من وطأة الظلم والاستبداد، لتكون السورة بشرى لهم بالنصر والتمكين، وذلك دون أن يتطرق إلى الجانب الأدبي أو الجمالي الذي نتغيا تناوله.

وهذه الدراسات وإن كانت قد تناولت نفس السورة التي هي موضوع بحثنا، إلا أن سياقاتها مختلفة، ولن تشكل إلا جزءاً من طرحنا.

كما نتوجه بجزيل الشكر إلى أستاذنا الفاضل الدكتور عبد الله الغواسلي المراكشي الذي عمنا بفضله وتوجيهه وإرشاداته القيمة، طيلة مدة إنجاز البحث، وتحمل هئاتنا وأخطائنا، مقابل إياها بحلمه وصبره في سبيل أن يكون بحثنا لبنة من لبنات البحوث العلمية التي يعلو بها الصرح المعرفي المرتبط بالفهم السليم للقرآن معنى وجمالاً، الذي يفضي إلى الإسهاد البشري في الأرض.

هذا وإننا لا ندعي أننا قد استوفينا الكفاية والنهية في هذه الأطروحة، وإنما هو

جهد توخينا فيه الجد والصدق في العمل ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ﴾ [سورة هود: 88].

وإني لأسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل ثوابه في صحائف من أفادنا بعلمه وأعاننا على بلوغ غايته، وأن يكون صدقة جارية مصداقاً لقوله

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله عنه إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»⁽¹⁾.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. والحمد لله رب

العالمين.



⁽¹⁾ رواه مسلم في "صحيحه"، كتاب الوصية، باب "ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته"، رقم: 1631.

الباب الأول: جمالية الخطاب القرآني

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني نصا ومنهجيا وتحليلا

الباب الأول: جمالية الخطاب القرآني

القرآن الكريم كتاب الله ومعجزته الخالدة، هذا الخطاب الإلهي الذي كان العرب عند سماعه " كأنما شدوا بأمراس كتان إلى صم جندل⁽¹⁾، فهم يسمعون ويحبون به، ويكادون يسجدون لفصاحته، ويوقنون - يقين العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر." ⁽²⁾ فأحدث آنذاك دهشة بالغة عند متلقيه، وقد عجزوا عن وصفه وإدراك كنهه، إذ لم يسمعوا كلاما مثله من قبل، وإن كان الذين كفروا به قد نسبوه إلى رسول الله ﷺ إلا أنه في قرارة أنفسهم كانوا يعلمون أنه شيء خارق لما اعتادوا سماعه، لم يأت به بشر من قبل. وأما الذين آمنوا به فقد دخل قلوبهم قبل عقولهم، وسحرهم بروعة بيانه ودقة نظمه.

إن للقرآن الكريم جمالا وسحرا يؤثر بهما في النفس البشرية، وهذه القدرة الخارقة - بإرادة الله ﷻ - هي التي جعلته عصيا على التحريف، محافظا على قوته، يستحيل أن يؤتى بمثله.

وإن من أهم أسباب إعجاز القرآن الكريم، جمالية خطابه وأسلوبه الرصين المتناسك، "بهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول وتظافر إيجازه

(1) - جاء في معلقة امرؤ القيس يصف الليل وطوله، " كأن الثريا علقت في مصامها، بأمراس كتان إلى صم جندل" أي كأن نجوم الليل لا تزول من مكانها، ولا تغرب، فكانها مشدودة بحبال إلى صخور صلبة.

(2) "مذهب الصرفة" مجلة الأزهر الشريف، علي محمد حسن العماري، مجلد 21، 1949، ص 41.

وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعته وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه، قد أحكم الحكيم صيغته ومعناه، وقسم لفظه ومعناه إلى ما ينشط السامع ويقرط المسامع من تجنيس أنيس وتطبيق لبيق، وتشبيه نبیه وتقسيم وسيم وتفصيل أصيل، وتبليغ بليغ وتصدير بالحسن جدير وترديد ماله مزيد إلى غير ذلك مما أجرى الصياغة البديعة، والصناعة الرفيعة.⁽¹⁾ فالذي ينظر إلى النص القرآني، يجده زاخرا بالدلالات، غنيا بالصور البلاغية والجمالية الموظفة توظيفا بديعا، وهذه الجمالية الطاغية فيه هي التي تجعل الصياغة الفنية، أداة وغاية في الوقت نفسه، فيتم إبراز الأغراض الدينية في سياق جمالي متميز يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني في سياق محكم ومتوازن، إذ " لا مرأ في جمالية الخطاب القرآني، تلك الجمالية التي طالما وقف العقل الإنساني إزاءها عاجزا، نظرا لما يتمتع به من بعد مزدوج، عبر توظيف الجمالي في خدمة التواصل لیتمازجا معا في بوثة واحدة، لم يكن لأي خطاب أدبي أو تواصل أن يجاريه فيه."⁽²⁾ لكنه يبقى نموذجا مثاليا لكل من يبتغي قولاً رفيعا وأدبا فريدا يحتذى به.

بداية وقبل الدخول إلى صلب الموضوع، لا بد من الوقوف عند بعض المصطلحات الضرورية التي تعتبر مفاتيح لهذه الدراسة، حتى يستبين القارئ معانيها واضحة جلية،

(1) " البرهان في علوم القرآن"، بدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، ط1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي وشركاؤه، 1957، ص10.

(2) "الإشارة الجمالية في المثل القرآني"، عشتار داود محمد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2005، ص8.

ويمكن من الربط بينها، في محاولة فهم إشكالية هذا البحث، كمفهوم "الخطاب"
ومفهوم "الجمالية".

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

المبحث الأول: مفهوم الخطاب

المطلب الأول: دلالات مصطلح "الخطاب"

الفرع الأول: مصطلح الخطاب عند اللغويين القدماء

جاء تعريف مصطلح الخطاب عند القدماء متشابهاً ولا يكاد يخرج عن نفس المعنى، فهو عند الخليل الفراهيدي (ت 170هـ) "مراجعة الكلام"⁽¹⁾ وهذا المعنى يقتضي وجود شخصين أو أكثر، فإذا نظرنا الكلمة في تفسير الزمخشري (538هـ) نجده يعرفها كالآتي: "خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام"⁽²⁾ أي التوجه إلى المخاطب بالكلام.

أما ابن منظور (ت 711هـ) فنجدته يعرفها بقوله: "الخطاب مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان"⁽³⁾. فلا بد من وجود طرف ثان يسمع الخطاب ويرد عليه أو يتفاعل معه.

(1) - معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2002، مادة "خ ط ب"، 419/1.

(2) "أساس البلاغة"، أبو القاسم الزمخشري، دار صادر، بيروت، 1960، ط1، 1992، مادة "خ ط ب"، ص167.

(3) "لسان العرب"، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، 2003، مادة "خ ط ب"، 3/137.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

كما ورد لفظ الخطاب في " المصباح المنير " للفيومي (770هـ): " خاطبه مخاطبة وخطابا، وهو الكلام بين متكلم وسامع، ومنه اشتقاق الخطبة بضم الخاء، وجمعها خُطَب، مثل: غرفة وغرف، والجمع خطباء، ويقال في الموعظة خطب القوم، فهو خطيب إذا كان المتكلم فيهم" ⁽¹⁾. فالمعنى إذن عندهم واحد وفي نفس السياق.

أما عند الفيروزآبادي (817هـ) فيقرنها بالآية " **وَفَصَلَ الْخُطَابَ** " ⁽²⁰⁾، يقول: " فصل الخطاب: الحكم بالبينة أو اليمين، أو الفقه في القضاء، أو النطق بأما بعد. " ⁽²⁾ والقصد في تعريف الفيروزآبادي أنه كلام موجه للآخر بقصد القطع في القول أو الانتقال من موضوع إلى موضوع آخر.

كما يمكننا إضافة معان أخرى للمصطلح نجدها عند التهانوي (1158هـ)، إذ يقول: " الخطاب بالكسر وتخفيف الطاء المهملة على ما في المنتخب، وهو بحسب أصل اللغة، توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نُقِلَ إلى الكلام الموجه نحو الغير للإفهام، وقد يعبر عنه بما يقع به التخاطب، قال في الأحكام: الخطاب اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه، فاحترز باللغة عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبالمواضع عليه عن الأقوال المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا، والكلام يطلق على العبارة الدالة بالموضع على مدلولها

(1) - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير "، أحمد الفيومي، لبنان، بيروت، 1987، مادة " خطب "، ص 66.

(2) - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1993، مادة " خطب "، ص 104.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

القائم بالنفس، فالخطاب إما الكلام اللفظي، أو الكلام النفسي الموجه به نحو الغير للإفهام.⁽¹⁾ ويمكننا أن نعتبر هذا التعريف جامعاً لكل ما سبق وملخصاً له.

وقد جاءت كلمة الخطاب بصيغ متعددة في القرآن الكريم، كلها تفضي إلى المعاني التي تناولها اللغويون، كما أشار إلى ذلك عبد الهادي الشهري في كتابه "استراتيجيات الخطاب"، "فمنها ما جاء بصيغة الفعل، في قوله تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً"، والمصدر في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾⁽³⁷⁾ سورة النبأ 78⁽²⁾.

وبذلك فإن الخطاب عند اللغويين ظل مرتبطاً بمعنى: الكلام الموزون الدقيق، وقوة التعبير، وعند المفسرين والمفكرين بالحجاج والبيان والإفهام.

فالخطاب إذن بالنسبة إليهم كلام محدد، وأكثر اتساعاً عند المفسرين والفلاسفة، وهو ما يُسائل المعنى هاهنا: حيث إن أي خطاب كيفما كان، فإنه لا تنحصر قوته ومثاقته في ذاته، بل في مآلاته ومقاصده، وما يهدف إليه مما يقتضي الوقوف عند أي كلام معنى لا

(1) - كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تح: رفيق العجم - علي دحروج، مكتبة لبنان، 1996، ط1، مادة "خطب"، ص749.

(2) - استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان، 2004، ص34، 35.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

مبنى، ودلالة لا بنية، لاسيما وإن الغاية من الخطاب تطرح ذاتها في وقت هيمنت الرسوم والأشكال والمباني على الجواهر والدلالات والمعاني.

و لا تختلف التعريفات الحديثة لمصطلح الخطاب كثيرا عن تلك القديمة، بل يمكن اعتبارها جميعا لما سبق، ففي المعجم الوسيط نجد الخطاب مرادفا للكلام أيضا:

"الخطاب: الكلام، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾⁽²³⁾، ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾⁽²⁰⁾ : ما يفصل به الأمر من الخطاب، وفي التنزيل العزيز:

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾⁽²⁰⁾ "سورة ص 20، أيضا: الحكم بالينة، أو اليمين أو الفقه في القضاء أو النطق بأما بعد، أو أن يفصل بين الحق والباطل، أو هو خطاب لا يكون فيه اختصار مغل، ولا إسهاب مُمل، وتاء الخطاب، مثل التاء من "أنت" وكاف الخطاب، مثل الكاف من "لك"، والخطاب المفتوح: خطاب يوجه إلى أولي الأمر علانية"⁽¹⁾. فقد جمعوا بين المفهوم عند اللغويين والمفسرين القدماء، ولم يزدوا على ذلك شيئا، إذن يمكننا القول إن المفهوم ظل محافظا على معناه حتى وقت متأخر، ولم تظهر بوادر التغيير فيه إلا بعد موجة الحداثة وما أحدثته من أثر بالغ في إنتاجات النقاد والمفكرين العرب، أثرت على عديد من المفاهيم، كانت الكفة فيها راجحة لحساب التصور الغربي.

(1) "المعجم الوسيط"، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط، 4، 2004، مادة "خ ط ب"، ص: 243.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الفرع الثاني: مصطلح الخطاب عند المفسرين:

بالنسبة لأهل التفسير، فالمعنى عندهم مشابه لما جاء به اللغويون ولا يختلف إلا قليلا، فقد ذكر الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (23) معناها كالاتي، يقول: "صار أعز مني في مخاطبته إياي، لأنه إذا تكلم فهو أبين مني، وإن بطش كان أشد مني فقهرني" (1). فكلمة الأعز تعني هنا الأقوى والأشد خطابا حسب السياق، فهو متوجه إليه بالكلام ومتفوق عليه في كل الحالات.

وأما في هذه الآية ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (20)، فقد جاء الخطاب مقترنا بكلمة أخرى، يشرحها الطبري بهذا المعنى، إذ يقول: "الفصل هو القطع، والخطاب هو المخاطبة، ومن قطع مخاطبة الرجل الرجل في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه.. ومن قطع الخطاب أيضا، الذي هو خطبة عند انقضاء قصة وابتداء في أخرى، الفصل بينهما بآما بعد." (2) فنجد التأكيد على المعنى اللغوي السابق، وإنما الزيادة هنا في أنواع الخطاب وأشكاله.

(1) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بن جرير الطبري، تح: بشار عواد معروف، عصام فارس الحريستاني، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1994، 6 / 343.

(2) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المرجع السابق، ص 341

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وعند الزمخشري فهي بمعنى الكلام الواضح، إذ يقول: "فمعنى فصل الخطاب: البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به، لا يلتبس عليه.. وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد، والحق والباطل، وهو كلامه - داوود عليه السلام - في القضايا والحكومات"⁽¹⁾ ويضيف قائلا " ويجوز أن يراد بالخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مُحل ولا إشباع مُمل، ومنه جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ فصل لا نذر ولا هذر."⁽²⁾ فالإمام الزمخشري يؤكد أيضا على أن الخطاب هو الكلام ويزيد عن هذا المعنى معنى آخر وهو أنه الكلام الموزون الدقيق، كما يضيف معنى آخر أيضا في تفسير الآية وهو الحجاج، إذ يقول: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخُطَابِ﴾⁽²³⁾، وغلبنني.. يريد جأني في حجاج لم أقدر أن أورده عليه ما أرد به، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل"⁽³⁾. فالْحِجَاج عنده حسب ما جاء في سياق الآية هو أحسن من الكلام العادي، وأفضل منه، ويأتي بمعنى المخاطبة بكلام أقوى وأفصح بما تكلم به الآخر.

ويذهب الرازي (606هـ) مذهب الزمخشري في تفسير معنى الآية، ويستبعد تأويل الطبري وغيره إذ يقول: "ومن المفسرين من فسر فصل الخطاب بأن داوود كان أول من

(1) - تفسير الكشاف، الزمخشري، دار المعرفة، ط 3، 2009، بيروت، لبنان، ص 921.

(2) - المرجع السابق، ص: 921.

(3) - المرجع نفسه، ص: 923.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

قال أما بعد، وأقول حقا إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات قد حرموا الوقوف على معاني كلام الله حرمانا والله أعلم.. لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام⁽¹⁾، فالرازي هنا قد طرح معنى أكثر عمقا وأوسع دلالة، إذ ربطه بالتعبير عن ما يخالج الخاطر، وما يتناهى إلى المخيلة.

وفي سياق الآية ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾⁽²⁰⁾ يحدد الرازي أنواع المتكلم والمخاطب مفصلا في القول الذي سبق، إذ يقول: "واعلم أن أجسام هذا العالم ثلاثة أقسام.. (وثالثها) الذي يحصل له إدراك وشعور، ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأصول المعلومة له، وذلك هو الإنسان، وقدرته على تعريف الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم، بل يكون مختلط الكلام، مضطرب القول، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكل ما كانت هذه القدرة أقل كانت تلك الآثار أضعف"⁽²⁾. فالرازي هنا انتقل إلى تحليل نفسيات المتكلمين، واختلاف قدراتهم على التخاطب والتأثير في الآخر، بحسب ما أوتوا من قوة البيان وفصاحة اللسان.

(1) - التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1981، 187/26

(2) - المرجع السابق، (187/26)

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وإذا انتقلنا إلى القرطبي (671 هـ) فالمعنى عنده هو الاختصار الذي يحفظ المعنى، يقول: " فصل الخطاب " قال أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: بيان الكلام.. وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضا. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضا: هو قوله أما بعد، وهو أول من تكلم بها. وقيل: فصل الخطاب البيان الفاصل بين الحق والباطل. وقيل: هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل ⁽¹⁾. وبالإضافة إلى هذا المعنى يضيف معنى آخر في الآية: ﴿ **وَعَزَّزْنِي فِي الْخُطَابِ** ⁽²³⁾ ﴾: أي غلبني، قال الضحاك: إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش. مني... واختلف في سبب الغلبة، فقيل: معناه: غلبني ببيانه. ⁽²⁾ فيضيف هنا في تفسير الخطاب معنى جديدا وهو البيان.

وإن مسألة فصل الخطاب، قد تتوجه نحو الخطاب ذاته وقوة البلاغة فيه، بحيث يكون الفصل مرتبطا بالحجة والدليل، ومبتعدا عن ذات المخاطب، وهو الأليق في قصد الخطاب، لأن تعديه إلى الآخر أفضل من انحساره في ذات المتكلم، إضافة إلى القدرة على تناغم المفهوم مع المنطوق.

⁽¹⁾ "الجامع لأحكام القرآن"، أبو بكر القرطبي، تح: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ط 1، 2006، بيروت،

لبنان، 18/ 149، 150.

⁽²⁾ "المرجع السابق، 18 / 166-167.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وسوف نحاول بعد هذه المجموعة من التعريفات، الرجوع إلى الوراء قليلا لننظر جذور هذا المفهوم في الفكر الغربي القديم والحديث وكيف تطور عبر التاريخ، وكيف حاول المفكرون والنقاد العرب ملاءمته مع ثقافتهم.

الفرع الثالث: مفهوم الخطاب عند الغربيين

على مستوى الاشتقاق اللغوي " فالخطاب مأخوذ من أصل لاتيني، هو الاسم Discoursus"، المشتق بدوره من الفعل "Discursive" الذي يعني (الجري هنا وهناك) أو (الجري ذهابا وإيابا) وهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي، وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال، وغير ذلك من الدلالات التي أفضت في اللغات الأوروبية الحديثة إلى معاني العرض والسرد.⁽¹⁾ وبذلك فإنه حتى هذه اللحظة ما يزال الخطاب بمعناه السابق الذي يقصد به الكلام مع وجود آخر يتلقى ذلك الكلام ويبينه. مع إضافة جديدة، وقد أشرنا إليها سابقا مع الرازي وغيره، وهو مفهوم الحجاج، والذي يبدو جليا أنه تأثر بمفهوم الخطابة عند أرسطو التي تعني عنده نفس المعنى أيضا، " ولعل الذي يسّر الترجمة هو أن كلمة "دسكور" ارتبطت هي الأخرى في مبدأ أمرها، وعند تحولها من الأصل Discursus ، بالحديث عن الخطابة وأجناسها عند أرسطو: حيث يعبر عنها بـ "الكلام الخطابي" أو "الريطورية"، يقول أرسطو في هذا

(1) آفاق العصر، جابر عصفور ط 1، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق. 1997. ص 48.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

السياق: "الكلام نفسه مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه، ومن الذي أقول فيه؟" وهذا الكلام بدوره يصنفه في ثلاث فئات: "فالكلام الخطابي ثلاثة أجناس: مشوري⁽¹⁾، ومشاجري⁽²⁾، وتثبتي⁽³⁾، " ⁽⁴⁾ وهذه الأبعاد الثلاثة للخطابة تفضي بالضرورة إلى أنها أكبر من مجرد الكلام، بل تتجاوزها إلى التأثير والإقناع بالحجج والبراهين حسب ما يقتضيه الموقف.

ويرى جابر عصفور أن "الكلمات الاصطلاحية القريبة إلى الترجمة، التي تشير حقولها الدلالية إلى معان وافدة، لم تنبثق ذاتيا في الثقافة العربية، وإنما كانت نوعا من التعريب لكلمة "خطاب" Discours بالفرنسية، أو Discourse بالإنجليزية، أو Diskurs بالألمانية⁽⁵⁾، إلا أننا قد لا نتفق مع جابر عصفور في هذا الصدد، فإذا نظرنا إلى مفهوم الخطاب عند الزمخشري وغيره، نجده قريبا من المفهوم عند أرسطو، وبذلك فالمصطلح طور نفسه وتبلور عبر العصور وأصبح من الصعب نسبته إلى مدرسة أو اتجاه معين، بل كانت هناك إضافات جديدة للمفهوم حافظت على جوهره.

(1) - يعني به أرسطو تقديم المشورة في أمر خاص أو عام.

(2) - أو قضائي ويعني به الكلام الذي موضوعه العدل والظلم.

(3) - أو تقييمي. ويعني به الكلام الذي موضوعه المدح أو الذم.

(4) - الخطابة. الترجمة العربية القديمة. أرسطو. تح: عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. دار الناشر.

لبنان. 1979. ص 16. 17.

(5) - آفاق العصر. جابر عصفور. ص 47.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

فكما لاحظنا بعد "الاتصال بالخطابة الأرسطية لم تعد "دِسْكور" تقف عند مجرد رصف كلام أو أداء فكرة، بل صارت تتطلب أولا إحداث أثر.⁽¹⁾، وهذا ما لاحظناه في تعريفات الرازي والزمخشري، حول الخطاب التي تكون قريبة جدا من مفهوم الخطابة الأرسطية.

على أساس ما تقدم فإن مصطلح الخطاب، ظل منذ العصر الأرسطي حتى وقت متأخر محافظا على نفس السياق والمعنى - وإن باختلافات بسيطة لا تمس جوهره - عند الغربيين والعرب على السواء، حتى ظهور ما يسمى بالحدثة، حيث سيعرف المفهوم تطورا مهما، يتوسع معه ويتداخل مع مفاهيم أخرى قريبة منه كالنص واللغة والتواصل، وغيرها من المفاهيم، التي ساعد في بلورتها وظهورها مقترنة بالخطاب، التحرر من القيود الفكرية، وانفتاح الثقافات على بعضها. سنحاول الوقوف على أهمها والنظر في علاقتها بمفهوم الخطاب.

أ- الخطاب مرادف للنص

يعتبر بول ريكور أن الخطاب هو الوجه الآخر للنص حيث يقول: " لنطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة، وأن هذا التثبيت أمر مؤسس للنص ذاته

(1) "أسئلة البلاغة. في النظرية والتاريخ والقراءة" محمد العمري. دار إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2013. ص:

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

ومقوم له، وعلى هذا فمفهوم النص ينطوي على أن الرسالة المكتوبة، مركبة مثل العلامة، فهي تضم من جهة مجموعة الدوال بحدودها المادية من حروف متسلسلة في كلمات وجمل متتاليات، ومن جهة ثانية تضم المدلول بمستوياته المختلفة. ⁽¹⁾ فالخطاب هو علاقة متبادلة بين الدال والمدلول، أو بصيغة أخرى هو مجموعة من الجمل تشكل نصاً واحداً لديه قابلية التحقق، كما تشير إلى ذلك إديث كريزويل، حيث ترى بأن "الخطاب هو النظام الذي يتشكل به النص إذ تقول: "يمكننا القول أن مصطلح الخطاب يشير إلى الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تُسهم به في نسق كلي متغير ومتحد الخواص، وعلى نحو يمكن معه أن تتألف الجمل في نظام بعينه لتشكل نصاً مفرداً، أو تتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد، وقد يُوصف الخطاب بأنه مجموعة دالة من أشكال الأداء اللفظي تنتجها مجموعة من العلامات، أو يوصف بأنه مساق من العلاقات المتعينة التي تستخدم لتحقيق أغراض معينة". ⁽²⁾ كالتأثير في المتلقي، "إذ إن الخطاب هو حدث بالضرورة، فعندما يتكلم أحد ما فإنه لا بد أن يحدث أثراً عند المتلقي، فهو ذو وظيفة تأثيرية، كما يشير إلى ذلك بول ريكور" ⁽³⁾، وإذا كان ينظر إلى الخطاب بأنه تجل للنص وحدث، فإن "جوليا كريستيفا

(1) - مناهج النقد المعاصر. صلاح فضل. دار إفريقيا الشرق. الدار البيضاء- بيروت. 2002. ص 133.

(2) - عصر النبوية. إديث كريزويل. تر: جابر عصفور. دار سعاد الصباح. الكويت. ط 1. 1993م. ص 379.

(3) - من النص إلى الفعل. أبحاث التأويل. بول ريكور. تر: محمد برادة. حسان بورقية. ط 1. 2001. عين

للدراستات والأبحاث. مصر. ص 79.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

تري أن النص فوقه، ولا يمكن أن ينحصر داخله، لعدم قابليته على الانحصار في مقولات اللغة، وإن كان مكونا منها." (1)

وهذا التداخل بين مفهوم النص والخطاب قد وقع فيه العديد من السريدين " حيث إنهم لا يقفون عند الحد اللفظي للحكي، مثل (جينيت، تودوروف) إذ لا يميزون بين الخطاب والنص، فنجد في كتابات جينيت مثلا، أنه يستعمل الحكي أحيانا، وهو يعني من خلاله الخطاب، وأحيانا أخرى النص " (2) وكما أن لهذا التداخل بين النص والخطاب مرجعيات مشتركة، فإن الأمر نفسه يسري على الخطاب في علاقته باللغة والكلام.

ب-الخطاب واللغة والكلام

على مستوى المصطلح فإن " الخطاب لم يكن متداولا عند البنيويين الأوائل أمثال دي سوسير وهمسلف وجاكسون، وظل بعيدا عن الشائيات المعروفة، كاللغة والكلام، والكفاءة والقدرة..، وقد جاءت النقلة الألسنية الكبيرة لمسائل الخطاب عند بنفست Benveniste، الذي حاول تجاوز الإطار الشكلي للألسنية البنيوية، وذلك بطرحه لمسائل الوظيفة، ودور الفاعل المتكلم في العملية المنطوقية، وخلص إلى أن الكلمة تشكل نقطة فصل في ميداني اللغة، وهما النظام التشكيلي القائم على

(1) - بلاغة الخطاب وعلم النص. صلاح فضل. دار الكتاب المصري. دار الكتاب اللبناني. ط 1. 2004. ص 269

(2) - انظر : انفتاح النص الروائي. سعيد يقطين. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء/ بيروت. ط 2. 2001. ص

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

العلامة والوحدة، والنظام التواصلي الخطابي القائم بين الوحدة والخطاب، وهما معا يشكلان نظام الدلالة في اللغة"⁽¹⁾ إذا اعتبرنا مقابلة اللغة بالخطاب باعتباره متوالية من المنطوقات، أي من الجمل، كما يشير إلى ذلك بول ريكور"⁽²⁾، والمنطوق أو الوحدة هي الجملة. " فالخطاب هو بنية لسانية تتكون من وحدات هي الجمل، كما يؤكد على ذلك رولان بارت، حيث يعتبر بأن الخطاب يشكل مستوى أعلى من الجملة، فهو حدث لغوي له وحداته وقواعده، ويتفق بول ريكور مع هذه الرؤية حيث يصف الخطاب بأنه حدث، أي أن شيئاً ما يحدث عند فعل الكلام"⁽³⁾، أما ليفي ستراوس فيعتبر الخطاب مستوى يقع بين اللغة والكلام"⁽⁴⁾

ونلاحظ بأن هناك علاقة ترابط بين الخطاب واللغة والكلام، فإذا أخذنا بعين الاعتبار " العبور من لسانيات الكلام أو الرموز، إلى لسانيات الخطاب أو الإرسالية، ومصدر التمييز في ذلك هما دي سوسير ويلمسليف، حيث يميز الأول بين اللغة والكلام، والثاني بين التصور والاستعمال، فإننا سنستنتج انطلاقاً من هذه الثنائية نظرية الخطاب بكل خلاصاتها الإبستمولوجية، فبينما توقف اللسانيات البنيوية

(1) - مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو. الزواوي بغورة. المجلس الأعلى للثقافة. 2000. ص 90

(2) - من النص إلى الفعل. بول ريكور. ص 113.

(3) - مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو. ص 91. وكتاب " من النص إلى الفعل. بول ريكور. ص 79.

(4) - انظر : المرجع السابق. ص 90.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

نفسها على وضع الكلام والاستعمال، ترفع نظرية الخطاب القوس مع الفرنسي إيميل بنفست، فبالنسبة إليه تنهض لسانيات الخطاب ولسانيات اللغة على وحدات مختلفة، فإذا كانت العلامة الصوتية والمعجمية وحدة أساس اللغة، فإن " الجملة " هي وحدة أساس الخطاب.⁽¹⁾

حيث يشير إلى ذلك في كتابه علم اللغة العام، ويعتبر بأن " الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة، والكلام يأتي أولاً من الناحية التاريخية، إذ كيف يمكن للمتكلم أن يربط فكرة ما بصورة للكلمة، إذا لم يكن قد وجد مثل هذا الربط في أحد أفعال الكلام، كما أننا نتعلم لغتنا بالإصغاء إلى غيرنا، فاللغة لا تستقر في الدماغ إلا بعد عدد لا يحصى من الخبرات، وأخيراً يكون الكلام هو السبب في تطور اللغة.. فاللغة والكلام إذن يعتمد أحدهما على الآخر، مع أن اللغة هي أداة الكلام وخصيسته.⁽²⁾ فالكلام بالنسبة إلى دي سوسير هي مجموع الأفكار التي تبلورت في الذهن وشكلتها اللغة.

واللغة عنده هي " مجموع ما في عقول البشر جميعاً، وكأنها بنك يجمع فيه كل اللغات، إن اللغة توجد على شكل مجموعة من البصمات المستودعة في دماغ كل عضو من أعضاء الجماعة على شكل معجم تقريبا، حيث تكون النسخ المتماثلة موزعة بين جميع

(1) - مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو.. ص 79

(2) - علم اللغة العام. فيرديناند دي سوسير. تر: يوثيل يوسف عزيز. دار آفاق عربية. 1985. بغداد. ص 38

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الأفراد"⁽¹⁾. وبذلك فهو يعتبر اللغة نتاجا اجتماعيا مشتركا بين الناس، حيث يقول: "الكلام نتاج فردي، واللغة نتاج اجتماعي واللسان نتاج أجيال أو نتاج تراكمات، وجهود جماعية تكون خلاصتها الثبات والاستقرار في الأنظمة والقوانين اللغوية".⁽²⁾ أي أن الكلام هو تحقيق فعلي لتلك القواعد التي تواضعت عليها الجماعة، فهو يتشكل حسب قدرة الفرد وذكائه. وعلى هذا التقدير فإن الكلام هو تجل من تجليات الخطاب، ودعامة أساسية من دعائمه، حيث إن الوحدة اللغوية هي الخاصية المشتركة بين العلامة والخطاب.

وبالعودة إلى بول ريكور، " فإنه يفترض بأن الخطاب هو كل نص ثبَّته الكتابة، بمعنى لا يمكن أن يتأسس النص بدون كتابة "⁽³⁾، فإننا نجده يستخدم مفهوم الخطاب أيضا عوضا عن الكلام، ويعيد النظر في ثنائية دي سوسير عن اللسان/ الكلام، ويرى أن الأولى وضع كلمة خطاب بدلا من كلام، ليس فقط ليؤكد على خصوصية الخطاب، بل ليفرق بين علم الدلالة والسيمياء، لأن السيمياء في رأيه تدرس العلاقة، بينما علم

(1) - اللسانيات النشأة والتطور. أحمد مومن. ديوان المطبوعات الجامعية. ط2. الجزائر. 2005. ص 122

(2) - دروس في الألسنية العامة. فردينان دي سوسير. تر: صالح القرمادي وآخرين. الدار العربية للكتاب. تونس. ص 16.

(3) - من النص إلى الفعل. بول ريكور. أبحاث التأويل. تر: محمد برادة. حسان بوقية. ط1. 2001. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. مصر. ص 105.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الدلالة يدرس الخطاب أو الجملة. "(1) ويستطرد "ريكور" في حديثه مشيراً إلى أن "الخطاب هو الواقعة اللغوية، وأن الخطاب أو الكلام هو نقطة الضعف المعرفية للغة في رأي اللغويين الذين يطبقون معايير البنى والأنظمة." (2). و الأمر نفسه ما أكدته جوليا كريستيفا " فالنص بالنسبة إليها خاضع لتوجه مزدوج نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان، لغة، ومجتمع محدين)، ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب." (3)

أي إنه انعكاس للغة وتحقق لها على أرض الواقع، وقد أشار إلى ذلك بمعنى آخر فان دايك، بأن الخطاب " يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفعل الكلام الذي ينجز بواسطة التلفظ بذلك الخطاب في سياق التحاور، ويتضح ذلك بشكل خاص في إجراءات كبرى من شأنها أن تؤدي إلى إنتاج معنى شامل لمقطع أو لخطاب كلي." (4)

ويذهب ميشيل فوكو إلى أبعد من ذلك، إذ يقول: " سنفرض النظر إلى الخطاب كظاهرة تعبيرية تترجم إلى الكلام تأليفاً ثم خارجاً عنه، وبدلاً من ذلك سنبحث فيه عن

(1) - نظرية التأويل. الخطاب وفائض المعنى. بول ريكور. تر: سعيد غانمي. المركز الثقافي العربي. بيروت / الدار البيضاء. ط2. 2006. ص 11.

(2) - المرجع السابق. ص 12.

(3) - علم النص. جوليا كريستيفا. تر: فريد الزاهي. مر: عبد الجليل ناظم. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب. ص 93.

(4) - النص والسياق. فان دايك. ص 461.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

حقل انتظام مختلف مواقع الذاتية، حينئذ، لن يبقى الخطاب تجليا لذات تفكر وتعرف وتقول ما تفكر فيه وما تعرفه، بل سيغدو مظهرًا لتبعثر الذات وانفصالها عن نفسها.. إنه مكان كله خارج، لا باطن له، تنبسط عليه مجموعة المواقع المتميزة للذات".⁽¹⁾ ويستطرد قائلا: "ذلك أن تملك الخطاب في مجتمعاتنا، وحتى في كثير من المجتمعات الأخرى بدون شك - إذا قصد منها الحق في الكلام، وكذا القدرة على الفهم وعلى التعامل المباشر مع العبارات التي سبق لها أن عرفت صياغتها - قاصر في الواقع على فئة معينة من الأشخاص".⁽²⁾ وبذلك فهو يضيف معنى آخر لمفهوم الخطاب في علاقته بالكلام، وبأنه ينبثق من فعل جمعي، ليست للذات سلطة عليه إلا بالقدر الذي تستطيع معه ترجمتها في الواقع، ويضيف قائلا في هذا الصدد: "بدلا من أضيق من المعنى الفضفاض والواسع للفظ "خطاب"، أعتقد أنني ضاعفت وأكثر من معانيه، فهو أحيانا يعني الميدان العام لمجموع العبارات، وأحيانا أخرى مجموعة متميزة من العبارات، وأحيانا ثالثة، ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معين من العبارات وتشير إليها".⁽³⁾

ولا شك أن ما انصرف إليه اللغويون في الوقوف عند الخطاب والكلام واللغة يتماشى مع رؤية النحاة في هذا الشأن من التعقيد لدلالة الكلام واللغة وغيرها... وإن كنا

(1) - حفريات المعرفة. ميشيل فوكو. تر: سالم يفوت. المركز الثقافي العربي. ط2. بيروت / الدار البيضاء. 1987. ص52.

(2) - المرجع السابق. ص64.

(3) - المرجع نفسه. ص76.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

ميا لين حقيقة لفحوى الخطاب وقوة دلالاته لا الوقوف عند ذاته واختلاف الرؤى فيه وإلا كان الخطاب القرآني خاليا من مقاصده حين نضعه على بساط واحد مع تعدد أشكال أنواع الخطابات المتعددة.

ج- الخطاب والتواصل

كثير من رواد تحليل الخطاب، يعتبرون أن مفهوم الخطاب إنما هو انعكاس أو تجل لفعل تواصلي، أي إنه يستحيل تحقيقه إذا لم توجد قنوات للتواصل، فحسب بينفنست " الخطاب هو كل تلفظ يفترض متحدثا ومستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال".⁽¹⁾ أي يستدعي فعلا ورد فعل، وهذا ما يذهب إليه أيضا فان دايك " إذ يربط الخطاب بوظيفته ربطا يستحيل أن نطلق عليه لفظ خطاب إذا لم يوجد هناك مستوى من التفاعل بين المخاطب والمتلقي، حيث يقول: " إن كل خطاب مرتبط على وجه الاطراد بالفعل التواصلي، وبعبارة أخرى فإن المركب التداولي ينبغي ألا يخصص الشروط المناسبة للجمل ومقتضى الحال فيها، بل يخصص هذا المركب ضروب الخطاب أيضا".⁽²⁾ فلا يمكن أن يعتبر الخطاب خطابا إلا إذا تحققت فيه الوظيفة التواصلية، أي إنه يكتسب وجوده من خلال تحقيقه، فهو " في آن واحد فعل الإنتاج

(1) - إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة. محمد البارودي. مركز النشر الجامعي. تونس. 2004. ص 1.

(2) - النص والسياق. فان دايك. ص 21.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

اللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية... وبتعبير آخر إن الخطاب هو "الموضوع المجسد أماننا كفعل" (1).

ويرى ميشيل فوكو الذي ارتبط اسمه بنظرية تحليل الخطاب، بأن "الخطاب هو مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية، قابلة لأن تتكرر إلى مالا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ، بل هو عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شرط وجودها." (2) وهو بهذا يضع الخطاب داخل مجال زمني ومكاني محدد، يستطيع من خلاله تحقيق وجوده. فالخطاب إذن يدخل فيه الكلام، والمتكلم، وسياق الخطاب وأساليب التخاطب، لتتشكل عندنا بنية متكاملة من الآليات والوسائل التي تؤطر هذا المفهوم.

وقد أجمل بدري الحربي أهم الاصطلاحات والتعريفات التي وضعها اللسانيون واللغويون الغربيون لمفهوم الخطاب، وأدرجها كالاتي:

- "الخطاب مصطلح مرادف للكلام، بحسب رأي دي سوسير اللساني البنيوي.

- الخطاب وحدة لغوية ينتجها الباث (المتكلم) تتجاوز أبعاد الجملة أو الرسالة،

بحسب رأي هاريس.

(1) - "انفتاح النص الروائي" سعيد يقطين. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت. ط2. 2001.. ص: 16

(2) "حفريات المعرفة". ميشال فوكو. ص: 78.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

- هو وحدة لغوية تفوق الجملة، تولد من لغة جماعية بحسب بنفست.

- مفهوم الخطاب يقابل مفهوم الملفوظ في المدرسة الفرنسية، إذ أنهم يرون أن النظر إلى النص بوصفه بناء لغويا يجعل منه ملفوظا، أما البحث في ظروف إنتاجه وشروطه فإنه يجعل منه خطابا.

- وهو نظير بنيوي لمفهوم الوظيفة في استعمال اللغة بحسب رأي تودوروف
فهو أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راو ومستمع، وعند الأول فيه نية التأثير في الآخر بطريقة معينة كما يقول بنفست⁽¹⁾.

وقد تطور المفهوم وتجدد بشكل لم يعد معه " مجرد طريقة للتعبير أو حديثا متساوقا أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة، أو تحليل لذات واعية، تتأمل وتعرف وتعبر، وإنما أصبح إمكانا وشرط وجود ونظاما، أصبح حقلا تتمفصل فيه الذوات، ومجموعة علاقات تجد فيها مرتكزا له." ⁽²⁾ كما أشار إلى ذلك علي حرب (حسب رأي ميشيل فوكو) وهكذا لم يكن دائما لمفهوم الخطاب عند الغربيين نفس الدلالة، فقد تعددت تعريفاته وتنوعت تحديداته، فنجد المعنى يتشكل عند كل واحد منهم حسب المنهج الذي يتبعه،

(1) " الأسلوبية في النقد العربي الحديث " فرحان بدري الحربي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

ط 1. لبنان. 2000. ص: 39. 40.

(2) " الموسوعة الفلسفية العربية " علي حرب. معهد الإنماء العربي. ج 1. ط 1. ص: 1771

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

ويتبلور انطلاقاً من الدراسات التي ارتبطت به. وقد ظل مرتبطاً بالأساس بمفهوم النص واللغة والكلام، وصل أحياناً حد التداخل بينها، وتمايز أحياناً أخرى.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الفرع الرابع: مصطلح الخطاب عند المفكرين والنقاد العرب

من المعروف أن اللغة مرتبطة ببيئتها وظروف نشأتها، ولها من الحمولة الفكرية والثقافية ما يجعلها تتمتع بخصوصية يتعذر معها الإسقاط على لغة أخرى بشكل كامل. ولذلك فقد بذل مجموعة من اللغويين والنقاد العرب جهودا حثيثة من أجل تقريب هذه المفاهيم ومحاولة موضعتها مع المفاهيم الأصلية، منهم من حقق التقارب نسبيا، ومنهم من نأى عن الغاية فباتت المفاهيم عنده مشوهة وغريبة عن أصلها.

وقد كان " الخطاب " من بين هذه المفاهيم التي طرحت إشكالا من جهة ضبطه وترويضه، إذ كان بمثابة امتداد للمفهوم قديما، لكن برؤية جديدة تقتضيها الحداثة الأدبية، والاحتكاك بالغرب. لأن تحديده بالأساس اعتبر إشكالا كبيرا حتى عند الغربيين أنفسهم، فمنهم من اعتبره مرادفا للنص، ومنهم من اعتبره مرادفا للكلام، ومنهم من اعتبر أن كل خطاب هو نص بالضرورة وليس كل نص خطابا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

أ- الخطاب بين اللغة والكلام

بالنسبة لصلاح فضل فإن الخطاب مرتبط بالنص الذي يرتبط بدوره بالكتابة، فهو يتوسط اللغة والكلام، وهذه العلائق المتداخلة، ذات أهمية بالغة في عملية إنتاج

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

النصوص، وهذا ما أكد عليه ليفي ستراوس سابقاً.⁽¹⁾ وهذا أيضاً ما يؤكدده عمار بلحسن " إذ يعتبر مفهوم الخطاب واقعا بين اللغة والكلام، " فاللغة هي ظاهرة اجتماعية ونسق من العلاقات يسمح للأفراد بالاتصال فيما بينهم، أما الكلام فهو الاستخدام الحر من طرف فرد للغة، ويبدو الخطاب واقعاً وسيطاً بين اللغة والكلام، فهناك شبه تعارض بين الكلام والخطاب، كحرية نسبية واللغة كشفرة منسجمة ونسق من القواعد العامة والكونية: إن الجملة ما هي إلا كلام كموضع للنشاط وبرمجة للذكاء الإنساني.⁽²⁾ أي إنها تحقيق لقواعد اللغة، وهي أيضاً " وحدة لسانية صغرى تساهم إلى جانب جمل أخرى في تشكيل الخطاب، وليس هذا سوى شكل من أشكال تظهر اللغة والعمل على جعلها أداة للتواصل، ولذلك يظل هذا المفهوم في الحقل اللساني ضيقاً لا يمتد ليشمل باقي المستويات التي يمكنها الإسهام في إنتاج هذا القول، وهذا ما يؤكد لنا أن الخطاب من هذه الزاوية هو خطاب لغة وقول، يرتبط باللغة من حيث هي أداة للتواصل بين طرفين تتم بواسطتها الدورة الكلامية وهما المرسل والمرسل إليه".⁽³⁾ إن الخطاب إذن رسالة بين مرسل ومتلق، تنجز بوسائل داخل سياق محدد في المكان والزمان، قصد التبادل والتبليغ

(1) - أنظر: مناهج النقد المعاصر. صلاح فضل. ص 132. ومفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو. الزواوي بغورة. ص 90.

(2) - "الخطاب. المرجعيات السيميائية والسوسولوجية". عمار بلحسن. الدراسات العربية والخطاب. مجلة كتابات معاصرة الشركة العربية للتوزيع. بيروت. ع 11. ص 7.

(3) - "التراث والخطاب". مجلة جذور. خالد سيلكي. النادي الأدبي الثقافي الرياض. ج 8. مج 4. 2002. ص 424.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

والتأثير، وبذلك فهو تلك "الصياغة لفكرة مقصودة، في تتابع لغوي وفق ما تقتضيه القواعد اللغوية للغة معينة، ومن الضروري هنا ضبط الصحة، والسلامة في التأليف اللغوي، لأن سوء التأليف قد يؤدي إلى الاضطراب في العملية الإبداعية، ليتم بعد ذلك إرسال الخطاب في الهواء إلى المتلقي، إذا كانت الرسالة منطوقة، أو تدون في المدونة الكتابية".⁽¹⁾ فاللغة إذن هي الركيزة الأساسية لتحقيق الخطاب وتشكله وقيامه بوظيفته التواصلية والتأثيرية.

فالخطاب بهذا الشكل هو تثبيت لدعامة اللغة والكلام وتحقيق لوظيفته الأساسية المتمثلة في التواصل.

ب- الخطاب والنص

لطالما تداخل هذان المفهومان عند كثير من البنيويين كما ذكرنا سابقا، وهو الأمر نفسه عند العرب، فهناك من اعتبر الخطاب أوسع من النص، كما يرى محمد العبد إذ يعتبر مفهوم الخطاب أفسح مجالا من مفهوم النص، ويؤكد على أن "الخطاب ينبغي النظر إليه على أنه موقف ينبغي للغة أن تحاول العمل على مطابقته؛ وعلى ذلك فإن الخطاب أوسع من النص، فالخطاب ليس بنية بالضرورة، ثم إن غلبة النص على المكتوب، والخطاب على

(1) - "الاتصال اللغوي بين الدقة والغموض". عبد الحليم بن عيسى. مجلة اللغة والاتصال. جامعة وهران.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الملفوظ ليس حاسماً؛ فأحدهما يلتبس بالآخر على سبيل التوسع " (1) وهناك أساس آخر للتمييز بين النص والخطاب بالنسبة لمحمد العبد، إذ غالباً ما يعني الخطاب، الخطاب التفاعلي interactive discours، على حين يكون النص مونولوجاً غير تفاعلي، إذ إنه في غالب الأحيان نتكلم عن النص المكتوب في مقابل الخطاب المنطوق، هذه التميزات نجدها حاضرة في الثقافة العربية، حيث ظل النص فيها مرتبطاً بالمتن، بينما يرتبط الخطاب بالاتصال الشفهي المباشر من جهة، كما يرتبط من جهة ثانية بحضور الطرف الآخر في العملية الاتصالية، وتفاعله على نحو ما، فهو الوجه الآخر للنص في بعده الكلامي والتواصلي. " (2)

وهناك من يعتبر النص أشمل من الخطاب، فبالنسبة لخلود العموش الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالاً يمكنه أن ينقل فكرة أو رسالة من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصاً، وإن كان كل نص بالضرورة خطاباً، فالكلام المتصل خطاب، ولكنه لا يكون نصاً إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية، وعبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم، فالخطاب تجل للنص في مستوى من المستويات، إذ إنه لا يتطلب التماسك كما هو الحال بالنسبة إلى النص، بقدر ما يضطلع بالمهمة الإبلاغية التواصلية. (3)

(1) - "النص والخطاب والاتصال". محمد العبد. الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي. ط 2. ص: 12

(2) - النص والخطاب والاتصال. محمد العبد. ص 8.

(3) - انظر "الخطاب القرآني" خلود العموش. عالم الكتب الحديث. الأردن. ط 1. 2008. ص 24.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وهناك من يعتبر الخطاب شكلا من أشكال الانزياح للنص، " فهو كل ملفوظ يندرج تحت نظام اللغة وقوانينها فهو نص، وإذا ما خرج ليندرج تحت السياقات الاجتماعية سمي خطاباً" ⁽¹⁾، حسب حسين واد.

أما سعيد يقطين فيرى أن الخطاب إنما هو انعكاس للنص-كوحدة مجردة-في بعده التواصلية. ⁽²⁾ ومجمل القول إن الخطاب قد يتسع بكل هذه التعريفات جميعها، وقد يضيق بوحدة منها، ويمكننا أن نقول إن هذا المفهوم يتسم بالمرونة خصوصا إذا ربطناه بالكتابة والأدب والإبداع، فهو " كتلة من المستويات اللسانية التي تعكس الفكر والمشاعر، والتي تقدم صورة عن ملامح الإبداع وأسراره الباطنة والظاهرة". ⁽³⁾ إذن " ليس الخطاب وعياً يتخذ من اللغة مظهره الخارجي، إنه ليس لساناً وذاتاً تتكلمه، وإنما هو ممارسة لها أشكالها الخاصة من الانتظام" ⁽⁴⁾. وبذلك فهو " يشكل نسقا أو بنية منظمة لها قواعدها التي تتحكم في سيرورتها، من أجل إنتاج هذه الدلالة الكلية" ⁽⁵⁾.

ويبقى مع ذلك مفهوم الخطاب أمرا مختلفا عليه، ومترامي الأطراف نظرا لاقتراحه بمجالات أدبية ومعرفية مختلفة، يقول محمد العبد: " كلما ذكر الخطاب، أدركت أنني أمام

(1) - "في مناهج الدراسة الأدبية". حسين واد. دار سراس للنشر. تونس. 1985. ص 37

(2) - انفتاح النص الروائي. ص 13.

(3) - "جمالية تحليل الخطاب" عبد النبي همامي. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2014. ص: 5

(4) - "بين بين". عبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال. الدار البيضاء. ط 1. 1999. ص 78-79.

(5) - بلاغة الخطاب كيف تتحقق؟ سعيد جبار، ط: 1، دار الأمان، الرباط، 2014. ص: 161

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

قضية شائكة يصعب حصر جوانبها المتعددة وأبعادها المتداخلة، فهو وحدة لغوية أو إشارية تربط جسر التواصل بين شخصيات متفاعلة توجد بينهم جميعا نفس المنظومة الخطابية بقوانينها وشفراتها ومدلولاتها، غير أن تعقيد الخطاب يرتبط باتساع الحقول المعرفية التي تشتغل به، وتجعل منه موضوعا لها، محددة الأهداف والمرامي التي تروم تحقيقها من خلال مقاربتة وتحليله. ⁽¹⁾

فيصعب بذلك الإحاطة بجوانبه المتباعدة الأطراف، والمتداخلة فيما بينها.

وبذلك يبقى المفهوم كما ذكرنا بداية " متأرجحا بين النسخ عن الغرب، واتخاذ مفاهيم أساس للحكم على النص العربي، وبين الانطلاق من المفهوم الغربي وصياغة مفاهيم جديدة تتساقق والنص العربي، وفي الحالتين يصر إلى استبعاد الأساس العربي الذي رسم حدودا لمفهوم الخطاب لا تبعد في جوهرها عن المفهوم الغربي الحديث" ⁽²⁾. وهذا ما ذكرناه بداية في أن المفهوم في جوهره لا يُختلف عليه، وكل ما جاء في فترات لاحقة، إنما هو محاولة للتوسع في المفهوم ووضعه في الإطار المناسب له.

ويمكننا أن نجمل أهم الخلاصات التي وقفنا عندها في مفهوم الخطاب وعلاقته بباقي المفاهيم المطروحة عند الغربيين والعرب، من خلال النقاط الآتية:

(1) - بلاغة الخطاب. مرجع سابق ص: 161.

(2) " تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث " مهى العتوم. رسالة دكتوراه. الجامعة الأردنية. 2004. ص: 20.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

- الخطاب هو متوالية من المنطوقات أو الوحدات التي تعني الجمل.
- العلامة الصوتية والمعجمية هي وحدة أساس اللغة، والوحدة هي وحدة أساس الخطاب.
- الكلام لا يتشكل إلا عن طريق اللغة، وهذه اللغة تشكل بدورها الأساس الذي يبنى عليه الخطاب نظمه وعلاقاته.
- الخطاب مرتبط بالبعد المسموع، بينما النص مرتبط ببنية اللغة واشتقاقاتها وشبكة علاقاتها.
- إن اللغة هي أداة الخطاب للتواصل.
- الخطاب هو كل نص ثبت بالكتابة.
- الخطاب لديه خاصية الدلالة التي يولدها كأثر لجدلية الكلام والكتابة.
- النص وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصل، أي أن النص هو الجانب النظري لفعل الخطاب التداولي.
- الخطاب هو الفعل المجسد للنص الموضوع والمجرد.
- الخطاب مرتبط بالبعد المسموع، بينما النص مرتبط ببنية اللغة واشتقاقاتها وشبكة علاقاتها.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

- الخطاب هو حدث لغوي، مرتبط بالضرورة بمكان وزمان معين.
- الخطاب مرتبط بالأساس بالفعل التواصل، ولذلك فإنه وثيق الصلة بالسياق الاجتماعي، إذا ما خرج من عباءة نظام اللغة وقوانينها.
- وخلاصة ما ذكر، فإن الخطاب قد حمل ذلك التساوق بين ما يتلجلج في نفس الإنسان وضميره، وبين قدرته على التعبير، بحيث إن الخطاب صورة دقيقة لما يعتقد الإنسان من إدراكات ومفاهيم.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

المطلب الثاني: مفهوم الخطاب القرآني

رغم الاختلاف في التحديد الدقيق لمفهوم الخطاب ورغم تجدد المستمر الذي يستدعيه التطور الفكري، إلا أن الخطاب القرآني ظل محافظاً على أصالته وقوته، باعتبار خصوصيته القدسية، وإن اختلفت طرق تناوله، فهو "منظومة متكاملة تتماسك أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتشكل وحدة عضوية متحركة حيوية لا تجعل من الممكن أن يفهم أي جزء على حدة، وإنما ضمن وضعه في الإطار العام أو من خلال علاقته بالوحدة الكلية أي بالأجزاء الأخرى مجتمعة وفي آن واحد.⁽¹⁾" هذا التماسك المحكم هو وجه الخطاب القرآني وسمته الأساسية، وبه يتميز ويتفرد عن سائر الخطابات.

وهذه الميزة في الخطاب القرآني هي التي جعلته "قادراً على استيعاب وتصويب مختلف مناهج العلوم العقلية والعقلية والطبيعية والاجتماعية والإنسانية وغيرها وتقويمها كذلك، وهو وحده بحكم عالمية رسالته القادر على استيعاب مختلف الأنساق الحضارية وتصويبها وتقويمها."⁽²⁾

كما أن هذا الخطاب موجه بشكل خاص إلى الإنسان في وجوده الكامل عقلاً ووجداناً وعاطفة. يقول عبد الله دراز: "في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة

(1) "الإسلام في معركة الحضارة". منير شفيق. دار الكلمة للنشر. ط 2. 1983 ص 61

(2) "أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة". طه جابر العلواني. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا. أمريكا. ط 1. 1996 ص 31.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فأما إحداها فتتقرب عن الحق لمعرفة وعن الخير للعمل به، أما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا".⁽¹⁾ وهو بذلك موجه لعموم الإنسانية على اختلاف مداركهم ومشاربهم ومستوياتهم، وهذا ما يندر في الخطاب البشري، ويشير إلى ذلك دراز بقوله: " فلو أنك خاطبت الأذكىء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكىء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلا غنى لك -إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملا من بيانك- أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب الرجال. فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء والأذكىء والأغبياء، وإلى السوق والمملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قراءان واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة

(1) "النبا العظيم". عبد الله دراز. دار الكتاب المصري. القاهرة. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ط 1. 2014.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء".⁽¹⁾

وهو أيضا السهل الممتنع، بحيث يعجز أحد أن يأتي بمثل بيانه وبراعة لفظه " فلقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة، فإن أحدا من البلغاء لا تمتنع عليه فصيح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع فترف به، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة".⁽²⁾ فسر الإعجاز يتجلى في تركيب المعاني وصياغتها بطريقة محكمة، لا يمكن مجازة أساليب أو تركيبات أخرى لها، لذلك فالخطاب القرآني متكامل منسجم ومتناسق في شكله ومضمونه، يتميز بسيرورة تاريخية واجتماعية لا تتوقف عند حدود النص المكتوب والمقروء، إنه " جمع آيات التحمت عبر لحظات متدافعة في مواقع متجددة وبأغراض توجيهية معلومة سواء كان هذا التوجيه بالإعمال أو الإبطال، بالدعم والتثبيت أو بالتقويم والتصويب. وإذا ما انقضت المناسبات

(1) "النبأ العظيم". عبد الله دراز. المرجع السابق. ص 113

(2) "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية". مصطفى صادق الرافعي. دار الكتاب العربي بيروت. لبنان. 1990. ص

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

والملايسات بقيت هذه الآيات لا بمثابة الذكرى التي تسجل واقعة انقضت، وليست كمحفظة تاريخية أو بيان توثيقي، وإنما بقيت هذه الآيات تحتفظ بكامل فعاليتها التوجيهية النافذة عبر الزمان والمكان بالنسبة لكل موقف إنساني اجتماعيا أو تاريخيا، يحتوي على عناصر الموقف الأساسي الذي كان سببا في النزول. " (1) فهو نص أزلي، يستمد قوته وإعجازه من داخله، وأما العناصر الخارجية فهي التي تمنحه التجدد في المعاني.

ويعبر عن ذلك مالك بن نبي بانبهاره بهذا الخطاب وحيرته الفلسفية فيما يعتبره اعترافا فطريا بعظمته، يقول: " إن ارتيادنا القرآن وتأملنا له مع اختلاف مقاصدنا، ومع تعلقنا مقدما بمزاعم المثقفين المحدثين، يبهنا بنظام أفكاره الغريب، ومادته العجيبة.. ونحن هنا نجد أنفسنا ملزمين باعتراف هو اعتراف مثقف أقبل على القرآن بطوية فطرية، كيما يكتشف فيه (كومة) من المعلومات المحددة، كأنه يطلع على أحد المجلدات الفنية" (2). ويمكننا أن نخلص بعد هذا إلى مجموعة من المميزات التي وسمت الخطاب القرآني عن غيره، وكانت دافعا قويا من أجل هذه الدراسة، التي نتمنى أن تكون لبنة من لبنات دراسته.

(1) "نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات". منى عبد المنعم أبو الفضل. مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. القاهرة. ط. 1. 1996. ص 21. 22.

(2) "الظاهرة القرآنية" مالك بن نبي. تر: عبد الصبور شاهين. دار الفكر. دمشق. ط 9. 2009. ص 282.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

أولها: أن الخطاب القرآني وحدة كلية تتنظم في أجزاء متماسكة تشرح إحداها الأخرى، وتبين معانيها وسياقاتها، ولا يمكن حذف جزء أو الاستغناء عنه مهما تناهى في الصغر، لأنه سيخل بالمعنى الجزئي والكلي على السواء.

ثانيها: أن الخطاب القرآني منفتح على جميع المعارف والعلوم ومستوعب لها، وعندما نتكلم عن الانفتاح فإننا نقصد بأنه لا يمكن الحديث عن القرآن بعيداً عن ساحة المعرفة والدعوة إلى أعمال العقل والفكر والوجدان.

ثالثها: يتميز الخطاب القرآني عن غيره من الخطابات البشرية بأنه يخاطب الإنسان على اختلاف درجات معرفته وفهمه، لا يميز بين أُمِّيٍّ أو مُتَعَلِّمٍ، رغم ما يتصف به من قوة النظم وجزالة اللفظ.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

المبحث الثاني: مفهوم الجمال

المطلب الأول: الجمال لغة

يعرف أهل اللغة الجمال فيصفونه بأنه "الحسن الكثير، وهو مصدر الجميل، وهو ما يتجمل به ويتزين، وهو ضد القبح، والفعل منه جمل يجمل، يقال: جمل ككرم، فهو جميل وجُمَالٌ، وجُمَالٌ (بالضَّم والتشديد) على الكثير أجمل من الجميل، وجَمَلَه: أي زينه، والتَّجَمَّل: تكلف الجميل، وامرأة جملاء وجميلة، وهي التي تأخذ ببصرك على البعد، والتَّجْمِيل: زيادة شيء على الأصل. ويقال: جاملت فلاناً مجاملة: إذا لم تُصِفِ له المودة والإِخاء، وماسحته بالجميل، والمجاملة: المعاملة بالجميل، ويقال: أجملت في الطلب: رفقت، ويقال للشَّحم المذاب جميل⁽¹⁾.

وفي القاموس المحيط، الجمال: "الحسن في الخلق والخلق"⁽²⁾.

وقد جُمِّل الرجل بالضم والكسر جمالا فهو جميل، وتَجَمَّل تَجَمَّلاً: تزيّن وتحسّن: إذا اجتلب البهاء والإضاءة⁽³⁾. " ويجوز أن يكون الجمل إنَّما سمِّي بذلك؛ لأنَّهم يُعَدُّون

(1) لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت. 126 / 11.

(2) القاموس المحيط. الفيروز آبادي. دار الحديث. مصر. حققه أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد. 2008. ص 295.

(3) لسان العرب. ابن منظور. ص 126.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

ذلك جمالاً لهم" ⁽¹⁾. فالجمال كل ما يبعث في النفس بهجة ورضا، ويحتمل دالتين، كما جاء في كشف اصطلاحات الفنون والعلوم "الجمال جمال الصورة والسيره، ويطلق على معنيين، أحدهما الجمال الذي يعرفه كل الجمهور، مثل صفاء اللون ولين الملمس، وغير ذلك مما يمكن أن يكتسب، وهو على قسمين: ذاتي وممكن الاكتساب، وثانيهما الجمال الحقيقي، وهو أن يكون كل عضو من الأعضاء على الفصل ما ينبغي أن يكون عليه من الهيئات والمزاج." ⁽²⁾ ويقصد به التهانوي، الجمال الظاهر والجمال الباطن الذي لا يرى إلا بالاستقصاء والتجريب.

أما عند الخليل الفراهيدي فالجمال "مصدر الجميل، والفعل منه جَمَلٌ **يَجْمَلُ**، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَىٰ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ⁽³⁾. سورة النحل. أي: بهاء وحسن." ⁽³⁾ أي إن في الأنعام حسنا وجمالا لرؤيتها وهي تغدو للمرعى وتروح وقد امتلأت ضروعها، فهذا المنظر يبعث في النفس الشعور بالبهاء والبهجة وهي مرادفات تفضي إلى معنى الجمال عند العرب كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهذا ما نجده أيضا في المعجم الوسيط وهو قاموس حديث، فهو يؤكد كل التعريفات السابقة، ويضيف إليها

(1) - تاج العروس من جواهر القاموس. الزبيدي. محمد مرتضى الحسيني. دار الهداية. 236 / 28.

(2) - كشف اصطلاحات الفنون والعلوم. التهانوي. ص 570.

(3) - معجم العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي. تح: مهدي المخزومي. إبراهيم السامرائي. دار الرشيد. وزارة الثقافة والإعلام. العراق. ط 1. 1988. 142 / 6.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وجود علم جديد خاص بهذا المفهوم وهو علم الجمال. فهو "صفة تلاحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سرورا ورضا، وعلم الجمال باب من أبواب الفلسفة يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته." (1)

(1) - المعجم الوسيط. ص 137

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

المطلب الثاني: الجمال اصطلاحاً :

ظل المعنى الاصطلاحي للجمال معتمداً على معناه اللغوي بالأساس، مع توسع في المضمون، وانطلاقاً من توصيف السيوطي (911هـ) -القريب من المعنى اللغوي- له بأنه "الهيئة التي لا تنبو الطباع السليمة عن النظر إليها" ⁽¹⁾. فهو لافت للنظر ولا يمكن للإنسان تجاوزه.

والجمال "رقة الحسن، وهو قسمان: جمال مختص بالإنسان في ذاته أو شخصه أو فعله، وجمال يصل منه إلى غيره." ⁽²⁾ فهو في الاصطلاح أيضاً متصل بالحسن، لكنه أكثر اتساعاً وامتداداً وأعمق معنى، وهو مرتبط بما يحدثه من أثر عند الآخر. ويفصل أبو هلال العسكري (395هـ) في الفرق بين الحسن والجمال وإن ظهر اتصاليهما ببعضهما فيقول: "الفرق بين الحسن والجمال، أن الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الأفعال والأخلاق، ومن كثرة المال والجسم، وليس هو من الحسن في شيء، ألا ترى أنه يقال: لك في هذا الأمر جمال، ولا يقال: لك فيه حسن، وفي القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ⁽⁶⁾ النحل 6، يعني الخيل والإبل، والحسن في الأصل الصورة، ثم استعمل في الأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة، ثم استعمل في الصور، وأصل

⁽¹⁾ معجم مقاليد العلوم. أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي. مصر. مكتبة الآداب. 2004 م.

ص 199.

⁽²⁾ التوقيف على مهمات التعاريف. محمد عبد الرؤوف المناوي. بيروت. دار الفكر المعاصر. 1410هـ. 1/ 251.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الجمال في العربية العظم، ومنه قيل الجملة لأنها أعظم من التفريق، والجمال سمي جمالا لعظم خلقته، ومنه قيل للشحم المذاب جميل لعظم نفعه. ⁽¹⁾ فالجمال عند العسكري ما كان معنويا بالدرجة الأولى، يُدرَك من طريق الفعل والخلق، بخلاف الحسن المرتبط بالهيئة أو الصورة، وقد جمع في تعريفه بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، بالإضافة إلى ربطه بمفهوم العظمة ومفهوم المنفعة.

وهو عند الجرجاني (816هـ) " من الذوات تناسب الأعضاء، ومن الصفات ما يتعلّق بالرّضا واللّطف " ⁽²⁾. والتماس معناه سهل ممتنع " فهو قريب متداول، يفهمه الجميع ويتعاملون معه، ولكنّ التعريف به بعيد المنال، وقيل: الجمال لا يقبل التعريف؛ لأنّه معنى وجداني يختلف الأفراد في تقديرهم له، وإنّما يعرف من خلال الأشياء الجميلة " ⁽³⁾.

(1) - الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. تح: محمد إبراهيم سليم. دار العلم للثقافة والنشر والتوزيع. القاهرة. ص 262.

(2) - التعريفات. علي بن محمد بن علي الجرجاني. بيروت. دار الكتاب العربي. 1405هـ. ص 105.

(3) - الظاهرة الجمالية في الإسلام. صالح أحمد الشامي. بيروت. المكتب الإسلامي. 1986.. ص: 23-24.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

وعموماً فإن " الجميل هو الذي أحبه الإنسان ورغب فيه بناء على اعتقاداته الجمالية المرتبطة بتشكيله الثقافي والاجتماعي، وغيرها من العوامل المصممة لهذه النظرة الجمالية عنده. " (1)

والمعنى من كل ما تقدم أن الجمال هو انعكاس الشعور بالرضا والسرور في النفس مما يشاهده الإنسان في كل شيء حوله أو يسمعه، إضافة إلى أنه متعدد الدلالات عند العرب، ومتعلق بكل ما هو خير وسامي.

المطلب الثالث: علم الجمال فلسفة

الفرع الأول: مفهوم الجمال عند الفلاسفة والمفكرين العرب القدماء:

اهتم الفلاسفة والمفكرون العرب القدامى بموضوع الجمال، وعرفوا أن عنايتهم بالجمال هو من صميم عنايتهم بالأخلاق والقيم التي تبني الأمة وتساهم في تقدمها ونهضتها، " فأقبلوا على الفنون والآداب -كالشعر والموسيقى - التي تستثير الحواس وتؤثر على العواطف لجمالها وأثرها الطيب على النفس، ولم تكن نظرهم إلى تذوق الجمال تستند إلى الإدراك الحسي فقط، بل كانت تربط اللذة بما هو جميل بإدراك ذهني يكشف

(1) - الجلال والجمال في القرآن الكريم. دراسة في المفهوم والدلالة. محمد تكروك. جامعة محمد بن عبد الله.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

عن جمال المضمون. "(1) وقد انتقلت هذه الرؤى الجمالية " إلى فلاسفة القرون الوسطى، وانعكست على رؤيتهم وفهمهم للجمال وأثرت على المدى البعيد على النظريات الناشئة في علم الجمال الغربي. "(2) وقد نشأ عن هذا التقدير للجمال فن إسلامي خاص " شكل نتاج إبداع أمة في حقبة حضارية مزدهرة من تاريخ الفكر والثقافة العالمية التي تبلورت من خلال الثقافة الإسلامية التي جسدت الفكر من خلال التطبيق في ميادين العلوم المختلفة، فنشأت الحضارة الإسلامية كارتقاء للمعطيات الثقافية والفكرية التي نشأ الفن الإسلامي كإبداع بشري في إطارها. "(3)

وبالموازاة مع تقدير الجمال الحسي وأهميته في بناء الحضارة والعمارة، كان لا بد من إدراك الأبعاد الجمالية الأخرى التي تنبثق من ذات الإنسان وروحه وتؤثر في نفسه وسلوكه، وقد كان متصوفة المسلمين من المفكرين الأوائل الذين أسهموا في تطوير هذا المفهوم وبلورته، فلم يقتصروا الجمال بالشكل والهيئة في الإنسان والأشياء، بل ربطوه بالسمو الأخلاقي والتزكية الروحية المتصلة اتصالاً مباشراً بأفعال البشر القلبية وما ينتج عنها من أخلاق فاضلة وقيم نبيلة. " فالصورة الجميلة المحسوسة المشاهدة على الأرض إنما تفيض عن جمال الذات الإلهية، ولذلك يستغرقون في تأمل هذه الصورة الجزئية، لا

(1) - فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة. أبو ريان محمد علي. دار لمعرفة الجامعة. الإسكندرية. ط 8. ص 20-19.

(2) - الأصول الجمالية والفلسفية للفن الإسلامي. أنصار محمد عوض الله. جامعة حلوان. مصر. 2002. ص 7.

(3) - المرجع نفسه. ص 7

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

إعجاباً بها، بل لأنها تدلّ على جمال الحقيقة الإلهية وتشير إليها ⁽¹⁾. وهذا ما ألمح إليه التهانوي، حين ربط معنى الجمال " بلفظ المحبة، وبالإنسان الكامل، ويقصد بالكمال الكمال الخُلقي وكمال الصفات البشرية التي أفاض الله بها على خلقه بما انعكس من جماله وصفاته عليهم، كصفة الرحمة وصفة العلم وصفة اللطف إلى غيرها من الصفات.. فكلها صفات الجمال. ⁽²⁾

ومن الذين تناولوا موضوع الجمال وربطوه بالذات الإلهية وبكل ما هو علوي وسامي، أبو حيان التّوحّيدي (414هـ) فهو يرى بأنّ " صفات الله تعالى وأفعاله هي المثل الأعلى في الحسن، وأنّ الأشياء كلّها تستمدّ جمالها من تلك الصّفات والأفعال؛ لأنّها من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنّها هي سبب حُسن كلّ حسن، وهي التي تفيض الحسن على غيرها، وإنّما نالت الأشياء كلّها الحسن والجمال منها وبها، فالجمال الإلهي مصدر الجمال الكلّي ⁽³⁾.

(1) - التّصوير الجمالي في القرآن الكريم. عيد سعد يونس. عالم الكتب. 2006. ص 46.

(2) - كشف مصطلحات الفنون والعلوم. التهانوي. ص 570.

(3) فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التّوحّيدي. حسين الصديق. دار الرفاعي. دار القلم العربي. حلب.

2002. ص 93-94.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

فالجمال بالنسبة إليه لا يختلف عن رأي من سبقه من الفلاسفة والمفكرين العرب في أنه يستمد ماهيته من مصدر الجمال الذي هو الذات الإلهية، وأن كل جمال إنما هو انعكاس لها على الوجود.

ويضيف أبو حامد الغزالي (ت 505) معنى آخر إلى معاني الجمال في كتابه إحياء علوم الدين وهو التناسب والانسجام بما يتعلق بالهيئات والأشكال عامة، ويكون إدراكه حسياً، وبالخير والفضيلة والسمو بما يتعلق بجوهر الإنسان، ويكون إدراكه معنوياً، إذ يقول: "واعلم أن كلَّ جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحبُّ الجمال، ولكنَّ الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلوِّ الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب، ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال: إنَّ فلاناً حسن وجميل، ولا تراد صورته، وإنما يعني به أنَّه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة حتَّى قد يحبُّ الرَّجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحبُّ الصَّورة الظَّاهرة" (1). والغزالي من خلال كلامه يظهر أنه يولي الجمال المعنوي الأهمية البالغة، كما أن جمال الشيء بالنسبة إليه في كماله، إذ إنَّ "كلَّ شيءٍ، فجماله وحُسنه في أن يحضُر كماله اللَّائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرةً فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر

(1) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. بيروت. دار المعرفة. 280 / 2.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه، والخطّ الحسن كل ما جمع كل ما يليق بالخطّ من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكلّ شيء كمال يليق به، وقد يليق بغير ضدّ، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخطّ بما يحسن به الصّوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء." (1). فالجمال عنده ما يبلغ الكمال في جنسه، وقد يكون لائقاً في جنس دون آخر.

أما ابن رشد (595) فقد نظر إلى مفهوم الجمال في بعده الأخلاقي، إذ ربط كل جميل بالفضيلة بالدرجة الأولى " فالجميل هو الذي يُختار من أجل نفسه، وهو ممدوح وخير، ولذا من جهة أنه خير. وإذا كان الجميل هو هذا فبيّن أن الفضيلة جميلة لا محالة لأنها خير وهي ممدوحة " (2).

بعد جملة التعريفات والتفسيرات لمفهوم الجمال عند الفلاسفة العرب القدامى، نخلص إلى أن المفهوم وإن كان مرتبطاً بما يظهر للعين من تناسق وانسجام، وحسن في الأشكال والأجسام، فإنه لا يعدو أن يكون جزءاً من الجمال الكلي المرتبط بالذات الإلهية

(1) إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. 4 / 299 ..

(2) تلخيص الخطابة. ابن رشد. تحقيق : عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. دار القلم. بيروت.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

التي هي مصدر الجمال كله وأن كل جمال إنما هو انعكاس لها، وفيض منها، وهذا الجمال لا يدرك إلا بالقلب، ويرتبط ارتباطا وثيقا بجوهر الإنسان، وبما يفيضه من خير ويشيعه من أخلاق سامية في محيطه، تعود بالنفع والخير عليه وعلى الناس، وبما يبعث في النفس من شعور بالرضا والطمأنينة والسرور.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الفرع الثاني: مفهوم "علم الجمال" عند الفلاسفة والمفكرين الغربيين:

اعتنى الفلاسفة والمفكرون الغربيون بمفهوم الجمال منذ العصر اليوناني. وقد كانت لهم فلسفة خاصة بهذا المفهوم، حتى جعلوا له آلهة يقدسونها، لشدة تقديرهم له، وعنايتهم به، ولعل أقدم الآراء التي قيلت في الجمال نظرة الفلاسفة اليونانيين، حيث يرى سقراط أن الجمال هو كل ما "يفيد الإنسان وينفعه ويحقق له الخير" ⁽¹⁾. ولذلك فقد ربط الجمال بالمنفعة والخير، "كما أن أفلاطون على الرغم من عده الجميل صورة عقلية، مثل صورة الخير والحق والعدل، فقد أكد أهمية الشكل في محاوراته عن الجمال، إذ أصدر حكماً بأن الشكل وليس المضمون هو ما يجعل العمل الفني جميلاً" ⁽²⁾، فأقام للجمال مثلاً هو جمال الشكل والهيئة، بالإضافة إلى جمال المعنى، أما تلميذه "أرسطو فقد كان يرى الجمال في الإدراك الحسي للأشياء أيضاً، لكنه يحصره في تنظيم العلاقات الداخلية للشيء، فيما سماه التناسق أو النظام، فيقول: "كذلك الجميل سواء أكان كائناً حياً أم شيئاً مكوناً من أجزاء، بالضرورة ينطوي على نظام يقوم بين أجزائه هذه، وله عظم يخضع لشروط

⁽¹⁾ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. صالح عزيز. دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1. 2010.

دمشق. سوريا. ص 11.

⁽²⁾ المرجع السابق. ص 11.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

معلومة، فالجمال يقوم على العظم والنظام" ⁽¹⁾. فالجميل بالنسبة لأرسطو ما كان متناسقا ومنسجما ومنتظما، كيفما كان هذا الشيء، وهذا شرطه لتحقيق الجمال فيه.

أما عند الفلاسفة الغربيين المتأخرين، فإننا نجدهم قد بلوروا نظرتهم لمفهوم الجمال، فكانت مثلا يعتبر بأن "الحكم الجمالي غير مرتبط بالحس وكذلك بعيد عن الخير والمنفعة، فهو جميل لذاته، إذ إن الحكم على الأشياء بالجمال لا يقتضي مفهوما محددا، إنما شعور يخالج النفس ويبعث فيها الارتياح والرضا، فالأمر مرتبط بالذوق وليس له ارتباط بالمنفعة أو الأخلاق." ⁽²⁾ وبتعبير آخر بالنسبة لكانط "فالجمال لا يتمثل سوى في الشكل المحض دون قصد إلى منفعة.. إنه الجمال الذي لا يستهدف تثقيفا ولا تهذيبا ولا تعليما، وهذا هو الجمال الخالص." ⁽³⁾ وهذا الجمال متفق عليه مبدئيا عند الجميع فهو حكم كلي وإن بدا فرديا، لأن الشعور به أمر جمعي ومشترك، ويربط كانط هذه المسألة بموضوع الذوق في علاقته بمفهوم الجمال، "إذ إن حكم الذوق يطالب كل إنسان بأن يوافق عليه، وكل من يعلن عن شيء أنه جميل، فإنه يزعم أيضا أنه يجب على كل إنسان بأن يوافق على الموضوع المعني، وأن يعلن هو أيضا عنه أنه جميل." ⁽⁴⁾ فهو مبدئيا حكم جمعي بالنسبة إليه.

(1) - جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. صالح عزيز، المرجع السابق، ص 12.

(2) - نظرية كانط الجمالية. محمد شفيق شيا. مجلة الفكر العربي. 1987. ص 149.

(5) - فن كتابة القصة القصيرة. علي عبد الجليل. دار أسامة للنشر والتوزيع. الأردن. ط 1. 2005. ص 94.

(4) - نقد ملكة الحكم. إيمانويل كانط. تر: غانم هنا. مركز دراسات الوحدة العربية. ط 1. بيروت. 2005. ص

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

أما كروتشه فيربط الجمال بالإبداع، ومدى نجاحه في أداء دوره، فيعرف الجمال على أنه "التعبير الناجح، أو هو علم يبحث عن وسائل التعبير على أن ليس الغرض من تأليف الأدب وإنشائه أن يكون جميلاً، وإنما نقضي له بالجمال إذا نجح في غرضه الذي يرمي إليه." (1). وبالنسبة إليه أيضاً "فالحكم بالجمال على شيء يتحول من خلال الإبداع إلى حدس ينتج لغة من الكلمات أو الأصوات أو الصور الجميلة." (2) وهذا الحدس هو أساس الجمال بالنسبة لكروتشه. بينما يعتقد ولترت ستيس أن الجمال هو "امتزاج مضموم عقلي مؤلف من تصورات تجريبية غير إدراكية، مع مجال إدراكي بطريقة تجعل هذا المضمون العقلي وهذا المجال الإدراكي، لا يمكن أن يتميز أحدهما عن الآخر." (3) فالجميل هو عندما يقع انسجام وتآلف عضوي بين هذين المجالين مجال الإدراكي وهو التجسيد الحسي، والمضمون العقلي الذي يعني به ولترت ستيس المعنى الروحي، كما يعتبر أن الفن هو بوابة الجمال والمدخل الأساسي له وهو "الهدف الوحيد للفن." (4)

و لذلك فقد أصبح لهذا المجال علم خاص به، تنضوي تحته كل الأعمال الفنية وحتى غير الفنية، يهتم بتقييم الجمال وتجلياته، يطلق عليه علم الجمال أو الجمالية وهي

(1) - جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. ص 13.

(2) - مدخل إلى علم الجمال وفلسفة الفن. أميرة حلمي مطر. دار التنوير للطباعة والنشر. ط 1. 2013. ص 7

(3) - معنى الجمال: نظرية في الإستيقا. ولترت ستيس. تر: إمام عبد الفتاح إمام. نشر المجلس الأعلى للثقافة.

مصر. 2000. ص 73.

(4) المرجع السابق. ص: 102.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الترجمة العربية لكلمة أستيطيقا. وهذه " الجمالية قد صاحبت الحضارات البشرية كلها من دون استثناء، واتخذت لها طابعا خاصا مع كل حضارة، كما كانت لها تجليات خاصة ومتميزة مع كل تجربة إنسانية مختلفة. "(1) لكن على الرغم من محاولات الباحثين لضبط التطابق بين اللفظين جمال وإستيطيقا فإن هذا الأخير قد " احتفظ بقوة في مستواه المعجمي والاصطلاحي بقسط وافر من دلالات فعل الإدراك والإدراك الحسي "(2). ونظرا لهيمنة هذا البعد الحسي في مفهوم الجمال "وفي أحضان النزعة الفلسفية تبلورت ملامح اتجاه نقدي يحكم على الجمال من خلال جمالية الشيء ذاته بعيدا عن الإحساس الذاتي، فيما اصطلح عليه ب الاتجاه الموضوعي ويقابله اتجاه آخر يحدد الجمال في النفس نحو الأشياء، وقد سمي هذا ب الاتجاه الذاتي "(3). ومعنى ذلك أن الحكم الجمالي قد يتسم بالموضوعية إذا لم تتدخل الذات في الحكم عليه، ويختلف الأمر عندما يكون الحكم ذاتيا.

غير أن إدراك الجمال قد يختلف من حالة إلى أخرى " فالجمال قد يدرك في الطبيعة مثلا كما يدرك في الفن، ولكن إدراك الجمال الطبيعي لا يقتضي من الإنسان تدريبا معينا، فهو إدراك مباشر مثله مثل الإدراك العادي للأشياء والموجودات، ولكن حقيقة هذه

(1) الجمالية عبر العصور. إتيان سوريو. تر: ميشيل عاصي. منشورات عويدات. ط2. 1982. بيروت. ص5.

(2) الإحساس بالجمال. تخطيط نظرية في علم الجمال. جورج سانتيانا. تر: محمد بدوي. مراجعة وتقديم: زكي نجيب محمود. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 2001. ص53.

(3) جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. صالح ملا عزيز. ص18.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

الأشياء والموجودات تظهر بوضوح في علم الطبيعة أو الفيزياء، وكذلك يدرب إحساس الإنسان بالجمال بواسطة الفن كما يدرب إدراكه للواقع بواسطة العلم⁽¹⁾. ففي الحالة الثانية يتطلب الإحساس بالجمال دربة وخبرة مكتسبة، وهذا ما تهتم به الجمالية أو علم الجمال بالأساس، " فعلم الجمال يعتبر كل ما نزع إلى الابتكار والإبداع، وليس ما وجد بالطبيعة، كما كان يعتبر سابقا بأنه أصل في الشيء. " ⁽²⁾

كما أنه لا يتخذ من الجمال الطبيعي موضوعا إلا حينما يكون هذا الجمال معروضا من خلال فن من الفنون الجميلة وبحسب مقاييس هذا الفن، كما لو كانت هذه المقاييس حالة في الأشياء، وعلى هذا فالموضوع الحقيقي المباشر لعلم الجمال هي القيم الإيجابية والسلبية، أي نواحي الجمال والقبح في العمل الفني، وليس في الطبيعة. ⁽³⁾ لأن الجمال الطبيعي هو إبداع إلهي علوي، لا يمكن أن تنطبق عليه قوانين ونظم تقييم الجمال الفني البشري.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن مفهوم الجمال عند المفكرين والفلاسفة الغربيين، ارتبط بداية الأمر بالتقييم الأخلاقي، فكلما نزع الشيء إلى الخير والمنفعة كلما كان جميلا، وانتقل مع فلاسفة عصر الأنوار إلى ربطه بكل ما هو شكلي محض، لكن هذه

(1) مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن. أميرة حلمي مطر. دار التنوير. ط 1. القاهرة. 2013. ص 12.

(2) – المرجع السابق. ص 10

(3) – فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة. ص 112. 113.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

النظرة سرعان ما تبلورت بدورها في ظل ظهور علم الجمال، الذي ربط المفهوم بالذات والموضوع في نفس الوقت، بالإضافة إلى أنه اشترط حصول الانسجام، والاحتكام إلى الحدس من أجل تذوقه، وقد ساهم الفن في توليده بشكل مباشر. إذ إنه الوسيلة المكتسبة الأساسية لإظهار الجمال.

يمكننا القول بعد هذه المجموعة من التعريفات والتحديدات لمصطلح الجمال بأنه مفهوم يستند بالأساس إلى الموضوع والذات معا، ويرتبط بتواجههما متلازمين، حتى يمكننا إدراكه والشعور به وتذوقه.

المطلب الرابع: الجمال في القرآن الكريم:

لقد كان الهدف الأساس للخطاب القرآني أن يستثير عواطف الإنسان ومشاعره وفكره من أجل معرفة خالقه، وذلك بتحريك وجدانه عبر خطاب محكم، وهذا كان هدف الدين كله " فعندما جاء الإسلام، وجه الحس البشري إلى الجمال في كل شيء، وسعى إلى تحريك الحواس المتبلدة لتتفاعل مع كل شيء في هذا الكون، وليس معيار الجمال في الإسلام بهاء الصورة وحسن الطلعة، والتناسق بين أعضاء الجسم، لأن الفن الصحيح هو الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها حقائق الوجود.⁽¹⁾

كما أن مفهوم الجمال في القرآن مرتبط أيضا ببنائه العام المتناسك والمنسجم البالغ غاية الكمال، بالإضافة إلى مضمونه وجوهره الذي يعكس هذا الجمال، ويتجلى للمتلقي على اختلاف مرجعيته وفكره.

بداية فإن أول ما يسترعي الاهتمام في الخطاب القرآني هو بنيته اللغوية بالمقام الأول، " ومادام النص القرآني يفرض حضوره الجمالي في كل زمان ومكان، ويمزج البعد الجمالي في التواصل لتوصيل المفاهيم إلى الذات المتلقية أسرع على شكل شفرات لغوية، فإن هذا الجمال يتجلى في المقام الأول في نظامه اللغوي الذي يقوم على غير مثال، وهو كما

(1) - روائع قرآنية. دراسة في جماليات المكان السردى. عبد الله خضر حماد. دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع.

بيروت. لبنان. 2017. ص 23.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

يصفه الإمام الباقلاني (ت403هـ) على تصرف وجوهه، وتبيان مذهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين مألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وبهذا يودع النص القرآني جزءا غير قليل من أسرار الجمالية في لغته الفذة التي فجرت القدرات التعبيرية في الكلمات، وقدمت الصور الفنية من خلال التجسيد والتخييل كما لو كانت حية معيشة، وبنت عمرانها الجمالي على تقطيع الأصوات وجرس الأحرف وإيقاع الكلمات.⁽¹⁾ فاللغة هي مفتاح هذا الخطاب الأولى، وبوابته إلى استكناه عوالم الجمال اللفظي والمعنوي فهو "يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يُعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأحياه وأجمله أيضا مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال"⁽²⁾. ولعل سبب هذا الجمال والبراعة في اللفظ والمعنى، اتصاله بالذات الإلهية، إذ هي منبع الخطاب ومصدره، والجميل من أسماء الله الحسنى، يقول ابن القيم (751هـ): "وفي الصحيح «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»⁽³⁾، و"أتمهم معرفة من عرفه

(1) الإشارات النفسية في الخطاب القرآني. ص 17. 18.

(2) في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. ط 32. 2003. ص 1745.

(3) صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر. حديث رقم 197. (1/ 93).

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

بكماله وجلاله وجماله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽¹⁾ في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلها على أجمل صورة وكلهم على تلك الصورة ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب لأحرقت **سُبُحاته** ما انتهى إليه بصره من خلقه⁽²⁾. فجمال الخطاب القرآني هو فيض من غيظ الجمال الرباني. وجزء من معجزاته التي لا تنقضي، وكل الموجودات والمخلوقات إنما هي تعبير صارخ عن الجمال الإلهي. وقد حاول الإنسان تلمس مواطن الجمال في كل ما يحيط به، وإن الوقوف على جماليات الخطاب القرآني من صميم هذه الرغبة التي تدعو إلى اكتشاف أسرار الجمالية والفنية، بعد أن ألقت بسطوتها عليه، وأخذت بتلابيب فكره وقلبه.

وقد "تمتع القرآن بجملة من المعايير ساهمت في إبرازه بأسلوب إعجازي حقق تأثيره الفاعل في نفس الإنسان المسلم: التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والإيقاع والتناسق والتقابل والإيجاز والإطناب وقوة البيان ودقة الإجمال ووحدة الصورة".⁽²⁾ كل هذه أساليب بيانية وبلاغية من حيث شكل الخطاب انعكست على جوهره، "فالملاحظ أن النص القرآني لا يقدم الشكل الجمالي على أنه غاية لذاته، وإنما الجمال القرآني

(1) بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية. ط 2. 1973. ص 181-182.

(2) - الصورة الأدبية في القرآن الكريم. صلاح الدين عبد التواب. الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان. مصر.

1995. ص 165.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم

متكامل من حيث الشكل والمضمون فيه، وهو لا يقدم شكلا فارغا، بل إن ما فيه مسخر في نهاية الأمر لرفع مستوى الوعي الجمالي، ومن ثم لتحقيق الهداية.⁽¹⁾

من هنا نجد أن الجمالية أمر مرتبط بالخطاب القرآني بشكل ثابت وأساسي، " في كل مظهرات الخطاب النفسية والاجتماعية والغيبية، وفي تنويعاته السردية، دون أن تغطي المقصدية الثرية الخطابية أو المضمونية على هذا الخطاب، حتى في مجالات ذات الطابع الموقفي المباشر (التشريع)."⁽²⁾ فهو خطاب متماسك ومنسجم، ولأجل ذلك " لا بد من تربية ذوق جمالية، تحقق التوازن بين المدرك والشيء المدرك، وهذا يتطلب الاهتمام بهذا الجانب منذ مراحل الحياة الأولى للإنسان، أي منذ صغره، ويعتبر القرآن الكريم مصدرا أوليا لهذه الطاقة الجمالية."⁽³⁾ فتجليات هذه الجمالية تكمن في لغة الخطاب القرآني البليغة وصوره الفنية ومشاهده الحية، التي تشد المتلقي إليها وتبعث في نفسه الشعور بالرضا وتحرك عواطفه لتلقي هذا الخطاب وتدبر آياته ومعانيه، وأيضا هو دعوة عامة لتذوق الجمال واستكشافه من خلال كل ما يمر به في حياته.

(1) جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. ص 16.

(2) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. ص 13.

(3) - صورة الآخر في الخطاب القرآني. ص 52.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا
وتحليلا

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

المبحث الأول: مفهوم القصة القرآنية عند القدماء

المطلب الأول: تعريف النص القرآني

القرآن هو الكلام الذي أوحاه الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام ليبلغه الرسول إلى الأمة باللسان العربي، قال تعالى: " وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. " سورة الشعراء: 192-195.

ويعرف التستري (ت283هـ)⁽¹⁾ القرآن بأنه: " اسم لما يقرأ، كالقربان: اسم لما يتقرب به إلى الله، ويقال أيضا: إنه مصدر قرأ يقرأ، قرأ، قرآن، وفي الشرع اسم الكتاب المفتوح بالفاتحة الكتاب، المختتم بـ " قل أعوذ برب الناس "، وفيه لغتان: الهمز وتركه، المهموز من القراء - بالفتح والضم - بمعنى الحيض والطهر، سمي به لاجتماع الدم فيه، والقرآن سمي به لاجتماع الحروف والكلمات، ولأنه مجتمع الأحكام والحقائق والمعاني والحكم. وقيل اشتقاقه من القرى بمعنى الضيافة، لأن القرآن مأدبة الله للمؤمنين، وقيل القران - بغير همز - مشتق من القرن بمعنى القرين، لأنه لفظ فصيح قرين بالمعنى

(1) - أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري. أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري^[1]. وصفه أبو عبد الرحمن السلمي بأنه " أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال ". أصله من " تستر " أحد مدن محافظة خوزستان الموجودة حاليًا في إيران. انظر " طبقات الصوفية " للسلمي. ص 166-171. و " وفيات الأعيان ". ج 2 ص 429-430.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

البدیع.. وقيل القرآن اسم مرتجل موضوع غير مشتق من أصل، وإنما هو علم لهذا الكتاب المجيد، على قياس الجلالة في الأسماء الحسنی⁽¹⁾. فهو متفرد في الاشتقاق والتعريف والخاصية، وإن كان قد نزل بلغة مفهومة وأحداث معلومة، وهذا سر تفردہ ومکمن إعجازه.

وهذا ما يؤكدہ سليمان عشراقي بقوله " إن القرآن من جهة نص ناطق بلغة بشرية، وجار في مقولة على السنن العربي، في أجلى تمظهراته البيانية، وهو من جهة ثانية نص لا يمكن أن يتماهى في مرجعية ذهنية، أو إبداعية بشرية محددة.. وبذلك يمكن اعتباره كيانا متفردا، هو وحي سماوي، خارج عن الحيز الذاتي، أو النفسي البشري⁽²⁾. " والقرآن كذلك نص مشبع بالوجود، متلبس بالإنساني في أحواله المختلفة⁽³⁾.

(1) كتاب تفسير القرآن العظيم. التستري. دار الحرم للتراث. ط1. 2004. ص31.

(2) الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشراقي. دار العراب. دار النور. 2012. دمشق. سوريا. ص7.

(3) التناص في القرآن. دراسة سيميائية للنص القرآني. هادية السالمي. عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع. ط1. 2014. إربد. الأردن. ص2.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

المطلب الثاني: تعريف القصة القرآنية

تعتبر القصة القرآنية من أهم أدوات التعبير فيه " فقد شغلت مساحة واسعة من القرآن الكريم، لكونها من أبلغ الوسائل تأثيرا في النفوس، وأكثرها قبولا لدى جمهور المستمعين والقارئ، كما أنها تعبير عن روح الأمم، وعقليتها وطبيعتها.⁽¹⁾ وهي مرآة عاكسة لها ولما عاشته عبر التاريخ.

إنَّ مُصطلح القصة القرآنية إذا لاحظنا " هو مصطلح مركب لم يكن رائجا لدى القدماء حين كانوا يتحدثون عن القصص المذكور في القرآن الكريم، وإن كانوا قد استعملوا مصطلح القصة مفردا أو مضافا إلى اسم لتخصيصه بموضوع تلك القصة، ولعل السبب يعود إلى أن الحاجة لم تدع إلى إضافة صفة القرآنية على هذه القصة، نظرا لأن القدماء لم يكونوا يعدون مفهوم القصة مفهوما أدبيا خاصا، وإنما استعملوه بمعناه العام الدال على سرد أحداث ماضية.⁽²⁾ كما يُظهر هذا الأمر تجنبهم الحديث عن القصة القرآنية في معرض حديثهم عن الأجناس الأدبية الأخرى كالشعر والخطابة، تحفظا على خصوصية القصص القرآني وخوفا من أن يخلطه الناس بغيره من باقي الأشكال الأدبية الأخرى. فقد كان العرب يحافظون على وضع مسافة بين القرآن الكريم وبين الشعر والسجع وغيره، وقد أشار الباقلاني إلى ذلك بقوله: " إن نظم القرآن على تصرف

(1) - القصة القرآنية مفهوما وأسلوبا. صابر مشيل. المجلة الجامعة. العدد 11 . 2009. ص 48.

(2) - مفهوم القصص في القرآن الكريم. ص 84.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصاً ومنهجاً وتحليلاً

وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز به، في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.⁽¹⁾ ويقصد بالكلام المعتاد ما اعتاده العرب من أجناس الأدب الأخرى.

يأتي حديث الباقلاني (402هـ)⁽²⁾ عن أصل هذه الأنواع في سياق الرد على من يخلطون بين القرآن والأجناس الأدبية بهدف التمييز والفصل بينهما على أساس أن هذه الأخيرة إبداع، أو كما وصفه بأنها أحد أمرين: "إما بتعلم وتكلف وتصنع، أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة إليه"⁽³⁾، أما القصة القرآنية فهي دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة وإبداع رباني.

(1) - إعجاز القرآن. الباقلاني. تح: أبو عبد الرحمن صلاح أبو عويضة. دار الكتب العلمية. 2016. ص 30.

(2) - أبو بكر الباقلاني 338/هـ - 402هـ / 950م - 1013م (هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم القاضي أبو بكر الباقلاني البصري. الملقب بشيخ السنة. ولسان الأمة. المتكلم على مذهب أهل السنة والجماعة. وأهل الحديث وطريقة أبي الحسن الأشعري. أحد كبار علماء عصره انتهت إليه رئاسة المذهب الأشعري. وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته. ويُعد من أكابر أئمة الأشاعرة بعد مؤسسها أبي الحسن الأشعري.

(3) - إعجاز القرآن. الباقلاني. ص 62

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

المبحث الثاني: جمالية الخطاب القرآني منهجيا وتحليلا

إن القرآن الكريم منهج حياة يتخطى من خلاله الإنسان عقبات الحياة ويمتاز عبره المنعطفات والدهاليز التي تصادفه في طريقه، واستعمل لأجل ذلك أدوات عدة أهمها: أسلوب القصة، التي جاءت في صورة واضحة وجلية، بل من أهم صور الإعجاز القرآني، لما لها من تأثير وسطوة على نفوس متلقيها.

لذلك إن محاولة تحليل وتفكيك بنيات الخطاب القرآني والوقوف عند مواطن الميزة والبيان فيه، يحتاج منا التوصل بأدوات خاصة، كما يحتاج إلى قراءة تأويلية جديدة، تستلهم المقاربات الأصيلة في الفكر العربي، كما تسترشد بالتأويلات الحديثة والدراسات المعاصرة في تناولها لهذا الخطاب القرآني المقدس المختلف عن كل الخطابات، وفي محاولة منا لرصد نقاط الاختلاف ونقط الالتقاء بينها وبين النصوص الأدبية العادية " لأنه في أصله تكوين لغوي معجز، فمعنى أن القرآن الكريم كلام الله يعني أننا حين نأتي للحديث عن مفهوم الجمال القرآني فإننا ندخل على الفور عالما جديدا معجزا، لأن في القرآن جانبا لم يقترب منه فلاسفة الجمال وهو الإلهي وهذه الجدة الإعجازية تفرض أن يكون المنهج ومفاتيحه المفهومية جديدة أيضا، ومشتقة من موضوعها على وجه الحصر"⁽¹⁾. وهذا ما يدفعنا للتعامل معه بكثير من الحرص والحذر، لأنه يمتاز عن الخطاب البشري بكونه خطابا

(1) جماليات الخطاب القرآني. المرجع السابق، ص 43

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

ربانيا " متعاليا يحمل وحيا وإعجازا وقدسية نص يتعبد به "(1). مبتعدين في القراءة عن التأويلات التي تعاملت معه كنص تراثي يسري عليه ما يسري على سائر النصوص الأدبية الأخرى، " هذه التأويلات التي تعرض لها من قبل المذاهب والفرق منذ القديم، ووصل الاختلاف بينها في هذا الأمر إلى درجة التعارض والانقسام(2)، ويعود هذا الاختلاف في جزء كبير منه إلى اختلاف في منهج فهم النص والآليات المعتمدة، وهي آليات جاهزة تسقط فهما خاصا على النص القرآني، وتكون في الغالب بعيدة عن منظومة مقاصد الشريعة الإسلامية "(3)، لأنها مستمدة من نظرية عامة في الفهم، واستخدمت هذه النظرية في الغرب تحت مصطلح الهيرمنيوطيقا(4) الذي ارتبط في بدايته بالنصوص المقدسة. "(5)

(1) الخطاب القرآني ومنهج التأويل. عبد الرحمن بودرع. مركز الدراسات القرآنية. ط 1. الرباط. 2014. ص 11.

(2) تمثلت القضايا الكلامية المطروقة منذ القديم في مجموعة من الثنائيات كثنائية العقل والنقل. عند الجهمية والمعتزلة. ثم الأشاعرة والماتريدية. وثنائية العامة والخاصة عند الفلاسفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد. وثنائية الدين والفلسفة والتوفيق بينهما. وثنائية الظاهر والباطن عند الباطنية والمتصوفة.

(3) - الخطاب القرآني ومنهج التأويل. المرجع السابق، ص 12

(4) - الهيرمنيوطيقا أو علم التأويل. هي المدرسة الفلسفية التي تشير لتطور دراسة نظريات تفسير وفن دراسة وفهم النصوص في فقه اللغة واللاهوت والنقد الأدبي. ويستخدم مصطلح هيرمنيوطيقا في الدراسات الدينية للدلالة على دراسة وتفسير النصوص الدينية.

(5) - المرجع نفسه، ص 13

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

ولأجل ذلك فإن محاولة الخوض في أدبية الخطاب القرآني أو القصة القرآنية، مغامرة تحيط بها المزالق من كل صوب، " بالنظر لما يطبع أدبية الإعجاز من خصائص إفضائية، تتلامس مع الخارق، أو مع ما يمكن أن يسمى: ميتافيزيقيا الجمال. " (1) لذلك فإن " إشكالية النص القرآني، تقوم على مفارقة مرتبطة بهوية الكتاب القرآني ذاته، فهو من جهة نص ناطق بلغة بشرية، وجار في مقولة على السنن العربي، في أجلى تمظهراته البيانية، وهو من جهة ثانية نص لا يمكن أن يتماهى في مرجعية ذهنية أو إبداعية بشرية محددة. " (2)

وبهذا فإنه لا مناص من اعتبار الخطاب القرآني كيانا متفردا، باعتباره خطابا مقدسا خارجا عن حدود الإبداع البشري، ولذلك فلا يمكن مقارنتهما، لأن المقارنة تقتضي القياس من نفس الجنس، وتكون أوجه الشبه أكثر من أوجه الاختلاف، لكن هذا لا يمنع من " الاعتراف بأن أدبية الخطاب القرآني، أدبية لا تمتنع عن مجانسة أدبية العرب، وإن امتازت عنها فنيا.. فآلية التعبير، ومكونات النص، وهندسته، وأعرافه البلاغية الخارجة عن المعهود، وخفة نقلاته عبر فضاء موضوعي متنوع، هي جميعا عوامل تأصيل متقن للتعبيرية القرآنية التي تتقاطع من حيث مظاهر التشكل والتمظهر، مع تلك الآلية التعبيرية التي صدرت عنها أدبيات العرب. " (3) وهذا أمر طبيعي، - كما ذكرنا سابقا- إذ

(1) - الخطاب القرآني ومناهج التأويل .. ص 7.

(2) - المرجع السابق. ص 7

(3) - المرجع نفسه. ص 7.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

لا بد أن يحصل هذا التقاطع حتى يؤدي الخطاب القرآني دوره الرسالي والجمالي على الوجه المطلوب.

وقد تصدر الخطاب القرآني في الفكر العربي موقع الصدارة، إذ " أثرت في عصر النهضة وما بعدها تساؤلات حول النص وطريقة التعامل معه والنظر فيه، وما هي المقدمات المعرفية والمنهجية لفهم النص الشرعي وقراءته قراءة تأويلية جديدة. والغالب على هذه القراءات أنها تشكك في المقولات الفكرية الموروثة وتستخدم مقولات فكرية ومنهجية غربية جديدة، أو تستخدم مقولات قديمة بعد إفراغها من محتواها ومنحها دلالة جديدة كمقاصد المتكلم وتأويل المخاطب "(1). لكن هذا الأمر لم يكن سائدا، إذ " بدأ يظهر في ساحة المناهج مقاربات نصية حديثة تقوم على التماس مواطن الانسجام والتماسك في بناء النص القرآني، والبحث عن كل عناصر التساند في البنية اللفظية والمضمون الدلالي.. ففي المقاربة النصية ما يخدم الغرض ويفيد في الاستدلال على أسرار النص القرآني وأعماقه، الجمالية والنصية، التي تركز على الاستمداد من بنيته النصية نفسها التي تتوافق وسياقه الخارجي ومقاصده العليا ولا تعارضها، وفي هذه المقاربة النصية أيضا رد حجاجي على الأقاويل التاريخية، والنظريات الفلسفية التي تعسف الطريق وتحمل النص القرآني وجوها من الفهم وأفكارا بعيدة عن سياقها الأصلي "(2).

(1) - الخطاب القرآني ومناهج التأويل. ص 13.

(2) - المرجع السابق. ص 14.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجا وتحليلا

لكن مع كل هذه المقاربات للخطاب القرآني، يبقى بحكم طابعه الإلهي، " يتأبى إلى حد كبير، عن أن يضاء بعدة إجرائية وضعية، فهو (منزول)، تنتظمه هيئة خطابية امتازت بتساوق استثنائي بين النظامية والأدائية"⁽¹⁾. وهذا لا يعني الامتناع عن تناوله وتفكيكه بآليات ووسائل أدبية وفنية تخدم الغرض الدعوي والجمالي على السواء، وإنما الغرض من ذلك عدم فتح الباب على مصراعيه للتجارب والنظريات التي تمس جوهره وطبيعته العلوية المقدسة.

لأن " الصياغة القرآنية نظم أدبي صارم، لا يمكن أن يتفكك أو يتحلل إلا على حساب خاصيته الأدبية، ولا بد على كل مقارنة للخطاب القرآني أن تبتعد عن الغاية التنويهية، الاستعراضية، القائمة على أحكام إعلائية سبئية، لا لكون تلك الأحكام هي من مقررات الرسالة القرآنية نفسها، بل لأن المجانسة الأسلوبية، والخطابية بين القرآن وبين الأنماط الأدبية العربية المعروفة، هي مجانسة لغوية وسننية (الطريقة والمثال)، لا مجانسة نمطية أو شكلية مُعَيَّنة."⁽²⁾ وقد كانت هذه إشارة لا بد من الوقوف عليها وتوضيحها قبل الشروع في دراسة وتحليل السورة الكريمة، حتى لا نتخبط في كثرة المقاربات والتأويلات التي لا تخدم مطلبنا الفني والجمالي لدراسة الخطاب القرآني في هذا البحث.

(1) - الخطاب القرآني ومناهج التأويل. ص 8.

(2) - "الخطاب القرآني مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. ص 11

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

المطلب الأول: حدود القراءة الأدبية للنص القرآني

الفرع الأول: المنهج الأصولي في تفسير القرآن

قبل الحديث عن تناول النص القرآني عموما والقصة القرآنية خصوصا من الجانب الفني، لابد أن نعرج على الحديث عن القراءة العامة أو ما يسمى بتأويل الخطاب القرآني ومراحل تطوره، لأن القراءة الأدبية وتطورها رهين بتطور تأويل النص القرآني عامة. نجد العلماء المتقدمين، قد تكلفوا بهذه المهمة، ووضعوا لها قواعد وضوابط يجب مراعاتها لكل متصد لقراءة القرآن تفسيرا وتأويلا. وقد كان لابن تيمية⁽¹⁾ رأي معتبر في هذه القضية حيث يرى أن التفسير بالرأي وسلوك سبيل الاعتماد على التأويلات الباردة والمجازات المعقدة التي كانت ديدن المتأثرين بالفلسفة اليونانية من علماء ومفكري عصره

(1) - ابن تيمية. ولد عام (661هـ). هو فقيه ومحدث ومفسر وعالم مسلم مجتهد من علماء أهل السنة وهو أحد أبرز العلماء المسلمين خلال النصف الثاني من القرن السابع والثالث الأول من القرن الثامن الهجري. برع في علوم القرآن والتفسير. وعلوم الحديث وأصول الفقه. من أشهر كتبه (منهاج الاستقامة) و (الجمع بين العقل والنقل). توفي عام (728هـ). (الأعلام العلية في مناقب بن تيمية. سراج الدين أبو حفص. تح: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي بيروت. ط3. 1400هـ. الصفحة من 16 إلى 25. وأيضا: دعاوي المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية. عرض ونقد. عبد الله بن صالح الغصن. دار بن الجوزي للنشر والتوزيع. ط1. 1424هـ. السعودية. الصفحة من 22 إلى 25).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

أمرا مرفوضا، ويضع حدودا لتفسير القرآن لا تخرج عن دائرة تفسير القرآن بالقرآن وبالحديث النبوي الشريف وبأقوال الصحابة والتابعين⁽¹⁾.

على هذا الأساس، فإن ابن تيمية يرى أن أصح طرق التفسير "أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان قد فسر في موضع آخر، ثم يفسر القرآن بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، ثم بأقوال الصحابة، فإنهم أدركوا بذلك لما شاهدوه من نزول القرآن، ولما لهم من الفهم والعلم الصحيح.. أما تفسير القرآن بأقوال التابعين - إذا لم يوجد التفسير في كل ما تقدم - أنه متعين إذا كان القول محل إجماعهم."⁽²⁾

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي عند ابن تيمية، فإنه حرام بالنسبة إليه "وينقل في ذلك عن السلف نقولا كثيرة كلها تغلظ القول في القرآن بالرأي، ثم يوفق بين هذه النقول وبين إقدام من أقدم منهم على تفسير القرآن."⁽³⁾ فابن تيمية والأصوليون عموما كانوا يعتبرون ما خرج عن هذه الفئات تفسيرا محرما لا يعتد به، إلا أن علماء ومفسرين

(1) - ينظر كتاب : "درء تعارض العقل والنقل". ابن تيمية. تح: محمد رشاد سالم. ج1. ط2. هجر للطباعة والنشر. مصر. 1991. ص: 12-19.

(2) - مقدمة في أصول التفسير. ابن تيمية. تح: عدنان زررور. دار القرآن الكريم. 1972. ط2. بيروت. ص 20.

(3) - نفسه.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجا وتحليلا

آخرين قد خرجوا على هذه القاعدة، كابن سينا والرازي اللذين لم يكونا يسمحان بالرؤية المنفردة والوحيدة للطبيعة من خلال آيات القرآن⁽¹⁾.

وقد ظل تفسير القرآن وتأويله قرونا بعد ذلك لا يخرج عن هاتين الفئتين، فئة الأصوليين الذين يتشبثون بآراء من قبلهم ويضعون شروطا لا يجب الخروج عنها في التفسير، وفئة الفلاسفة والكلاميين الذين لم يكونوا يعتدون بتلك التفاسير ويستخدمون فهمهم وقراءتهم الخاصة لإدراك معاني القرآن الكريم، وهذا ما أكدته أستاذنا الغواسلي⁽²⁾ عندما تكلم عن تعامل المفسرين مع النص القرآني في ذلك الوقت، وأنه يستوجب منهم "

(1) - مقال لجريدة الشرق الأوسط. دجنبر 2004. ع 952/5. يتحدث عن أحد المفسرين المعاصرين للقرآن الكريم "البوسني د. أنس كاريس". إذ يعتبر أنه لا يمكنك أن تكون قويا إسلاميا في هذا العالم من دون أن يكون لك دوما تفسير للقرآن الكريم قائم على التراث الإسلامي مثل موج البحر المتجدد. ولكن من نفس المصدر. ويقارن "كاريس" موج البحر بالعصور. ويشير إلى تفسير القرطبي. ويصفه بتفسير الأحكام أو التفسير القانوني للقرآن. بينما يقدم لنا تفسير الزمخشري على أنه يبرز تعدد الأفكار في القرآن الكريم. بل هو كتاب ذو أعماق لمفاهيم لغوية كبيرة. وقال أن الزمخشري لا يسمح بحبس معاني القرآن الكريم في معايير القراءة العقدية للنص. مثل ابن سينا الذي كان لا يسمح بالرؤية السطحية أو المنفردة للطبيعة. كما عبر عن أسفه لأنه تصعب اليوم رؤية عالم مسلم معاصر يتعامل مع الطبيعة بهذا الأسلوب. وكأن ابن سينا له عينان مختلفتان وحواس مختلفة. ويذكر مقاطع لابن سينا ينظر فيها للطبيعة بشكل جمالي لا استغلالي. حيث بين طبائع الأسماك. ولم ينظر إليها مجرد ثروة اقتصادية أو غذائية مجردة عن أبعادها الطبيعية الجمالية في هذا الكون.. وقال أن ذلك غير مستغرب عن علماء المسلمين. لأن الإسلام نفسه أيقظ أكبر مظهر عرفته البشرية لتقدير وتسبيح الخالق الذي صنع كل شيء. وأنتج ذلك إعجابا بالكون والطبيعة ورحابة المعمورة. ولقد أدى هذا الأخذ الواسع والعميق من كلمات القرآن الكريم إلى أخذ واسع وعميق من الكون.

2 - أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. سايس. فاس.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

إضافة إلى الثقافة الواسعة، الكثير من الحيلة والحذر، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالتفسير بالرأي، حيث نجد في تراثنا القديم على مستوى تفسير النص الديني (القرآن)، تلك التفرقة الحاسمة بين ما أطلق عليه التفسير بالمأثور⁽¹⁾، وما أطلق عليه التفسير بالرأي أو التأويل⁽²⁾، فإن النوع الثاني أي التفسير بالرأي أو التأويل قد نظر إليه إلى أنه تفسير غير موضوعي، لأن المفسر لا يبدأ بالحقائق التاريخية والمعطيات اللغوية، بل يبدأ بموقفه الراهن محاولا أن يجد في القرآن (النص) سندا لهذا الموقف، وقد أطلق على أصحاب الاتجاه الأول، أهل السنة والسلف الصالح، ونظر إلى هذا الاتجاه نظرة إجلال وتقدير، بينما كانت النظرة إلى أصحاب الاتجاه الثاني - وهم الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والمتصوفة - نظرة حذر وتوجس، وصلت في أحيان كثيرة إلى التكفير وحرق الكتب.⁽³⁾ لكن رغم هذا الاختلاف والتباين فقد شكل هذين الاتجاهين لبنة أساسية في التقعيد لقراءة الخطاب القرآني، ويمكننا أن نسمي أصحابها "بأصحاب القراءات التأسيسية - كما اصطلح عليها

(1) - التفسير بالمأثور هو النقل عن النبي. أو الأخذ بأقوال الصحابة والتابعين. - (منهج سيد قطب في ظلال لقرآن. أسماء فدعق. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. 1416هـ. ص 105)

(2) - التفسير بالرأي أو التأويل: اهتم بأقوال الحكماء والفلاسفة. وبذكر المناسبات بين الآيات وبين السور. كما اهتم بتفسير الآية أو الآيات إلى عدد من المسائل يتناولها ويرد عليها. ومن أشهر كتب التفسير عند المتقدمين. تفسير "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي (606هـ). وتفسير "الكشاف". للزمخشري (583هـ). - منهج سيد قطب في ظلال القرآن. أسماء فدعق. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. 1416. ص 40.

(3) - نماذج من التفسير الأدبي للقرآن الكريم عند المعتزلة. الشريف المرتضى نموذجا. د. الغواسلي المراكشي. كلية الآداب الجديدة. 2007. ص 268.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

طه عبد الرحمن - وهي التي قام بها المتقدمون، سواء كانوا فقهاء أو متكلمين أو صوفية.⁽¹⁾ وكانت أهم هذه القراءات التي شكلت النواة الأولى لتأويل القرآن، قد ظهرت مع المعتزلة - وهم من أصحاب الموقف الثاني - وقد حاولوا " في تأويلاتهم صرف الألفاظ عن ظاهرها القريب، وإعطائها معاني أخرى وراء الظاهر، فكان ذلك في جملة ما دفعهم إلى الوقوف على الاستعمالات المجازية للألفاظ، ومن هنا يمكن اعتبار بعض أصول الاعتزال دوافع مباشرة لدرس المجاز في القرآن." ⁽²⁾ وبهذا ظهرت أنماط مختلفة للقراءة التأويلية للخطاب القرآني منذ تلك الفترة، ساهمت فيها الترجمة ودخول علوم جديدة إلى العالم العربي، أهمها الفلسفة والمنطق، وقد تفرعت عن التفسير بالرأي أو التأويل أنواع مختلفة أخرى، كالتفسير العلمي⁽³⁾، والتفسير الأدبي الاجتماعي.

في هذا السياق، يجدر بنا أن نبين أن البحث ليس من مهماته الغوص في مقالات العلماء المتقدمين بخصوص مناهجهم في النظر إلى آي القرآن المجيد، وإنما هذا الوقوف الموجز عند هذه الأنظار المختلفة، الغاية منه تتبع عملية التطور الحاصلة في تفسير وتأويل القرآن الكريم.

(1) - - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. سعيد النكر. ص 30.

(2) - نماذج من التفسير الأدبي للقرآن الكريم عند المعتزلة. الشريف المرتضى نموذجاً. ص 275.

(3) - التفسير العلمي: وهو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن. ويبتعد في استخراج مختلف الآراء الفلسفية والعلوم. انطلاقاً من الآيات القرآنية. (- التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي. ج 2.

مكتبة وهبة. القاهرة. ص 349).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

الفرع الثاني: المنهج التجديدي في تأويل القرآن

ظهرت في عصر النهضة العربية دراسات ومقاربات جديدة لمحاولة فهم واستقراء النص القرآني بشكل جديد يتماشى مع حياة المجتمع الإسلامي التي اختلفت عن السابق في ظروفها وطريقة عيشها، وما صاحبها من تخلف وجهل واحتلال من طرف الغرب، فكان لا بد من الرجوع إلى منبع التشريع ودستور حياة المسلمين من أجل تجديد المفاهيم الدينية والفنية المتعلقة بقراءة النص القرآني، في ظل التساؤلات والإشكالات الكبرى، التي كان أبرزها: " لماذا تأخر المسلمون، وتقدم غيرهم؟⁽¹⁾، التي فرضت نفسها بقوة على العلماء والأدباء والمفكرين على السواء، على اعتبار أن " كل خُفوت في حضور القرآن الكريم في حياة الأمة، وكل تراجع للدين في واقع المسلمين، كان مرده إلى تراجع في فعل القراءة أو خلل في وسائلها المنهجية والمعرفية، أو سببه غياب القارئ الممتاز (الحائز شروط القراءة العلمية والمعرفية والمنهجية والدينية صاحب المهمة العالية والعزيمة

(1) - كتاب " لماذا تقدم الغرب وتأخر غيرهم " للكاتب والمفكر والأديب اللبناني "شكيب أرسلان" (1946م). كان من رواد النهضة العربية. كان تلميذا للشيخ "محمد عبده". كما تأثر بـ "جمال الدين الأفغاني" تأثراً كبيراً. واقتدى به في منهجه الفكري وحياته السياسية. وقد اجتمعت أسباب عديدة دفعت "شكيب" إلى كتابته. أهمها ما كانت تشهده الساحة العربية والمجتمع الإسلامي من تشرذم وانحزام. ما أدى إلى تدهور كبير انعكس على الحياة الاجتماعية والأدبية بشكل كبير. وأصبح هذا التساؤل يفرض نفسه على الأدباء والمفكرين في ذلك الوقت. أما السبب المباشر لكتابته فقد كان إجابة عن سؤال أحد تلامذة الشيخ محمد رضا وجهه إليه لإيعازه إليه حتى يكتب في جوابه عن أسباب تأخر المسلمين وما آلت إليه أوضاعهم.. ليصبح بعد ذلك إشكالية كبرى تناولها غيره من المفكرين وحاولوا مقاربتها والإجابة عنها في كتاباتهم وإبداعاتهم.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

القوية)⁽¹⁾، ولم يكن ذلك بداية تجاوزا للنص القرآني ومبادئه، بقدر ما كان يهتم بإعادة قراءته قراءة متجددة بروح العصر، " خاصة مع الإشكاليات الجديدة التي أثرت، المرتبطة بقراءة النص القرآني وإعادة قراءته وكيفية قراءته، والتي انتهضت من جديد أمام العقل المسلم، تحرضها مجموعة من الأسباب والعوامل، منها ما هو متصل بطبيعة النص نفسه بما هو خطاب للعالمين في كل زمان ومكان، أو بما هو رسالة من مرسل هو الله ﷻ إلى مرسل إليه هو الإنسان المقصود بهذا الخطاب." ⁽²⁾ وكل هذه العناصر اضطرت العقل العربي الإسلامي على التفكير في إعادة قراءة الخطاب القرآني، قراءة مواكبة معاصرة، وخلق طرق وآليات جديدة أثارت التساؤل حول إمكانية تجديد النظر في هذا الخطاب وشروطه.

وكانت الدعوة لهذا الأمر مرتبطة بشكل مباشر بما كان يعيشه المسلمون من تخلف وما طالهم من احتلال واضطهاد من قبل الغرب، فكان لا بد من الرجوع أولا إلى القرآن الكريم كما سبق الإشارة إلى ذلك.

وقد أطلق أحد الباحثين اسم المعاصرة على هذا الاتجاه قائلا: " بقيت إشكالية العلاقة بين الإسلام والحداثة رهينة جدل لا ينتهي، ولا يختلف أحد في أن المعاصرة هي موقف إيجابي اتجاه الحداثة، بغض النظر عن حدود هذا الموقف، وسؤال الحداثة - كما

(1) -قراءة النص القرآني: الإيديولوجيا والمنهج. سعيد النكر، ط: 1، عالم الكتب الحديث، 2014. ص 4.

(2) -قراءة النص القرآني وشروط التجديد. زينب شوربا. مجلة المنطلق الجديد. ع 9. 2006. ص 6.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

سبق ذكره - استحوذ على عقول المجتمعات غير الغربية دائما منذ ما سمي بصدمة الحداثة التي بدأت باللقاء بالغرب، وتبعا للإجابة التي قدموها كانت هناك ثلاثة تيارات تبرز باستمرار: التيار المتشبث بالتراث، والتيار المتغرب، والتيار الإصلاحية التجديدي الذي ابتدأ مع الشيخ محمد عبده⁽¹⁾، حيث كانت هناك محاولة لتفسير القرآن وتأويله، مستفيدة من عناصر ومعطيات العصر.⁽²⁾ والذي ظهرت معه الإرهاصات الأولى لهذا التفسير، فهو " أول من تطرق لهذا الأسلوب في التفسير، وإن لم يكن قد فسر القرآن كاملا، وإنما انحصر في بعض السور، كجزء عم وتفسير سورة العصر.⁽³⁾ وقد أطلق عليه بعد ذلك اسم التفسير الأدبي الاجتماعي، وامتاز هذا التفسير بأنه " لم يعد يظهر عليه ذلك الطابع الجاف الذي يصرف الناس عن هداية القرآن، وإنما ظهر عليه طابع آخر وتلون بلون يكاد يكون جديدا وطارئا على التفسير، وذلك بمعالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولا على إظهار مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تصاغ المعاني

(1) - محمد عبده 1849 / 1905م (عالم دين وفقه ومجدد إسلامي مصري. يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي. ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر.

(2) - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. سعيد النكر، ص 17.

(3) - منهج سيد قطب في ظلال القرآن. أسماء فدعق. ص 50.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.⁽¹⁾

كما ظهر شكل آخر من التفسير، وهو: التفسير العلمي الذي كان طنطاوي جواهري رائدا فيه بتفسيره "الجواهر"، وهو تفسير يبرهن فيه أن كل العلوم في الغرب موجودة في القرآن، وأن القرآن كان سباقا إلى ذكرها واكتشافها، " وذلك ليطمئنا إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتناول به الغرب علينا من علوم حديثة. كما بين أن هذا التفسير " جاء كرد فعل على الانبهار بالغرب ليرمحنا من مهانة الإحساس بالتخلف"⁽²⁾. والأمر في نظرنا أن الانحطاط والجمود الذي وقع به المسلمون، قد انعكس على جميع المعارف والعلوم، فبقيت قيد الرفوف والمكتبات، وأصبحت مواد للحفظ والتطبيق، دون أن تتاح لها الفرصة لتسري فيها روح التجديد والاجتهاد، والأمر طبعاً قد انعكس على القرآن وعلومه. إلى أن جاءت النهضة العربية وحاولت تحريك ما ركد، رغم أنها لم تخل من سلبيات ومن مخالفات لما كانت عليه المعارف السابقة، إلا أنها أعطت الانطلاقة لعهد جديد من حرية الفكر والرأي والتجديد.

(1) - التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي. ص 401

(2) - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. سعيد النكر. ص 18.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

المطلب الثاني: التقعيد لمنهج التحليل الأدبي للنص القرآني

الفرع الأول: أمين الخولي: (بوادر التقعيد)

استمر أمر التجديد في قراءة الخطاب القرآني مع تلميذ محمد عبده (ت 1905) أمين الخولي (ت 1966) في منتصف القرن الماضي عندما دعا إلى تأسيس مدرسة للتفسير الأدبي للقرآن " واعتبر أن هذا الدرس الأدبي للقرآن في مستواه الفني، دون نظر إلى أي اعتبار ديني، هو ما يجب أن نعتقده جميعا -أما عربية أصلا أو اختلاطا- غرضا يسبق كل غرض، أكان تشريعا أو اعتقادا أو أخلاقا، ولا تتحقق وجوه هذه الأغراض إلا حين يعتمد على تلك الدراسة الأدبية لكتاب العربية الأوحـد⁽¹⁾، وهذه الدراسة هي ما تسمى اليوم تفسيرا، لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها.⁽²⁾"

ويعتبر الخولي منهج دراسة النص القرآني هو نفسه منهج دراسة النص الأدبي، إذ يقول: " وإذا ما كان وجه الرأي أن هذا التفسير الأدبي ينبغي أن يتناول القرآن موضوعا موضوعا لا قطعة وقطعة، فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبي إذن صنفين من

(1) - نرى أن أمين الخولي ربط فهم القرآن بجانب واحد. وهو الجانب الأدبي. وأعطاه أهمية بالغة حتى بدت الأغراض الأخرى متضائلة أمامه. كالغرض التشريعي والأخلاقي والدعوي. (وإن لم يكن قد تعمد ذلك) إلا أن هذه النظرة الأحادية قد فتحت الباب على مصراعيه للذين جاؤوا من بعده. لإخراجه من دائرة القدسية. وتسويته بالنصوص الأدبية البشرية. ومناقشته ونقده. في حين أن الغرض الأساسي في هذا الباب هو الوقوف على مكان الجمال التي تؤثر في المتلقي وتفضي إلى إيمانه العميق بخالق هذا الجمال وتوحيده.

(2) - مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. أمين الخولي. الأعمال الفكرية. 2003. مصر. ص 230

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

الدراسة، كما هي الخطة المثلى في درس النص الأدبي.⁽¹⁾ وقد حددهما أمين الخولي في اتجاهين هما:

1- دراسة ما حول القرآن

2- دراسة في القرآن⁽²⁾

وهذا ما شكل منعطفًا جديدًا في قراءة الخطاب القرآني وتأويله، فأصبحت أول مدرسة للقراءة الأدبية للقرآن الكريم، لها قواعد وآليات خاصة تعتمد عليها، وقد اعتبرت هذه القراءة من بين القراءات الحديثة للقرآن⁽³⁾ الذي كان رائدها.

وقد سار على هذا المنهج تلامذة الخولي نذكر منهم أحمد محمد خلف الله (ت 1989)، وشكري عياد (ت 1999)، وعائشة عبد الرحمن (ت 1998)، واعتبروا أن هذا المنهج الجديد أصبح "أوسع آفاقًا وأعمق تأملًا، وأكثر صلة بالفكر الحديث، وأغزر

(1) - من جماليات النظم القرآني. عبد الرحمن السلمي. ص 288.

(2) - مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. ص 233

(3) - نقصد بها المحاولات التجديدية التي حاولت بناء منهجية جديدة وتطبيقها في فهم القرآن الكريم. رغبة منها في تجاوز نمط الدراسات القديمة المعتمدة على أصول الفقه وعلوم القرآن. والتي لم تتجاوزها بقدر ما حاولت تطعيمها باستعارة مفاهيم ومقولات خارج مجال التداول الإسلامي القديم. وملاءمتها مع واقع الحياة الجديد والظروف المتغيرة. وباستثمار مقاصد النص ومساحة الاجتهاد الواسعة فيه.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

إضافة على التراث التفسيري. ⁽¹⁾ فكان هذا التيار إضافة جديدة لمدرسة التفسير القديمة، انطلق منها لكنه حاول الخروج من طوقها مستلها من ظروفه الخاصة وواقعه الجديد.

وهكذا أصبح ينظر للمنهج الأدبي في دراسة النص القرآني، وسيلة لتجديد روح القرآن ومعانيه البيانية والفنية، في خضم ما كان يعيشه المسلمون من تحلف وتراجع على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والأدبية، تقول زينب شوربا رئيسة تحرير مجلة المنطلق الجديد في هذا الصدد واصفة تطور المناهج التفسيرية القرآنية في المرحلة التجديدية بأنها " ما لبثت أن شهدت نقلة نوعية في عصر النهضة الحديثة بعد الجمود الذي أصاب المجتمع الإسلامي في مختلف مجالاته، ومنها الجانب الأدبي والمعرفي الذي كان التفسير جزءا منها، وقد كان التساؤل حول كيفية الخروج من هذا الركود أهم أسئلة النهضة، هذه الأسئلة انعكست في كتابات المفكرين الذين اعتبروا إعادة قراءة القرآن قراءة جديدة من أهم الواجبات لخروج الأمة الإسلامية من مأزقها، وبذلك اتخذت التفاسير في تلك الفترة منحى اجتماعيا، وظهر ما يعرف بالاتجاه الاجتماعي في التفسير، الذي كان محمد عبده من أهم أعلامه، وجمال الدين الأفغاني (ت 1987)، ثم كانت محاولات لتفسير القرآن استنادا إلى الكشوفات العلمية، وهو ما عرف بالتفسير العلمي للقرآن، وتلاه الاتجاه الأدبي في التفسير أو البياني الذي أسس له أمين الخولي. ⁽²⁾ وظهر

(1) - من جماليات النظم القرآني. عبد الرحمن السلمي. ص 289.

(2) - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. سعيد النكر. ص 18. 19.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

بعده محمد أحمد خلف الله، الذي كان تلميذه، وقد قام بدراسة لقي وقتها رفضا واستهجانا كبيرين من طرف الأزهر وعلماء الدين، واعتبروا ذلك خروجا عن قواعد المنهج، وضربا في العقيدة واستخفافا بالدين، لما كان يدعو إليه من دراسة القصة القرآنية بمنهج فني وأدبي على اعتبار أنها قصص أدبي.

وقد انطلق محمد خلف الله من هذا التحديد اعتقادا منه أن " هذا النهج سيتيح له دراسة القصد الأدبي أو الفني من قصص القرآن، وقد أدى هذا المنطلق الخاطئ إلى السقوط في عدة تناقضات، فقد ردد مرارا في كتابه أن القصص القرآني قصص أدبي، غير مدرك الفرق بين التسميتين وما بينهما من اختلافات جوهرية، فالقصص في القرآن جزء من الكتاب المنزل، ولا تخرجه فنية الأداء عن هذه الحقيقة الدينية، وأما القصة في مجال الأدب فهي في جوهرها إبداع إنساني يتشكل ضمن شروط معينة، ويقوم على الخيال والقدرات الفنية، وقد يترتب عن عدم التمييز بين الأمرين انزلاقه إلى أخطاء منهجية ومعرفية.⁽¹⁾ لكن الأمر عموما ظل في نطاق التجديد والرؤية المختلفة التي لا تخرج عن الإطار المنهجي العام لقراءة الخطاب القرآني، وإن كان محمد خلف الله، قد مهد الطريق لمن بعده من الحداثيين الذين كانوا أكثر جرأة في تناوله وتفريغ النظريات الغربية المتعلقة بدراسة النص الأدبي، في قراءة الخطاب القرآني وإسقاطها عليه.

(1) - مفهوم القصص في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية. سعيدة الرجاني. عالم الكتب الحديث. ط 1. 2019.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

وضمن هذه الزمرة من المفكرين والأدباء، ظهر سيد قطب⁽¹⁾ بتفسير جمع بين مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأي التي يدخل في نطاقها التفسير الأدبي، وهو "تفسير في ظلال القرآن"، ويعد مختلفا عن باقي التفاسير، فكان بذلك رائد مدرسة جديدة لها خصائصها المتميزة عن كل ما سبق، حيث اتجهت هذه المدرسة نحو التصوير الفني، "فقد اعتمد سيد في ظلاله على التفسير بالمأثور، وكان يركز على الوحدة الموضوعية، كما كان يعتمد على التصوير الفني ودلالاته البيانية، ويقف على العبر المستفادة من كل آية أو قصة قرآنية، بالإضافة إلى اهتمامه بالإصلاح الاجتماعي، وقد تجلّى ذلك في ربطه مضامين السور والآيات ومغازيها بواقع الحياة الحاضرة، واستخلاص العبر".⁽²⁾ فكان له بذلك منهج خاص في قراءة السور، "إذ كان يعتبر أن السورة ذات وحدة موضوعية متكاملة، لذلك كانت طريقته في التقديم والختام، جزءا من تفسير القرآن بالقرآن، بصورة موضوعية حسنة، وهذه الطريقة جديدة في بابها لم يسبقه إليها إلا أبو الأعلى المودودي⁽³⁾ في كتابه تفهيم القرآن".⁽¹⁾ وبالإضافة إلى الوحدة الموضوعية

(1) - سيد قطب. إبراهيم حسين الشاذلي. ولد في محافظة أسيوط بمصر. عام 1906. مفكر وأديب إسلامي. له عدة تآليف أهمها "في ظلال القرآن" الذي اعتبر به مفسرا ورائدا للفكر الإسلامي الأصيل. وكذلك كتاب "التصوير الفني في القرآن". وأكثر من خمسة وعشرين كتابا. واستمر بالكتابة إلى أن حكم عليه بالإعدام شنقا. عام 1966. (الأعلام. الزركلي. دار العلم للملايين. ط 15. 2002. ج 3. ص 147. 148.) سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار القلم. دمشق. ط 2. 1994. الصفحة 15 إلى 17.

(2) - منهج سيد قطب في ظلال القرآن. أسماء فدعق. ص 97.

(3) - أبو الأعلى المودودي. إمام وداعية وعلامة. ولد في مدينة أورانج بأباد في الهند عام 1903. بدأ العمل في تفسير القرآن الكريم وأخذ بنشره في مجلة "ترجمان القرآن" تحت عنوان "تفهيم القرآن". بالإضافة إلى عديد من المؤلفات منها: "المصطلحات الأربعة في

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

للسور، نجد أنه ركز على دور التصوير الفني - كما أسماه هو - في الدلالة وتمثل معاني الآيات، ويعبر عن ذلك في كتابه "التصوير الفني في القرآن" بقوله: "إن حقيقة جديدة تبرز لي، أن الصور في القرآن ليست جزءا منه يختلف عن سائره، إن التصوير هو إعادة التعبير في هذا الكتاب الجميل، قاعدته الأساسية المتبعة في جمع الأغراض - فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال -، فليس البحث عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز، ذلك توفيق لم أكن أتطلع إليه حتى التقيته." (2)

وإن هذه الصور التي يتحدث عنها سيد، تكون حية ومؤثرة، فهي تشع في العبارة، إذ تسهم إسهاما فعالا في الدلالة الأدبية وتصوير الجو العام. فالتصوير بالنسبة إليه هو "الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية وعن الحال المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة." (3)

القرآن". و"فضائل القرآن". و"القرآن والحديث". توفي بنويورك عام 1979. (- معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر. عادل نويض. ج 2. مؤسسة نويض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر. ط 3. 1988. بيروت. ص 756. 757. وأيضا: تنمة الأعلام للزركلي. محمد خير رمضان يوسف. ج 1. دار بن حزم. ط 2. 1422. ص 74).

(1) - منهج سيد قطب في ظلال القرآن. ص 130.

(2) - التصوير الفني في القرآن. ص 7.

(3) - المرجع نفسه، ص 32.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجاً وتحليلاً

وإذا حاولنا المقارنة بين منهج الخولي وقطب، فسنجد نقطة اختلاف جوهرية، وهي ربط المنهج المتبع بالغاية، إذ اختلفت غايتيهما، حيث نظر الخولي من خلال منهجه إلى القرآن نظرة أدبية محضة، وجعلها غايته الكبرى - وإن لم يُخرج النص القرآني من إطاره القدسي -، بينما حاول قطب الكشف عن أدبية القرآن وتصويره الفني، وأثره الوجداني، بقصد خدمة الغاية الدينية، فالفرق بينهما شاسع وإن تشابهت الوسائل والآليات. ولن يظهر هذا التباين جلياً إلا مع التيار الحداثي الذي أغراه منهج الخولي ليصبح أكثر جرأة في التعامل مع الخطاب القرآني، بينما تفرد تفسير قطب بأمرين أساسيين أولهما: حيوية العرض والكشف عن الصور القرآنية، حتى لتبدو كأنها ماثلة أمامنا، وثانيهما: إبراز الجوانب الوجدانية المؤثرة في تفسير معاني الآيات والسور، دون أن يُغفل ربط كل ذلك بالواقع المعاصر، ولم نجد من قارب بعده هذه الأبعاد مجتمعة، أو أضاف إلى أسلوب التصوير الفني شيئاً، بل انصرف الغالبية إلى التفسير المرتبط بواقع الناس وقضاياهم المعاصرة، أبرزها: " التفسير المنير " لوهبة الزحيلي، و"تفسير المنار" لرشيد رضا⁽¹⁾، وتفسير " مجالس التفسير " لعبد الحميد بن باديس⁽²⁾.

(1) - رشيد رضا. ولد عام 1865. في طرابلس لبنان. من كبار الدعاة إلى التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي. وصاحب مجلة " المنار ". رحل إلى مصر. وتلمذ على يد محمد عبده. توفي عام 1935. (- معجم المفسرين. عادل النويهض. ج2. مؤسسة النويهض الثقافية للتأليف والنشر. ط3. 1988. بيروت. ص529).

(2) - عبد الحميد بن باديس. ولد عام 1889 بقسنطينة بالجزائر. أحد رجال الإصلاح ورواد النهضة الإسلامية في الجزائر والوطن العربي. من أهم ما ترك " مجالس التفسير " الذي جمعه تلامذته بعد وفاته. وهو تفسير كامل للقرآن

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

ونعتقد بأن الاعتماد على "تفسير الظلال" سيكون الأقرب والأنسب لما نصبوا إليه من هذه الدراسة، لأنه استطاع أن يوفق بين قراءات القدماء والمحدثين دون مبالغة أو تقصير، وظل مستوفيا للشروط الجمالية والثقافية الإسلامية، وأيضا ملامسا لواقعنا المعاصر.

الكريم. توفي عام 1940. (- عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية. مصطفى محمد حميداتو. كتاب الأمة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. ط 1997. ع 57. الصفحات: 46. 47. 59. 130).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

الفرع الثاني: المنهج الحداثي في تأويل القرآن الكريم

كما ذكرنا، فقد جاءت هذه المرحلة امتدادا للمرحلة السابقة " ونتيجة لتفاعلاتها ومحاولة لتجاوز عيوبها وتطوير إيجابياتها وإصلاح وتقويم مناهجها، كما جاءت استجابة للتغيرات الفكرية والأدبية والمعرفية والسياسية العالمية، التي تنعكس بشكل أو بآخر على الأوضاع الفكرية والأدبية العربية، وقد كانت طبيعة هذه الاستجابة تقليدية محضة، حيث تعرض كل تجارب المجتمع الإسلامي وقضاياه على النموذج الأوروبي الذي يرتبط بالعقل الغربي ويتحرك وفق نظام معرفي وحدائي." (1) والسبب في ذلك راجع إلى انبهار العرب - بعد أفول نجمهم - بالغرب لما حققوه من تقدم على جميع المستويات، وعلى رأسها المستوى المعرفي، فأصبحوا يعتقدون أن كل ازدهار وتقدم إنما يمر عبر آليات الغرب ومنهج الأدبية والعلمية، فأصبحوا يمتحون من معين ما جادت به عقول المفكرين الغربيين وأقلامهم في مجال النظريات الأدبية والفلسفية، ويحاولون إسقاطه على إنتاجاتهم الفكرية والأدبية، وهذا الأمر قد جرت به العادة على مر التاريخ، إذ هو حتمية تاريخية لا مناص منها كما أشار إلى ذلك ابن خلدون (732) (2) "بأن المغلوب مولع أبدا

(1) - قراءة في النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. ص 21.

(2) - عبد الرحمن بن خلدون. مؤرخ تونسي. ولد عام 732هـ. حفظ القرآن وأتقن القراءة. وانتقل في مرحلة شبابه في وظائف إدارية وسياسية. ثم تفرغ بعدما جاوز الأربعين للكتابة والتأليف عقدا من الزمن. وعاد بعدها إلى وظيفة التدريس والقضاء. اعتبر المشي الأول لعلم الاجتماع. ولم يصل إلى شأوه أحد ممن جاء بعده إلى أواخر القرن التاسع عشر. (انظر كتاب مقدمة بن خلدون. نفس المرجع السابق).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

بتقليد الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها، ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها، حصل اعتقادا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء.⁽¹⁾ وهذا ما حدث، " إذ كان النقد الأدبي الحديث الوافد في معظم ما له وما عليه من الغرب، فقد ولد في ظل الفلسفات المثالية والمادية، والمذاهب الاجتماعية والأدبية المختلفة، وكلها تستند إلى الأصول الفكرية التي اشتهرت نسبتها إلى الإغريق، وتعززت على أيدي فلاسفة النهضة الأوروبية وعلمائها، واستحوذت على قيادة المجتمع والعلم والثقافة والأدب في أوروبا، بعد أن تخلصت من سلطة الكنيسة، ولم يكن هناك نص إلهي تصدر منه وتؤول إليه، ولا بعد ديني متحكم في مختلف مجالات الحياة على نحو ما كان عليه في ظل الفكر الإسلامي فكان الإنسان وقواه الإبداعية المرجع الأعلى في الإنتاج الحضاري"⁽²⁾، وأصبحت الحرية المطلقة هي المتحكمة في فكره وإبداعه، وهذا ما شكل نقطة الاختلاف الجوهرية بين الفكر الغربي والعربي، لذلك فإننا حين نقارن بين هذين النمطين من "العربي والغربي، وبين مصدريهما ومعالمهما الكبرى المشار إليها، نجد أن الخلاف الحاد بينهما يقع أولا في الأصول النظرية والفكرية التي يصدر عنها كل منهما.⁽³⁾ هذا الاختلاف المرجعي يعتبر

(1) - المقدمة. عبد الرحمن بن خلدون. تح: علي عبد الوافي. دار نهضة مصر. المجلد 2. ط 7. 2014. ص 505.

(2) - القراءة الأدبية للقرآن في ظل المنهج التاريخي. حسن بوتابيا. ط 1. 2010. ص 12.

(3) - المرجع السابق. ص 13.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

حجر الزاوية في التمييز بين الفكرين، وهو الذي يسمهما بسمة التميز والتغاير لكل منهما، وعندما يفقد أحدهما مقوماته وثوابته ويصبح تابعا، يفقد قوته وتأثيره وعنصر التفرد فيه، لكن هذه النظرة ستختلف وستتغير معها المفاهيم والآليات عما كانت عليه في السابق، " فإذا كان العقل الأداتي حسب المرحلة السابقة- الاتجاه التجديدي الذي اعتمد أسلوب التوفيق والموازنة- قد ظل خاضعا لمبادئ النص وضوابطه، فإن ذلك سيتغير مع تيار الحداثة، إذ تم الفصل بينهما، وذلك بإقصاء النص الديني والتحرر منه كليا، بناء على نظرة سلبية اتجاهه مستوردة من بيئة غير بيئتنا (الغرب)، " ⁽¹⁾ وهنا حدث شرح كبير بين المدرسة التجديدية والمدرسة الحداثية، سببه إخراج القرآن الكريم وكتاب العربية الأكبر من نطاقه القدسي وتداوله كما يُداول أي نص أدبي آخر، فقد " قدم هؤلاء الباحثون التأويليون قراءات عديدة للقرآن، وسموا القرآن الكريم بالنص الديني، وبالنص التأسيسي، وأقاموا عليه قراءات وتأويلات نسبوها إلى الحداثة، وزعموا أنه قابل نظريا لعدد غير محدود من التأويلات، وأنه نص رمزي ثري يستعمل المجاز والصور والأمثال والإشارة والتلميح ولا يتقيد بمقولات المناطق وأساليب المتكلمة والفقهاء. " ⁽²⁾ صحيح أن الخطاب القرآني نص زاخر بالأساليب البلاغية والأدبية، لكن يجب أن يبقى داخل خصوصيته الدينية باعتباره خطابا مقدسا، يتأبى أن يتموضع في إطار منهجية أو

(1) - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. ص 21.

(2) - الخطاب القرآني ومناهج التأويل. عبد الرحمن بودرع. ص 47.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

نظرية أدبية أو تاريخية معينة، خصوصا وأن هذه النظريات مرتبطة بثقافات أخرى مختلفة، ظروفها غير ظروفنا وعقيدتها غير عقيدتنا، فكتبهم المقدسة طالها التحريف والتزوير، وأصبحت بين يدي رجال الدين يزيدون فيها وينقصون، ولذلك فهي أيضا مرجع للأدباء والفلاسفة حتى يتناولوها بالنقد كل حسب مرجعيته وخلفيته. وكتابتنا وكُل الله سبحانه وتعالى بحفظه، ولذلك عندما حذا الحداثيون العرب حذو هؤلاء، لم يراعوا " اختلاف الخصوصيات الثقافية والدينية والتاريخية والبيئية للمواقف، فقد دعوا إلى التخلص من الدين ومن النص المؤسس له، وكذا التخلص من كل ما يمت إلى الماضي بصلة، واستبدال مناهج وأدوات معرفية غربية مكان تلك المستمدة من التراث. وهذا يدل على أن النص القرآني لم يعد يشكل عائقا أمام الذات العربية والعقل المسلم، بل سيصبح هذا النص في حد ذاته موضوعا للتجربة العقلية، يثار حوله النقاش والسؤال بل والشك أحيانا، بناء على مقومات المنهج النقدي المستمد من الفلسفة الغربية في أوج تطورها مع كانط وديكارت، حيث تم استعمال السؤال الفلسفي والشك المنهجي والفحص النقدي".⁽¹⁾ فطبيعي من فكر يؤله العقل، ويجعل كل ما في طريقه قابلا للشك والنقد، أن يضع الخطاب الإلهي موضع التجربة والاختبار، لذلك جاءت بعض هذه القراءات نشازا عن بيئتها، " لا تعدو أن تكون إعادة إنتاج لواقع الحداثة الغربي، مقطوعة الصلة بأسباب التاريخ، زعما من أصحابها أن الماضي عنوان على التخلف والتقليد، مع

(1) - الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. طه عبد الرحمن. المركز الثقافي العربي. ط1. 2002. ص14.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

العلم أن فرار الغرب من ذاكرته وماضيه في حقيقة الأمر، فرار من تحلف القرون الوسطى، وهو أمر لم تصب عدواه ذاكرة المسلمين، وقد ظن كثير من الحداثيين التأويليين أن على العرب أن يحدوا حذو الغرب في علاقته بماضيه وتراثه وتاريخه " (1) فكانت الدعوة إلى اعتماد قراءات وتأويلات جديدة، تغيب فيها خصوصية النص القرآني والتعامل معه على أنه خطاب مقدس، " لتخرج من عباءة الاعتقاد وتلبس عباءة الانتقاد الذي كانت تبني عليه أغلب تأويلاتها، على اعتبار أن من سبقهم إلى تفسير النص القرآني كانت له طريقته الخاصة في التعامل معه، فلماذا لا يكون الأمر كذلك اليوم مع اختلاف الأزمنة والأمكنة. " (2) إلا أن طريقة الحداثيين في القراءة تميل إلى تطبيق مقولات الفكر الغربي في معالجة نصوص التراث عموما، وبعض نصوص القرآن خاصة، وذلك بعد شدة إعجابهم بالحدائث الغربية، بداية مع رفاعة الطهطاوي مروراً ب طه حسين وصولاً إلى الجابري وأركون وحسن حنفي ومحمد شحرور وغيرهم..

ويرى دعاة هذا المنهج أن الدراسة الأدبية " ليست منهجا مفروضا على النصوص القرآنية، لأنها نصوص أدبية باعتبارها تمارس تأثيرها وفاعليتها في النفوس من خلال عناصر أسلوبية وبنية لغوية شعرية أو قصصية إلى حد كبير " (3)، وإذا كانت هذه

(1) - الخطاب ومناهج التأويل. ص 47.

(2) - النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية. الموقف والمنهج. عبد الرحمن بن رجا الله الجامعي السلمي. مجلة الدراسات اللغوية والأدبية. ع 1. 2009. ص 305

(3) - الخطاب والتأويل. نصر حامد أبو زيد. ص 234.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

النصوص المقدسة هي نصوص أدبية في الأصل فإن الوقوف عندها للاعتبار السابق يشكل عائقا كبيرا في دراستها وتحليلها مثل أي نص أدبي، وهذا ما حدث في التعامل مع التوراة والإنجيل، " فقد تطورت الحضارة الغربية بعد أن أخضع الأوروبيون نصوصهم المقدسة للنقد، وهذا ما سعى إليه محمد أركون⁽¹⁾ حين أوضح بأن عمله يقوم على إخضاع القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن. "⁽²⁾ إن ما طمح إليه أركون وغيره من تلامذة المناهج الغربية، هو محاولة إخضاع الخطاب القرآني للقراءة التاريخية، وفرضها بطريقة أو بأخرى، وقد أكد على ذلك بقوله: " إن ما أسعى إليه هو محاولة فرض قراءة تاريخية للنص، قراءة تمتنع منذ الآن فصاعدا عن كل عملية إسقاط إيديولوجية على هذا النص. هذا هو هدي، أريد القيام بقراءة تزامنية⁽³⁾ للقرآن "⁽¹⁾.

(1) - محمد أركون: مفكر وفيلسوف عربي حديثي. ولد عام 1928 بالجزائر. وعاش في فرنسا. ودفن في المغرب. آمن بما وراء الحداثة. لكنه شعر باليأس والإحباط من نظرة الأوروبيين له كمسلم تقليدي. كان ينتقد العقل الإسلامي بلسان فرنسي. وبعقل استشراقي غربي. من أهم مؤلفاته: " الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد. " و " قضايا في نقد العقل الديني. " و " قراءات في القرآن. " توفي سنة 2010. (- موقع موسوعة الجزيرة).

(2) - من جماليات النظم القرآني. ص 293.

(3) - القراءة التزامنية **Synchronique**. وهي القراءة المطابقة زمنيا للنص المقروء. أي القراءة التي تحاول العودة إلى الوراثة. إلى زمن النص. لكي تقرأ مفرداته وتركيباته بمعانيها السائدة آنذاك. وليس بالمعنى السائد الآن. إنها عكس القراءة الإسقاطية التي تقع في المغالطات التاريخية. وتسقط على نص ما. معاني زمن آخر وعصر آخر. ذلك أن معاني مفردات اللغة تتطور وتتغير من عصر إلى آخر. (أنظر كتاب: الفكر الإسلامي. قراءة علمية.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

ولنا أن ندرك إلى أي مدى تهاوى هؤلاء المفكرون مع هذه المناهج، وحاولوا جر القرآن الكريم إلى ساحتها، فنجد أركون مرة أخرى يعبر عن ضرورة التخلي عن قدسية القرآن من أجل انخراطه ضمن هذه المناهج وتمثلها، إذ يقول: " كيف يمكن أن نفسر العلاقة بين الشرط التاريخي للإنسان، والوساطة المحتومة للغة، من أجل الاضطلاع بهذا الشرط، إننا نلاحظ أن ضخامة المسائل التي أثارناها، تبين إلى أي مدى يمكن للدراسة المعمقة لمسألة الصحة الإلهية للقرآن، أن تشكل وسيلة ناجعة لتنشيط الفكر الإسلامي من جديد، وجعله ينخرط في المناقشات الفكرية واللاهوتية الكبرى لعصرنا، ولكن لتحقيق ذلك ينبغي له نزع الأسطورة والتزييف والأدلة عن كل يقينياته الدوغمائية." (2) لقد حاول أركون أن يتحرر من قدسية القرآن حتى يتسنى له، معالجته حسب رأيه، بما يراه مناسبا من آليات تحليل مستوردة، وإنجاز ما يمكن إنجازه على غرار النصوص المقدسة الغربية، وهذه المسألة قد توقع الكاتب في كثير من المغالطات، لأن خصوصية اللغة أولا وخصوصية القرآن ثانيا تستدعي الانتباه والحذر في التعامل معه، فالقرآن ليس مشدودا إلى زمانه فقط، بل هو مرتبط بالإنسان دائما في كل زمان ومكان، وهذا ما يختلف عليه أركون، إذ يعتبره مرتبطا بلحظته الزمنية ومتوقفا عليها، ويعبر عن ذلك " بتاريخية

(1) - الفكر الإسلامي. قراءة علمية. محمد أركون. تر: هاشم صالح. المركز الثقافي العربي. ط 2. 1996. بيروت.

ص 213.

(2) - قراءات في القرآن. محمد أركون. دار الساقي. ط 1. 2017. ص 147.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

القرآن، أي كونه مرتبطا بلحظة تاريخية معينة، حينما كان العقل يمارس آليته وعمله بطريقة معينة. " (1)

من هنا يتضح لنا أن الرؤية للقرآن الكريم، أصبح يُعامل معه كنص أدبي مفتوح على جميع التساؤلات والإسقاطات والنظريات اللغوية والأدبية، بغية التحرر من قيود القدسية وإخضاعه لرأي المؤول، ولتفريغه من مضمونه الديني.

وهنا نسوق مثالا لأحد المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك الذي أصبح بعد ذلك مثالا يحتذى به عند المفكرين العرب خصوصا أركون، يقول: " ما سأقوم به هو محاولة استبدال المعرفة بالتأمل، والمدونة بالتحليل، إنها إعادة قراءة القرآن إذن، وذلك كما نحب أن نقول هذا عندنا منذ جيل، لكي نبين بأن عصرنا يستطيع إذ يتسلح بمكتسباته المنهجية الخاصة، وبحساسيته الذاتية، أن يحيط مجددا بالنصوص الكبرى التي فهمتها الأجيال السابقة على طريقته " (2).

فظهرت قراءات أو نظريات للقراءة تعيد النظر في التراث التفسيري الإسلامي، على اعتبار أن " المدخل لنهوض الأمة هو التخلص من قبضة التراث والانعقاد من

(1) - قراءات في القرآن. محمد أركون. ص 147.

(2) - إعادة قراءة القرآن. جاك بيرك. تر: منذر عياشي. مركز الإنماء الحضاري. ط 2. 2005. ص 28.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

سلطة النص الديني الذي يأسر حركتها ويعوق مسيرة نموها وازدهارها، مقلدين بذلك الغرب في تعامله مع تراثه الديني ونصوصه المقدسة.⁽¹⁾

واستبدل مصطلح القراءة بالتفسير والتأويل ، قراءة تضع الموروث خلفها وتتوسل بآليات ومناهج الفهم والتحليل الغربية..

وفي نفس السياق، يرى المستشرق الفرنسي جاك بيرك⁽²⁾ أن النص مرتبط بالتاريخ والثقافة، وبذلك فإنها يبقيان على الدوام خلف جديد النص، وذاك هو أحد الغربيين الذين تناولوا الخطاب القرآني ووظفوا مناهجهم وطبقوها عليه، وقد أوردناه لندلل على وجه الشبه بين رؤيته ورؤية المفكرين الحداثيين العرب، وكيف أنهم ساروا على منواله وطريقته، وهذه الرؤية ليست مقتصرة عليهم، إنما هي مدرسة إن صح التعبير ارتادها العديد من مفكرينا ونقادنا.

(1) - قراءة النص القرآني. الإيديولوجيا والمنهج. ص 4

(2) - جاك بيرك **Jacques Berque**. من أبرز المستشرقين المعاصرين. فرنسي كاثوليكي ولد بضواحي الجزائر العاصمة. عام 1910. حيث قطن بها العشرين سنة الأولى من حياته. تعلم خلالها اللغة العربية وتعمق فيها من خلال انتقاله إلى المغرب لمزاولة بعض المناصب الإدارية والعلمية. وكان لتعيينه مراقبا مدنيا إبان عهد الحماية الفرنسية في المغرب من 1934 إلى 1939 أكبر الأثر في الاحتكاك بقبائل المغرب والاطلاع على مختلف اللهجات والعادات والتقاليد. وهو ما وظفه في أطروحة الدكتوراه سنة 1955. كتب عن الإسلام والقرآن. وأهم كتبه في هذا المجال "إعادة قراءة القرآن" سنة 1993. و"ترجمة معاني القرآن الكريم" سنة 1990. انظر كتاب "إعادة قراءة القرآن" لنفس المؤلف.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

ويستعمل جاك كلمة التقدم من خلال تفسيره لمعاني القرآن وترجمته لها على أساس أنها سنة الله في الكون، ويعتبر أن هذا التفسير يخدم التطور والتقدم السني إذ يقول: "إسلام التقدم، لماذا؟ لأنه إسلام الديمومة، فإذا كان ثمة سمة أدهشتنا في الرسالة القرآنية، فذلك يتجلى في الانفتاح الذي تمارسه على زمن العالم باسم أصالة مستمدة من العالم الآخر. وإنها إذ تكون صالحة بوصفها كذلك، لكل الأمكنة ولكل العصور، فإنها تبدو لنا مُستبعدة بسبب هذا، ثبات التأويل والتطبيق. وإنها لتستبعد ليس فقط ذلك الثبات الذي يهدد ممارسة أي متقعر بالضرورة، ولكن ثبات ذلك الذي يتعلق بالتكرار غير المحدود لأحكام القضاء، والسريع التحول إلى تقديس أعمى للسلف، ومن هنا كانت هذه الحكمة بين حكم أخرى ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (38) الأنفال 38⁽¹⁾، " فجاك يعتبر الخطاب القرآني خاضعا للتطور والتجديد بمفهومه الخاص الذي يدعن لقواعد التأويل الغربية، فهو يريد للخطاب القرآني أن ينضبط لتلك المناهج وليس العكس. وهذا ما أراد الوصول إليه وتأكيده عن طريق دراسة النص القرآني وتأويله وترجمته، وإخضاعه للمنهج التاريخي واللساني.

(1) – إعادة قراءة القرآن. جاك بيرك. ص 133.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

الفرع الثالث: القصة القرآنية في مواجهة التحليل الأدبي للنص.

نحاول بعد هذه القراءة السريعة لمناهج التأويل في القرآن الكريم، أن نركز على منهج التحليل الأدبي خاصة، وكيف تعامل معه أهل الأدب ورواده. فكما أشرنا إليه سابقا، فإن القصة في أحد دلالاتها هي السرد، و" دراسة السرد تكون بدراسة أسلوب القص، أي طريقة سرد الأحداث في العمل القصصي." ⁽¹⁾ والقصة بشكل عام هي نوع أدبي فريد يُعتمد فيه على مجموعة من العناصر لإخراجه على هيأته التي عرف بها، كما يتطلب مجموعة من الآليات الفنية لتفكيك مكوناته ودراسته ومقارنته، إلا أننا عندما نكون أمام نص مقدس، يصبح من الصعب التوصل بهذه الآليات دون مراعاة اختلافه عن باقي النصوص الأخرى، فالدراسة الأدبية للقصة القرآنية خصوصا والنص القرآني عموما، تبقى محفوفة بالمخاطر على كل حال، وقد كان أول روادها شكري عياد وعائشة بنت الشاطي وغيرهم، " إلا أن دراساتهم الأدبية للنص القرآني ظلت في إطارها العام ملتزمة بالإفادة المنهجية من القرآن التي تراعي قداسته وخصوصيته" ⁽²⁾، وهذا هو الأمر المطلوب، دون الانزياح إلى قراءة تساوي الخطاب العادي بالخطاب القرآني، كما فعل نصر حامد أبو زيد الذي كانت له رؤية مختلفة في معالجة النص القرآني ودراسته دراسة أدبية حيث يعتبر بأن " دراسة النص القرآني دراسة أدبية هي دعوة قديمة كانت بدايتها مع

(1) - من جماليات النظم القرآني. ص 269.

(2) - المرجع نفسه. ص 290.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجا وتحليلا

أمين خولي، لكن لم يكتب لها أن تتحقق إلا حديثا⁽¹⁾. فهذا المنهج الجديد في الدراسة والتحليل طالما أنه يتبنى إبراز أسلوب القرآن وجماليته وطريقته في التعبير والتصوير، فإنه أمر جيد ومطلوب، لكن ما يؤخذ على نصر أنه يبرر استخدام المناهج الأدبية دون قيد أو شرط مادامت تخدم جمالية الخطاب القرآني، وهنا لا بد أن نشير إلى " أن مكنم الخلاف يبرز عندما ننظر إلى المآلات التي وصلت إليها الدراسات الأدبية للقرآن الكريم، فمشكلة المنهج تظهر عند التطبيق، فالنظرية الأدبية الواحدة تسفر عن طرائق ومناهج متعددة. " فـأبو زيد يضع الخطاب القرآني على وزان واحد مع النصوص الأدبية الإنسانية، ويظهر الخلل عند تنزيل مناهج التحليل عليها، إذ قد تفضي إلى نتائج عكسية، أو قد تشوه الغاية المطلوبة.

فبأي هذه المناهج ستتوسل إذن لدراسة الخطاب القرآني، وهل ستصلح له كل الأدوات والوسائل التي تدرس بها النصوص الأدبية العادية وتحلل؟ ونحن نعلم أن كل منهج له إيديولوجيته ومذهبه الذي قد لا يتناسب تطبيقه على القرآن الكريم، لأن ذلك قد يتعارض مع جوهره وعمقه، ولأن له خصوصية وشروطا لا يمكن تحقيقها إلا في إطار سياقه الديني كاملا دون تجزيء.

(1) - انظر مفهوم النص. دراسة في علوم القرآن. ص 19.

(2) - من جماليات النظم القرآني. ص 289.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصا ومنهجيا وتحليلا

كانت هذه أهم المدارس والتيارات الفكرية، وأهم روادها الذين تناولوا النص القرآني من الناحية الأدبية، "فوسّموه بطابعهم، وتمكنوا من التأثير في الدراسات المتعلقة به، وحاولوا إخضاعه لتوجهاتهم ومناهجهم، وهم فئتان متميزتان مختلفتان بالرغم مما بينهما من عناصر التداخل والتلاقي ووحدة الهدف في بعض الأحيان، وبقدر ما كانت الأولى متمسكة بالقرآن، مدافعة عن حضارته وأدبه، محاولة التجديد من خلاهما، كانت الثانية مندفعة نحو الغرب، داعية إلى الأخذ بحضارته وتقاليده ومناهجه العلمية الجديدة- كما سبقت الإشارة إلى ذلك-، وقد كان هدفها الأساسي: التسوية بين القرآن والأدب، فقد كان هذا المبدأ عصب تفكيرها وعصارتها، وفي الوقت نفسه عقبة كأداء أمامها، حالت بينها وبين الإسهام الإيجابي في تطوير الدراسات القرآنية." (1) هكذا بدت دراسة النص القرآني، مترددة بين مرحلتين مختلفتين، فظهر ذلك جليا في تناولها للنص القرآني من الناحية الفنية والأدبية. ويمكننا أن نطلق عليهما مرحلة التجديد ومرحلة التحرر.

(1) - القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي. الحسن بوتبيا. ط 1. 2010. ص 307.

الباب الثاني: جمالية الخطاب القرآني من

خلال القصة تجريداً وتجسيدياً

الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدياً من خلال قصص: سورة " طه "

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

المبحث الأول: جمالية القصة أصولاً

المطلب الأول: القصة ماهية ونشوء

الفرع الأول: القصة لغة واصطلاحاً

جاء في "لسان العرب": القَصُّ فعل القاص إذا قَصَّ القَصَص، ويقال: في رأسه قصة، يعني الجملة من الكلام، والقاص الذي يأتي بالقصة من قصها ويقال قصصت الشيء إذا تتبعته أثره شيئاً بعد شيء، والقصة الخبر وهو القصص وقص على خبره يقصه قصاً وقصصاً أو رده، والقصص الخبر المقصوص بالفتح،.. والقصص بكسر القاف، جمع القصة التي تكتب القص القطع أو تتبع الأثر.. وتقصص الخبر تتبعه، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت الحديث رويته على وجهه وقص عليه الخبر قصصاً.. إذا أخبرته بها، والقص والبيان والقصص بالفتح الاسم، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.. وقص آثارهم يقصها قصاً وقصصاً وتقصصها وتتبعها.. وقيل القاص يقص القصص لإتباعه خبراً بعد خبر، وسوقه الكلام سوقاً.⁽¹⁾ فيتبع الجملة بعد الجملة في تسلسل وانتظام يفهم بها السامع، ويطلعه على خبر أو حكاية.

(1) - لسان العرب. ابن منظور. مادة قصص. 7 / 73-74.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ويضيف العسكري صفة إلى القصة تميزها عن باقي الأشكال السردية الأخرى وتنفي عنها القصر والآنية بقوله: " الفرق بين القصص والحديث أن القصص ما كان طويلاً من الأحاديث متحدثاً به عن سلف، ومنه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾. وقال: " ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ ﴾ ولا يقال لله قاص، لأن الوصف بذلك قد صار علماً لمن يتخذ القص صناعة.. وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص، والقص قطع يستطيل ويتبع بعضه بعضاً، وهذه قصة الرجل: يعني الخبر عن مجموع أمره، وسميت قصة لأنه يتبع بعضها بعضاً حتى تحتوي على جميع أمره. "(1) فالقصص بالنسبة للعسكري مرتبط بالطول وبالتفاصيل أيضاً. ويمكننا القول إن هذين القاعدتين سيشكلان حجر الأساس في بناء نظام القصة الأدبية فيما بعد، فعندما نتحدث عن التفاصيل فإننا نقصد كل ما ارتبط بمكان القصة وزمانها وأحداثها.

أما عند المفسرين، فالقص أيضاً هو اتباع الأثر، مثل قوله تعالى على لسان أم موسى: ﴿ وَقَالَتِ لَأُخْبِتَنَّ أَقْصَاهُ ﴾ القصص 11، " أي: اتبعي أثره، يقال: قصصت آثار القوم إذا اتبعت أثرهم. "(2) أو تقصيت أخبارهم.

(1) – الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. ص 41..

(2) – جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. 173 / 18..

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

أما في تفسير الرازي فيمكننا " تلمس مسحة أدبية للآية ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (3)

سورة يوسف 3 إذ يقول: " المسألة الثانية: القصص اتباع بعضه، وأصله في اللغة المتابعة،

قال تعالى: " ﴿ وَقَالَتِ لَأُخَيِّرَنَّ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ "

القصص 11، أي اتبعي أثره، وقال تعالى: " ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَى عَابِئِهِمَا

قَصَصًا ﴾ (64) " الكهف 64، أي اتباعاً. وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص

الحديث يذكر تلك القصة شيئاً - فشيئاً (1)، وفي هذا دلالة على أن الرازي حاول

التقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاح الأدبي، وذلك حين ربط بين اثنين باستعماله لفظ

الحكاية، وإطلاقه لفظ القصة عليه.

وقد ظلت الكتب القديمة والحديثة تتفق على المدلول اللغوي لكلمة **قصّ**، وبقيت

بمدلولها اللغوي السائد آنذاك وهو نفسه الموجود في المعاجم العربية المعاصرة، وأضيفت

إليها إضافة مهمة بعدها، وهي أن القصة أصبحت فناً له أسس يبنى عليه، فنجد في

(1) - التفسير الكبير. أبو بكر الرازي. 2 / 181.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

المعجم الوسيط مثلاً هذه الإشارة مع عبارة (محدثه)، يقول: "والقصة حكاية نثرية طويلة تستمد من الخيال أو الواقع، أو منهما معاً، وتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي"⁽¹⁾

وكما نرى فإن المعنى اللغوي يميل إلى الجوانب المادية في تعريف القصة، بينما يميل المعنى الاصطلاحي الأخير - الذي أورده المعجم الوسيط - إلى الجوانب المعنوية من المصطلح.

لكنها بعد ذلك، أخذت مفاهيم أدبية مختلفة باختلاف الدارسين، فهي عند بعضهم "وسيلة من وسائل التعبير الفني يعرض فيها الكاتب قضايا من الحياة اليومية للأفراد ويصف شخصياته ويرشد وينتقد ويلاحظ أخلاقهم."⁽²⁾ وأصبح يشكل جزءاً أساسياً من حياة الإنسان العربي "يربط من خلاله بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يزخر بعدد من القصص الخرافية الموروثة، فرضته قسوة الطبيعة، فحدود الواقعية وتصوير الغريب خاصة متماوجة وغير محددة فيه، يحاول من خلالها الإقرار بانتمائه إلى عالم خارج عنه يقيس به واقعه، فقد كانت القصة بمنزلة أداء تمثيلي ينشط الحس الجمالي، ويكيف السلوك مع الواقع عن طريق تفعيل الجهاز الرمزي الجماعي، وبناء المنظومة الثقافية للقيم والبناء

(1) - المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس. عبد الحليم منتصر. عطية الصوالحي. محمد خلف الله. مجمع اللغة العربية. مكتبة الشروق الدولية. ط 4. 2004. ص 740.

(2) - أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني. عبد العزيز خواجه. ص 149.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

المعرفي.⁽¹⁾ وبذلك انتقلت القصة في أطوار نشأتها وتطورها من اقتفاء الأثر، إلى حكاية تروي بتفاصيلها، ثم إلى فن له مقوماته وأسسها، وتعبيراً عن الوعي الجمعي للإنسان العربي. فكيف تم هذا الانتقال، وما هي أبرز مظاهره.

الفرع الثاني: القصة نشوءاً وتطوراً

تطورت الأنواع الأدبية عبر العصور، وتولد بعضها من بعض، فكان يظهر نوع أدبي جديد، يخرج من رحم نوع سابق له، إذ يمكننا أن نعتبر الحكاية أم القصة، لكن رغم ذلك فإن لها خصائصها المميزة لها وسماتها التي تختلف بها عن سابقتها.

وإن مجموع هذه الفنون الأدبية بأنواعها " هو مرآة تعكس التغيرات اللغوية أو الاجتماعية أو السياسية لعصر من العصور، ولا يعني هذا الفن محاكاة للواقع الطبيعي كما هو عليه، بل هو محاكاة نقدية لهذا الواقع تُظهر من خلالها موقف الفنان ومدى تأثره بالطبيعة ومن ثم تصبح القصة عرضاً لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو تسجيلاً لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسطاً لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بالكلام ليصل بها إلى أذهان القراء، ومن هنا يمكننا القول بأن المشهد القصصي الذي يصوره القاص هو

(1) – أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني. عبد العزيز خواجه. مرجع سابق. ص 151.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

عبارة عن مشهد واقعي صور في أسلوبه التعبيري وطريقة حدسه هذه الصورة المشاهدة في الطبيعة".⁽¹⁾ لكن بطريقة مختلفة تتوسل بأساليب فنية تولد إبداعاً جديداً.

وقد كانت بداية هذا النثر القصصي أول ما ظهر في " الأدب اليوناني في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد، وتمثل النموذج العام لأحداث القصة في افتراق حبيبين تفصل بينهما أخطار مروعة، ومنافسات خطيرة، يفلتان منها بطرق عجيبة غير مألوفة، ثم تختتم ختاماً سعيداً بالتقاء الحبيبين.. أما في الأدب الروماني، فقد ظهرت القصة في أواخر القرن الأول بعد الميلاد على نحو مخالف للقصة اليونانية في بادئ الأمر، كما يتجلى ذلك في قصة "ساتيريكون" التي ألفها " بترنيوس"، ثم تأثرت بالقصة اليونانية، وأشهر القصص التي يمثل بها لذلك التأثير، قصة " أبوليوس"، في مسخ الإنسان إلى حيوان ثم إعادته إلى حالة الأولى".⁽²⁾

أما القصص في الآداب الأوروبية منذ عصر النهضة، فقد كانت إعادة إنتاج للتراث اليوناني والروماني القديم، وتطويراً له " فتأثرت بالروح المسيحية، فسبقت قصص المخاطر غيرها من القصص، وكثيراً ما اعتمدت على الأساطير والجنيات وخوارق العادات.. كما تأثرت بملاحم العصور الوسطى وما زخرت به من معاني البطولة، ولكنها نزعاً إنسانية أوضح من ذي قبل، واتسمت بطابع المثالية في الوصف.. ثم

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 15.

(2) - النقد الأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال. دار النهضة. مصر. ص 488

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ظهرت بعد ذلك قصص الرعاة، وهي وصف خيالي لعالم الرعاة والراعيات: على أن هذا النوع من القصص قد تقدم على غيره خطوات نحو الواقع، إذ جنح الكتاب فيه إلى وصف أماكن واقعية في بلادهم جعلوها مجال الحوادث التي دارت بين أبطال قصصهم.. وفي القرن السادس عشر والسابع عشر، ظهر في الأدب الإسباني جنس جديد من القصص وهو قصص " الشطار"، وهي قصص العادات والتقاليد للطبقة الدنيا في المجتمع، وهي ذات صبغة هجائية للمجتمع ومن فيه".⁽¹⁾ وهكذا نجد أن القصة في أوروبا قد مرت بمراحل متطورة في تحديد شكل القصة ومضمونها بدءاً من جنوحها نحو الخيال واختلاق الأساطير وصولاً إلى محاكاتها للواقع.

وفي عصر النهضة " ومع نهوض المسرح الكلاسيكي تطلعت القصة إلى التحليل النفسي، ثم ظهرت اتجاهات حديثة أخرى في أواخر القرن الثامن عشر، فعُني الكتاب بالفرد ونزعاته، وجعلوا منه وحدة الإصلاح في مجتمعهم، وكانت هذه قضية من أخطر قضايا الرومانتيكيين ومن أتى بعدهم، ثم قام المذهب الواقعي على أنقاض المذهب الرومانتيكي، فقتربت القصة من الواقع، وأصبح الكاتب يتبع في قصته الواقع على حسب منهج استقصائي يجمع فيه معارفه باطلاعه على وقائع الحياة اليومية الفردية والاجتماعية، ويرتب هذه الوقائع لتكون مجالا يحرك فيها شخصياته".⁽²⁾

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 17

(2) - المرجع نفسه.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

وبذلك انضاف إلى غاية القصة التي كان غرضها الإمتاع غاية أخرى بأن أصبحت مرآة تعكس الواقع المعاش للمجتمع دون أن تتخلى عن مهمتها الفنية الأساسية.

فنحن عندما نذكر قصة، فإننا " نقصد ذلك العمل الأدبي الذي يأخذ المتلقي إلى جو إبداعى مليء بالصور والدلالات الفنية، التي تحرك دواخله، وتوقظ حسه الأدبي الكامن. " ذلك أن حب الإنسان للقصة يترجم عن ميل طبيعى مكون فيه، حيث يعيش في القصة المجهول، الذي يتكشفه من خلال الأحداث، تماماً كما يعيش المجهول في الحياة ويحاول اجتلاءه، ويذهب برناردي فوتو في تفسير تعلق الإنسان بالقصة إلى القول بأن قارئ القصة أو متلقيها يعيش الأحداث وكأنها تقع له شخصياً، ومن ثمة يتعرف على نفسه بشكل جزئي، وربما تام في بطل أو شخص من أشخاص القصة، وربما عاش الانفعالات التي يبرزها القاص، فأحيت في نفسه معاناة سابقة، وربما خفف عنه ذلك عبئاً نفسياً. " فهي مرتبطة بالجانب النفسي للكاتب، وما يصدر عنه من مشاعر وأحاسيس ورؤى ترسم نظرتة للحياة وللأدب بشكل تلقائي.

ويمكن القول بأن القارئ قد: " يجد في المحور الذي تدور حوله القصة، أو في إطارها الخارجى رمزا لحياته الخاصة "(1). والأهم من ذلك أن تؤثر هذه القصة وجدانياً في متلقيها " فإذا أمكن للقصة أن تثير في نفوس قرائها أي انفعال سواء أكان تافهاً أم

(1) القيم في القصص القرآني الكريم. عبد الله حريري. جامعة طنطا. 1988. ص 108.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

سامياً، عندئذ تكون قد أدت عملاً لا يقدر بثمن، لأن القارئ سوف يرى بوضوح هذا الانفعال في نفسه، وسوف تصبح القصة جزءاً من مصيره، ومن إدراكه لمصير البشرية⁽¹⁾. فيصير الكاتب والقارئ والقصة في بوثقة تفاعلية واحدة يؤثر بعضها في بعض.

والقصة عموماً إنما هي ترجمة لما يخالج الأديب من أفكار ومشاعر يرسو بها في شاطئ الفن والأدب ويمنحها شكلاً آخر من أشكال الحياة، تصطف فيها الأحداث والشخصيات اصطفاً مختلفاً ومتميزاً، وهي "تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره، فأراد أن يعبر عنها بكلام، ليصل بها إلى أذهان القراء محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه"⁽²⁾. ويمكنها أن تكون محض خيال كما يمكنها أن تكون حقيقة، أو مستمدة منها معاً، لكن ما يوحد بينها هو عنصر الإبداع والتخيل المعتمد في تأليفها.

وقد استعملت أدوات ومناهج عدة في رصد بنية النصوص القصصية وتحليلها، كالمناهج النفسي والمناهج البنوي وغيرهما، " لكن الأدب بطبيعته يرفض الخضوع لصرامة منهج أيا كان، فكانت تلك الدراسات تمثل اجتهادات متناثرة، يجمع بينهما الاهتمام

(1) - القيم في القصص القرآني الكريم. عبد الله حريري.. ص 109

(2) - أدب القصة القرآنية. صاحب إسلام. مجلة إيضاح. 2011. ص 91.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

الواضح بالبنية النصية للحكي." (1) وبذلك نشأت مدارس تهتم بالسرد عموماً والقصة بشكل خاص في جانبها الشكلي إضافة إلى مضمونها، في محاولة للتوفيق بين الجانبين والوقوف على آليات اشتغال كل منهما، " فظهرت مع بداية السبعينات من القرن الماضي نتائج محققة في هذا الصدد، وبدأ الحديث عن الشعرية *la poétique* التي تهتم بجماليات الإبداع الأدبي، وتلغي الحد الفاصل بين البنية ومحتواها، وظهرت أعمال في تحليل الخطاب السردى، تعنى بدراسة كيفية ظهور مكونات النص، وخصائصها المميزة، التي يتميز من خلالها عمل أدبي عن آخر." (2) فهي إذن تهتم بكل ما يتعلق بالنص في ذاته، وتبعد أي مرجع خارجي، على اعتبار أن النص يكتسب مقوماته ومميزاته من داخله، أي أنه نسق مغلق.

ويبقى هذا الاختلاف البين والجوهرى، يضعنا أمام صعوبة بالغة في استجلاء العناصر الفاعلة والمؤثرة في القصة، خصوصاً إذا علمنا بأن " مفهوم القصة السائد في العالم العربي حديثاً هو مفهوم وافد، لذلك حينما نحاول الاقتراب من هذا المفهوم، لا بد أن نعاين استعمالاته لدى النقاد الغربيين، والتي تمثل مرجعيات مصطلح القصة في العالم العربي على المستويين النظري والإبداعي." (3) فالمفهوم بشكله الجديد هو مفهوم مستورد،

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم. ص 5.

(2) - المرجع نفسه.. ص 11.

(3) - مفهوم القصص في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية. سعيدة الرجاني. عالم الكتب الحديث. ط 1. 2019.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

لذلك علينا الحذر من إسقاطه دون اعتبار الاختلاف وظروف نشأة كل منهما. لأن ذلك سيسبب اختلالاً واضحاً في النتائج. " خصوصاً وأن الاضطراب حاصل حتى في الآداب الغربية، وهذا الاضطراب لا يقتصر على نقل المفهوم للغة العربية، بل يتعداه إلى استعماله، خصوصاً لدى رواد الكتابة والنقد العرب، الذين تناولوا هذا الفن بالدراسة والتحليل، لذلك نلاحظ انتفاء الحدود بين القصة والأقصوصة والرواية والمسرحية وغيرها من المصطلحات الدالة على أشكال الفن القصصي وتنويعاته، ولعل أكثر المصطلحات تداخلاً، مصطلحا الرواية والقصة، اللذين شهدا مساجلات عديدة بين النقاد، واستمر الخلط بينهما في كتابات الجيل اللاحق أمثال عز الدين إسماعيل ومحمد يوسف نجم. "(1) خصوصاً وأنها يحملان نفس السمات الفنية.

إلا أن الأمر الذي يكتسي أهمية في السياق الذي يؤطر هذه الدراسة، هو أن " تعريف القصة يتعرض لكل هذه الإشكالات في إطار تحديده كشكل أدبي، أو كجنس أدبي، ذلك أن هذه العملية تقتضي البحث عن مكونات وخصائص القصة التي تجعلها عملاً أدبياً متميزاً عن غيره من الأجناس الأدبية، وتلتقي مع نصوص أخرى مماثلة، بمعنى أن الإشكال متعلق بنسبة التماثل أو عدم التماثل مع الأشكال الأخرى. "(2) وعموماً يمكننا أن نخلص إلى أن القصة الأدبية تختلف عن الكلام العادي بأنها تحمل

(1) - مفهوم القصص في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية. سعيدة الرجاني.. ص 81.

(2) - المرجع السابق. ص 83.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

سمات فنية وجمالية تميزها عن غيرها من أشكال الكلام، قد تكون مستقاة من واقع الحال أو من خيال مبدع وتستوعب أشكالاً أدبية متعددة وتحديدات مصطلحية مختلفة، كما أنها تستدعي التوسل بمناهج أدبية تقف عند السمات الفنية والجمالية فيها. وأما القصة القرآنية فهي أكثر خصوصية، وسنحاول في أثناء هذه الدراسة الاستعانة بهذه المناهج بما يخدم الغاية المرجوة، دون الالتزام بمنهج معين، كما ذكرنا سابقاً، لأن النص المقدس يستعصي على منهج بعينه، فلا يمكن حصره داخله، أو الحكم من خلاله على القصة القرآنية شكلاً ومضموناً، بل إن المناهج كلها قد نجدها مجتمعة فيه، وسيتعين علينا أيضاً في كل وقت من الأوقات أن نشير إلى القصة القرآنية لأنه لا يمكننا النظر إلى القصة إلا بأنها قرآنية ولا يمكننا فصل هاتين الكلمتين عن بعضهما، ولذلك خصوصية مهمة، فهي قصة لها أهدافها التي ترجع إلى طبيعة الكتاب الكريم، - فهو كتاب دعوة، والقصص فيه كذلك وسيلة من وسائل الدعوة - وقد كان وما يزال الوجه الجمالي الأساسي للعربية وأدبها وعلومها، إذ "إن الحداثة الأدبية العربية، كامنة في النص القرآني بالأساس، وقد وضعت الدراسات القرآنية أسساً نقدية جديدة لدراسة النص، بل ابتكرت علماً جديداً للجمال، ممهدة بذلك لنشوء أدبية عربية جديدة."⁽¹⁾ وهذا ما نتطلع إلى إبرازه في هذه الدراسة.

(1) - البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر. دار الشروق للنشر والتوزيع. عمان. 2002. ط 1. ص 16.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

فقد حاكى " النقد الحديث في علاجه للقصة العصرية شيئاً من أسلوب القصة القرآنية، حيث إنه راعى في منهجه النقدي أن في عرض الشخصية عرضاً دقيقاً من الممكن أن يستشف جوانبها النفسية وأحوالها وعاداتها وما لها من ظلال وقيم، ولن يكون ذلك إلا برسم الشخصية القصصية رسماً محكماً يعرب عن حقيقتها إعراباً تاماً. فكان القرآن لعرضه لشخصياته نبراساً يستضيء به الكثير من الأدباء، وذلك لشيء إلا لإعجابهم بملاحمة التصويرية، وقوة عرضه المحكم." (1)

إذ إن القصة القرآنية اهتمت بالجوانب النفسية لشخصياتها بشكل كبير - كما سبق الحديث عن ذلك -، وإننا إذا تأملنا القصة العصرية الحديثة، رأينا أنها كثيراً ما تعنى بالتحليل النفسي لبعض الأبطال، " فكان جانب التحليل النفسي يطغى على بقية عناصر القصة أو الرواية، إلا أن هذا التحليل النفسي كثيراً ما رأيناه يقوم على تجسيد المعاني التي عكست نفسية البطل وما كان يعانيه من صراع مما لاحظناه عند بعض القصاصين من أمثال نجيب محفوظ الذي كان يعتمد كثيراً في توضيح معالم الشخصية بكثير من الأخيلة والأوصاف التي لها إيجاءات ورموز." (2) إلا أن القصص القرآني مع استشفافنا لملامح نفسيات شخصياته بكل يسر وسهولة، " فهو لم يعتمد في عرضه على جانب توضيحي

(1) - الجانب الفني في قصص القرآن الكريم. عمر باحاذق. دار المأمون للتراث. دمشق. بيروت. ط 1. 1993.

ص 126.

(2) - المرجع السابق. ص 127.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

خيالي إيحائي، إذ نستطيع أن نحلل النفسيات ونقف على معالم الأشخاص من غير أن يعطينا القرآن الكريم شيئاً عن الأساليب الابتكارية، والصور المطلية بالعبارات الخيالية، فحينما غضب موسى عليه السلام حين رأى قومه يعبدون العجل، ولام أخاه هارون في تركه لهم، نرى أن القرآن الكريم يعرب لنا عن نفسية موسى عليه السلام آنذاك وصنيعه تجاه قومه وأخيه هارون، من غير أن ينجح إلى رمز أو خيال، فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)﴾

ولا نستطيع ونحن نتناول القصص القرآني، إلا أن نضع القصة في سياقها الفني والجمالي، وننظر أوجه الاشتباه والاختلاف بينها وبين القصة القرآنية من الناحية الأدبية. فإذا قارنا القصة الأدبية والقصة القرآنية وجدنا أنهما لا تتفقان تماماً بعضها مع بعض، فالقصة القرآنية ليست خاطرة في ذهن الله، ولا هي حادث تأثرت به مخيلته، ولا هي توضيح لعاطفة اختلجت في صدره فأراد أن يعبر عنها بكلام ليحدث أثراً في نفوس القارئ مثل أثرها في نفسه (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً). لكن هذه الأسباب لا بد من توفرها في القصة الأدبية العادية حتى تحقق أعلى مستوى من الإمتاع والتأثر، على عكس القصة القرآنية. ومع أنه لا يمكننا وضع مقارنة بين القصص القرآني والقصص الأدبي على مستوى المرجعية، إلا أنه يمكن تناولهما من الناحية الأدبية المرتبطة بالجانب الفني والجمالي.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

الفرع الثالث: مفهوم القصص القرآني

تُعتبر القصة الوجه الجمالي للقرآن، بالإضافة إلى أنها " من بين الطرق التي سلكها القرآن من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره، في أجواء رائعة تتحول فيها العقيدة إلى قضية تمتزج بالإحساس والشعور، كما تنطلق فيها المشاعر الروحية في أجواء فكرية واسعة لئلا تعيش العقيدة جفاف الفكر، أو يستسلم الفكر لسذاجة العاطفة." (1) إنها تستثير كيانه قلباً وفكراً، وتدفعه إلى استشراف مكامن الجمال والجلال فيه.

وما القصة إلا غيض من فيض الإعجاز القرآني، " فيثبت لها ما يثبت لجميعه من إعجاز آياتها المشتملة على أسلوب القرآن التصويري المعجز، في وحدة فنية رائعة." (2) إذ يسري عليها ما يسري على سائر الخطاب القرآني.

لكنه أيضاً فن إبداعي قائم بذاته، " وهو أدب فني متكامل، لأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وربما عَنْ لِسَائِل أن يقول: أتى للجماهير البسيطة أن تستجيب للأدب الفني الكامل، وهي محدودة الوعي والإدراك، متخالفة الأذواق؟" (3). لكن الملاحظ أن معاني القرآن عامة تستجيب لحاجة كل متلق حسب استعداده وقابليته للفهم، " فالنصوص القرآنية تفصح عن إحياءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. سعيد عطية مطاوع. ص 35

(2) - المرجع السابق. ص 35.

(3) - المرجع نفسه. ص 35.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

حاجته الظاهرة فيه، إن الصورة الأدبية الفنية الكاملة يجد فيها كل ذوق ما يلائمه، ولكل امرئ ناحية يتأثر بها، ويستجيب لها، حسبما تعنيه ملكاته ومداركه. ⁽¹⁾ وفي هذا دلالة على أن الله سبحانه وتعالى لحكمته يريد لهذا الإنسان أن يظل فكره حياً نشيطاً ويبقى عقله في تدبر وتفكر دائمين.

وكما ذكرنا سابقاً فإن القصص القرآني يظل داخل هذا السياق العام للقرآن، يصطبغ بصبغته ويجري في نهر حكمته، وبذلك فلا يمكن تناوله كما نتناول القصص الإنساني، لأن له خاصيات متفردة عن غيره من القصص الأدبي، وذلك لأسباب عديدة سنأتي على ذكر بعض منها.

أولها اقترانه بالحق، فقد " اقترنت مادة " قصص " في القرآن الكريم بلفظ الحق ثلاث مرات، وذلك في أكثر من سياق لغوي يصف القصص بالحق، فقد ذكر في مركب وصفي في قوله تعالى " **﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾** " آل عمران 63، وورد في مركب إسنادي في قوله تعالى: " **﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَّا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾** " (57) الأنعام 57.

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. سعيد عطية مطاوع. ص 35

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

كما ورد في مركب شبيه بالجملة " الحق " وذلك في قوله تعالى: " **لَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ**

نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) الكهف 13، فلماذا اقترن

القصص القرآني بالحق في أكثر من صياغة تركيبية؟⁽¹⁾ لا بد أن نقف على هذا المفهوم

لأهميته في تناول القصة القرآنية، وحتى نبين أن ما نحن بصدد دراسته ليس خطاباً عادياً

نفهمه على هوانا أو نزيد فيه وننقص حسب ما وقع بين أيدينا من آليات تحليل الخطاب

الأدبية، وإن كانت تمس جوهره وحقيقته المطلقة.

والحقُّ لغة " نقيض الباطل.. وقد جاء في قوله تعالى: **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ**

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) يس. وحقُّه يحقُّه حقاً، وأحقُّه: أثبته وصار عنده حقاً لا يشك فيه،

وأحقُّه: صيِّره حقاً، وحققه وحقَّقه: صدَّقه. " (2)

كما أن له معانٍ كثيرة أخرى، " فحقَّ الشيءُ معناه وجب وجوباً، والحق كذلك:

القرآن الكريم، وحقَّ الأمر ثُبَّتَ، ويدل أيضاً على صدق الحديث، واليقين بعد الشك،

واصطلاحاً هو مطابقة الحكم للواقع. " (3)

(1) مفهوم القصص في القرآن الكريم. دراسة مصطلحية. سعيدة الرجاني. عالم الكتب الحديث. الأردن ط 1.

2019. ص 29.

(2) - لسان العرب. 49/10.

(3) - مفهوم القصص في القرآن. دراسة مصطلحية. ص 29

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ويمكننا أن نستخلص من خلال ما سبق أن " صفة الحق ملازمة لمفهوم القصص في القرآن الكريم، في مادته ووسيلته وخصائصه التي تميزه عن سائر أنواع القصص، فهو حق في مادته فيما ينبئ به من أخبار وأحداث عفا عنها الزمن، أو امتدت إليها يد آثمة بالتغيير والتبديل، وحق في وسيلته لأنه وحي إلهي منزّه عن أي عمل بشري، ﴿صِبْغَةَ

اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ البقرة 138.

ثانيها اقترانه بالعلم. " فقد ورد مفهوم القصص مقترنا بلفظ العلم في الآية الكريمة ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ الأعراف 7، وهذه السورة مكية موضوعها العقيدة، ويحتل القصص حيزاً مهماً في محتواها، فهي تتضمن عرضاً لقصص العديد من الأمم التي أهلكت بسبب إصرافها وكفرها بالرسالة، ابتداءً من قصة آدم ومروراً بقصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى. "(1)

ويقصد بالعلم في اللغة: أثر بالشيء يتميز به عن غيره، والعلم نقيض الجهل، والعلم إدراك الشيء بحقيقته. وفي الاصطلاح الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وهو إدراك الشيء على ما هو به. "(2)

(1) - مفهوم القصص في القرآن. دراسة مصطلحية. ص 39

(2) - المرجع السابق. ص 40.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ومن خلال ما ذكر نجد أن " وصف القصص بالعلم يدل على أنه يخرج به عن طبيعة القصص الأدبية عامة وهي القصص المبنية على الخيال، ويسمو بها إلى مكانة الحقيقة العلمية التي يحتاج إليها الإنسان في اكتساب معرفة يقينية. "(1)

وتبقى مسألة مهمة في هذا المفهوم، لا بد من الإشارة إليها، وهي: هل القصة بهذا المعنى المشار إليه، تحتل الحقيقة والخيال في طرحها، أم تكتفي بالصدق من الأحداث والوقائع؟ بما أننا أمام قصص قرآني فلا بد أن نميز في هذا الأمر حتى لا نقع في الخلط بين كلام الله والنص الإنساني.

إذا عدنا إلى أهل القرآن، نجد بأن الشيخ الشعراوي مثلاً يلتزم بالمعنى اللغوي لمادة " ق ص ص " ويؤكد على ارتباطها بالواقع فقط، حرصاً منه على عدم خلط الناس بين القصص القرآني والقصص الإنساني، إذ يقول: " إن كلمة قصة، يجب أن تطلق على واقع لا يتعداه القاص بخياله أو غيره أبداً، ويجب ألا تقال في أمر خيالي، ولا في أمر متوهم، ولا في أمر لا واقع له. "(2) لذلك لا يجب أن يتبادر إلى الذهن عند ذكر قصة ما هو مرتبط بالخيال والوهم، والشعراوي هنا يبيّن تعريفه على المعنى اللغوي الذي يقصد إلى تتبع الأثر أو حكاية حقيقية، " لكن الأمر هو أن الحقيقة اللغوية شيء، والمصطلح العلمي شيء آخر، فكلام الشعراوي يتوافق مع الحقيقة اللغوية، لكنها ليست كل أركان القضية،

(1) - مفهوم القصص في القرآن. دراسة مصطلحية. ص 44.

(2) - تصوير الفكر الديني في مسرح توفيق الحكيم. ص 12.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

وإلا اختلطت المعاني الاصطلاحية بالمعاني اللغوية في أمور عدة من الإسلام، وصار الحج مثلاً مجرد القصد - وهو المعنى اللغوي - إلى أي مكان، وصارت الصلاة مجرد الدعاء - وهو المعنى اللغوي - في أي وقت وبأي شكل.⁽¹⁾ وبتحديد الشعراوي، يمكننا القول إن القصة القرآنية قريبة من المعنى اللغوي، من حيث صدقها وواقعيتها، وفي المقابل توظف الناحية الفنية والجمالية في تبليغها وهو ما يعتمد عليه الجانب الاصطلاحي.

فالقصة القرآنية إذن شيء مختلف تماماً عن كل إبداع إنساني، وإن كانت تشترك معه في بعض الخصائص، " لأنها حديث من القرآن الكريم ينبئ عن آثار الغابرين، ويحكي أحداثاً ماضية من أجل العظة والاعتبار، وهذه الأنباء والأحداث لم تتلبس بشيء من التوهم والتخيل، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، وقد اشتملت على ما لم يشتمل عليه غيرها من القصص من الإثارة والتشويق وحسن العرض والتصوير، مع قيامها على الحقائق المطلقة."⁽²⁾ فهذا إذن ما يميز القصة القرآنية عن غيرها، ويمنحها ذلك التفرد الفني والجمالي، الذي لا يمكن للقصة العادية أن تبلغ القليل منه إلا ببذل جهد فكري وأدبي بالغ.

إن القرآن اتخذ القصة سبيلاً إلى التعبير الفني، "إذ لا يريد بها ضرب الأمثال ووعظ الخلق فحسب، ولكن يريد بها كذلك سبيلاً من سبل الأداء الفني في تحليل النفس

(1) - تصوير الفكر الديني في مسرح توفيق الحكيم.. ص 12.

(2) - من جماليات النظم القرآني. عبد الرحمن السلمي. ص 236.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

البشرية، وعقد مقارنة بين المثل والمُثل له، لذلك كانت قصص القرآن من أروع الفنون التعبيرية في اللغة العربية مهما اختلف الباحث في الهدف من هذا التعبير الفني،⁽¹⁾ فهي تحمل في طياتها مزيجاً من العلوم والآداب والفنون الإنسانية، من تاريخ واجتماع واقتصاد وفن وعلم نفس وغيرها من صنوف المعارف، كل ذلك في قالب جمالي بديع.

و هكذا نصل إلى أن الخطاب القرآني قد اتخذ من القصة وسيلة أساسية للتأثير الوجداني، لما لها من فاعلية و سطوة على روح الإنسان وعقله، والوصول به إلى الغاية الكبرى، وهي تحقيق الإسعاد البشري بتوحيد الله.

(1) - جمالية تصوير الحب في القصة الإسلامية في ضوء قصة يوسف. رضوان رشدي. رسالة دكتوراه. جامعة

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

المبحث الثاني: أصول الإعجاز في القصص القرآني

المطلب الأول: خصائص القصة الأدبية

إن القصة من منظور الثقافة العربية القديمة ليست وليدة الخيال أو الأسطورة، كما هو الشأن بالنسبة لمفهوم القصة في الثقافة الغربية القديمة، " فبالرجوع إلى جذور أنواع القصص الأوروبية في اللغتين اليونانية واللاتينية القديمتين، نجد أن الجذر الأصلي للقصص والحكايات والأخبار التاريخية المفروض فيها الصدق، ترجع إلى الكلمة اليونانية Historia، ومعناها خرافة، ومن كلمة Historia التي تدل في اليونانية على نوع من الخرافات المخمرة والمعقدة والتهويلية مما لا يستطيع أن يصاب بمثله العقل العربي"⁽¹⁾. لأن المفهوم عندهم فيه الكثير من المبالغة والخلق، وهو عكس ما كانت تقصد إليه القصة بالمفهوم العربي.

لذلك " فكل مخالفة للوضع اللغوي المتعارف عليه لمصطلح ما – كمصطلح القصة مثلاً- ونفي دلالة السياق التي ورد فيها، كفيل بحمله محملاً غريباً عن ذاته، واستخلاص نتائج خاطئة باسمه، وهذا مناف لسبيل أي تجديد لغوي أو أدبي منشود"⁽²⁾

(1) - جمالية تصوير الحب في القصة الإسلامية في ضوء قصة يوسف. ص 246.

(2) - المرجع السابق. ص 247

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

وبما أننا إزاء تناول نص قرآني مقدس، كان لا بد أن نشير إلى هذا الفارق في المرجعية المصطلحية للمفهوم حتى لا يقع اللبس، وبعد ذلك سوف نحاول بسط الحديث عن حدود تناوله، لا سيّما وأننا سنعيد قراءته قراءة فنية أدبية، " خصوصاً وأن النظريات النقدية الحديثة قد منحت للقارئ مجالاً أوسع للتدخل في قراءة النص الأدبي باستدعاء تأويلاته. "(1) فما هي هذه الحدود، وإلى أي مدى يمكننا الاستفادة من آليات تحليل النص الأدبي في دراستنا للقصة القرآنية؟ خصوصاً إذا علمنا أن " النص الأدبي يستمد مشروعيته من تعدد الإمكانات الدلالية لهذا النص وتفاوت القيم وتغيرها من قارئ لقارئ، ومن عصر لعصر. بعكس تأويل النص القرآني الذي يخضع لشروط ثابتة يحددها الشرع. "(2)

المطلب الثاني: خصائص القصة القرآنية

إن القصة نوع أدبي واحد من الأنواع الكثيرة التي يزخر بها القرآن الكريم من حوار وخطابة وأمثال.. وغيرها، إلا أن القصة القرآنية تتميز عن غيرها من القصص الأدبية الأخرى، لأن دراستنا ترتبط بهذه الخصوصية الدينية للقصة القرآنية التي جاءت أولاً لتحقيق هدف دعوي، فهي وسيلة من وسائل الدعوة وتدبر الأحداث وأخذ منها العبرة والموعظة، كما جاء في كتاب الله " فاقصص القصص لعلهم يتفكرون " الأعراف 176،

(1) - مفهوم القصص في القرآن الكريم. ص 4

(2) - المرجع السابق. ص 4.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (120) هود 120، ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

سورة يوسف 111.

وهي كذلك ليست مجرد سرد لما وقع للأقوام السابقة من أحداث، وإنما تبعث القصة الحياة في هذه الأحداث، فيتكشف ما وراءها من عبر وعظات تظهر صراع الخير مع الشر " فلا مجال للخيال أو للهزل فهي جدُّ محض، نعم تلوح أمارات البسمة وبسمات المرح والفرح من خلال أجوائها لكنها جادة في غايتها وهدفها جادة في وسائلها وطرائقها جادة في تناولها، وهي نعم تأخذ بخيال مستمعها إلى حيث الزمان والمكان البعيدين، ولكنها واقعية كل الواقعية، حقيقية كل الحقيقة، لا يداخلها الكذب أو الزور ولا تقارف هي الافك أو البهتان".⁽¹⁾ فهي مبنية على الحق والبرهان "ولا يعني ارتكاز القصة حول هذه الموضوعات انعدام الجانب الفني فيها، فإن القصة القرآنية تعتبر قمة في الجمال الفني برغم قلة الألفاظ المستخدمة في أدائها، حافلة بكل أنواع التعبير والعناصر الفنية من حوار إلى تنغيم موسيقي إلى إحياء للشخص.. إلى دقة في رسم الملامح، أدركنا مدى سحر هذا الإعجاز الفني الناشئ عن القصة القرآنية"⁽²⁾. ويمكننا القول بأنها " أول قصة

(1) - قصص القرآن في مواجهة الرواية والمسرح. أحمد موسى سالم. دار الجليل. بيروت. ص 211.

(2) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني. أحمد جمال العمري. مكتبة الخانجي. ط 1. القاهرة. 1986.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ملتزمة عرفها الأدب العربي، وذلك بما تهدف إليه من دعوة إلى التوحيد، وتحث عليه من خلق قويم، وفي القرآن إشارات تحدد دورها الأخلاقي، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهْ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

وإذا تأملنا إلى الأسلوب الذي قدمت به القصة وماله من تأثير نفسي وفني، " اتضح وجه تسميتها ب القصة، لا استنادا إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ "قصة" يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام والنبأ، أو تتبع الأثر وتقصيه، بل اعتمادا على ما في عرضها من طرق فنية وجمالية." (1) إذ في دراستنا هذه لا نستطيع فصل كلمة "قرآنية" عن "القصة".

إن النص القرآني " يُودع جزءا غير قليل من أسرار الجمالية في لغته الفذة التي فجرت القدرات التعبيرية في الكلمات، وقدمت الصور الفنية من خلال التجسيد والتخييل، كما لو كانت حية معيشة، وبنت عمرانها الجمالي على تقطيع الأصوات وجرس

(1) سيكولوجية القصة في القرآن. التهامي نفرة. الشركة التونسية للنشر والتوزيع. ط 1. 1974. تونس. ص 85.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

الأحرف وإيقاع الكلمات." (1) وهذا الأمر يسري على القصة القرآنية أيضاً، إذ يبقى الخطاب القصصي من " أهم الفعاليات التواصلية في التأثير على النفوس، فهو يشكل عاملاً مهماً في إنجاح أية دعوة من الدعوات التي يراد بثها وإبلاغها للمخاطبين، ولقد استخدم القرآن الكريم أسلوب القصة في كثير من المواقف بوصفه أداة من أدوات التبليغ، التي يناط بها التبصر بمبادئ الدعوة، والكشف عن مقاصدها في نفوس المخاطبين " (2) في أسلوب أخذ يبعث الفكر والقلب على التذكر والتدبر واستخلاص العبر، والاستفادة من أخبار السابقين، " لذلك تبقى وضعية القصة في القرآن الكريم غير مألوفة في جميع الثقافات، وعلى خلاف ما عرفناه في السرديات السابقة عليه ذات الأصول السماوية، أو ذات الأصول الوضعية، فهو يشكل نسيجاً متفرداً، غير متأثر بغيره، ومع ذلك حقق كل ما يمكن أن يتوخاه أي فعل سردي من تواصل هادف، بل استطاع بمزجه للأحداث والوقائع والشخصيات مع المواضيع الأساسية التي يهدف الخطاب القرآني إلى توصيلها، أن يهيئ الأسباب النفسية والأجواء الفكرية والأسس العقلية كي ينفع المتلقي بالأحداث، ويتفاعل معها، ويراهها أمامه مصورة رغم تفرقها،

(1) - جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. ص 18.

(2) - جماليات الخطاب القرآني. ص 133

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

فيعيشها مشاهد حية ناطقة على مستوى الكتابة ⁽¹⁾. متجسداً بشكل واضح ومتقن، يتعذر على غيره من الخطابات مجاراته، لكنه يستطيع محاكاته على المستوى الفني والأدبي

والقصص القرآني " بوصفه أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب لمنهج متميز في قص القصص باللغة العربية، تكفي للكشف عن الفرق الهائل بينه وبين قصص الشعوب واللغات الأخرى والأساطير والروايات والمسرحيات. " ⁽²⁾

بالإضافة إلى ذلك فإن خصوصية النص القرآني في بعده الجمالي الحاضر في كل زمان ومكان " إذ يمزج البعد الجمالي بالبعد التواصل لتوصيل المفاهيم إلى النفس أسرع على كل شفرات لغوية، وإن هذا الجمال يتجلى في المقام الأول في نظامه اللغوي الذي يقوم على غير مثال، وهو على تصرف وجوهه، وتباين مذهبه، خارج عن المعهود من نظام الجميع، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يتميز به في تصرفه عن أساليب الكلام. " ⁽³⁾

إلى جانب ذلك اشتماله - على صغر حجمه مقارنة بكتب التاريخ وأخبار الأقوام وغيره من سائر الكتب - على ما لا يعد ولا يحصى من أنواع العلوم والمعارف، يقول ﷺ: " ﷻ

(1) - جماليات الخطاب القرآني. ص 134

(2) - قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح. أحمد موسى سالم. دار الجيل. بيروت. ص 211.

(3) - جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني. صالح ملا عمر. ص 17

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

مَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴿١﴾، أن نقلب صفحات التاريخ ونقرأ أخبار الماضي، فهذا شيء مفيد ندرك به كثيراً مما قد سلف، ونتعلم منه تجربة لما قد يحدث، ولكن ذلك يقتضينا العديد من المؤلفات وكتب التاريخ، أما أن نقلب صفحات الزمن، ونقع على كثير مما حدث ووقع منذ بدء الخلق، وضمن كتاب واحد، فهذا إعجاز بذاته في القرآن الكريم.⁽¹⁾ وقد جمع كل هذا في قصصه، وكانت هذه القصص جامعة مانعة، مزوجة بين الهدف الدعوي والجمالي، إذ إن الجمال هو وسيلة إلى معرفة الحق عز وجل.

وإن هذا الإعجاز القرآني " ليس آتيا من حيث إنه احتوى أروع القصص وأحسنها لبلوغه النهاية في الفصاحة وحسن المعاني وعذوبة الألفاظ، مع التلاؤم المنافي للتنافر، والتشاكل بين المقاطع والفواصل وحسب، بل ولأنه قد أتى على ذكر الأمم الماضية، وأخبار الكائنات، وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة من المعارف والمنافع، بأعذب لفظ وتهذيب، وفي أحسن نظم وترتيب، وهذه القصص القرآنية تتضمن من الإعلام والدلائل، والمعارف واللطائف، والمواعظ والعبر، مالا تتضمنه قصص العالم بأسره، بحيث لو تتبعنا ما جرى في هذه القصص من أحداث ووقائع، وما تحللها من حوار ونقاش، وما تضمنته من ظروف وملابسات، لوجدت أن الله سبحانه أراد أن يعطيك الصورة الإنسانية الكاملة، مختاراً ثلة من عباده الصالحين.⁽²⁾ وهذا الأمر يأتي بتطور

(1) - قصص الأنبياء في القرآن. سميح عاطف الزين. ص 12.

(2) - المرجع السابق ص 12 . 13.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

وتدرج متناسقين، " حابكا ما جرى معهم خلال عصور متباعدة بنسج بلاغي فريد، مخرجا للبشرية دقائق الأحداث التي كان لها الأثر الكبير على استمرارية الوجود الإنساني بأسمى القصص وأروعها وأحسنها." ⁽¹⁾ بطريقة يستحيل أن يأتي بها قلم كاتب أو أديب، أو حتى يقترب منها.

ويبدو بأن هذا القصص القرآني " تطور تاريخيا في أكثر من ظاهرة علمية من حيث تاريخ المعارف الإنسانية عن طريق النبوءات، وتاريخ التشريع الإنساني عن طريق الرسالات." ⁽²⁾ بالإضافة إلى أشكال أخرى من التطور ما زالت تنتظر من يسبر غورها، ويستكشف أسرارها.

فالقصاص القرآني إذن يحمل خصائصه الجمالية في توليفة تمزج الغاية الدعوية بالوسيلة الفنية، في صدق تام وحقيقة مطلقة، بغرض تحقيق التأثير المطلوب، وتحريك الوجدان وإعمال الفكر الإنساني.

(1) - قصص الأنبياء في القرآن.. ص 12.

(2) - الكتاب والقرآن. رؤية جديدة. محمد شحرور. ص 160.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

المطلب الثالث: الخصائص الفنية للقصة القرآنية

وردت المادة القصصية في القرآن الكريم مبثوثة على طول مساحته، في أغلب سورته، الأمر الذي يجعل المتلقي يتفاعل بشكل مستمر، بما "تتضمنه من رؤى ومضامين حول مجموعة من التجليات الموجودة في الكون والوجود والحياة والإنسان والغيب والشهادة، وذلك بتقديمها لجوانب مختلفة ومتنوعة من حياة الأنبياء عليهم السلام والأمم السابقة، وتفعيل تجربتها الإنسانية عبر ثنائية الكفر والإيمان، وقد توزعت هذه المادة بهيئة هندسية فنية متفردة، وإيقاع منسجم مع سياق ومكونات السور التي وردت فيها.⁽¹⁾ فهي حاضرة بقوة وبكثرة لأهميتها وضرورتها الدعوية والجمالية " فهذه المادة القصصية لا تقوم فقط إلى جانب دورها البياني بدور الربط والمقارنة بين مواقف متعددة، بل تبدو كأنها النسيج الفني المحكم لقصة واحدة، تصل غايتها حين يتخلى الإنسان، كل إنسان في كل زمان ومكان عن عناده وإصراره ويؤمن.⁽²⁾ فهي تخدم هدفين أساسيين داخل الخطاب القرآني، وتبني ترابطاً واتساقاً تاماً بينهما " فالمادة القصصية تعلن عن حضورها وديمومتها، من خلال بناء تصور فكري ومعرفي وجمالي، يسعى لاستكمال حلقات الاستنباط المتجدد للأحكام الفقهية والتشريعية والقيم الإنسانية، فضلاً عن تليبيتها

(1) - بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي. سعاد ناصر. مجلة كتاب الأمة. ع169. ط1. 2015. قطر.

ص36.

(2) - المرجع السابق. ص39

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

لاحتياجات نفسية وتربوية وجمالية عميقة." (1) فهي تتميز بسمات وخصائص جمالية عديدة، يتصل بعضها ببعض في انسجام وتماسك، كالكثرة والتكرار والإبداع، وسنحاول التفصيل في ذلك فيما سيلحق.

الإبداع

كلمة الإبداع مشتقة من فعل " بَدَعَ " وتأتي على صفة الإكثار والمبالغة، " بدع الشيء: أنشأه وبدأه، والبديع: المحدث العجيب، وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال، والبديع من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها.. وإبداع: أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منه" (2). فهو الشيء المبتكر الذي لم يسبق إليه أحد

و قد تحدث القرآن الكريم عن مادة الإبداع في أكثر من آية، " ففي سورة الأنعام

يقول تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنِّي بِكَوْنِ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ۖ وَخَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ (الأنعام 101)، ومعناه مبدعها على غير مثال سابق. وفي

سورة الأحقاف: " ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ ﴾ (الآية

9)، ومدلولها كما ذهب إليه كثير من المفسرين: ما أنا بأول رسول، وقد بعث الله قبلي كثيرا

(1) — — بلاغة القصص في القرآن الكريم وآفاق التلقي. سعاد ناصر. ص 37.

(2) — لسان العرب. ابن منظور. ص 352. 353.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

من الرسل. ومعنى هذا أن كلمة " بدع " تفيد المثال الذي لا يوجد على نمط سابق، فهو مثال فريد. ⁽¹⁾ "أي أنني لست بأول رسول، بل سبقني كثير.

وجاءت كلمة بديع في الحديث الشريف " تهامة كبديع العسل، حلوه أوله حلوه آخره. " شبه تهامة ببديع العسل لطيب هوائها، فهو لا يتغير كما لا يتغير العسل، وهنا نلمس معنى جديداً لكلمة بديع، وهي الحسن والصفاء والحلاوة والجمال كبديع العسل. ⁽²⁾ "والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً. ⁽³⁾ "فالبديع الذي لا مثال له، ولم يسبق إليه أحد ولم يخطر على بال. إضافة إلى أن البديع هو كل ما اتصف بالحسن والجمال، وهذا ما خُصّت به القصة القرآنية وهو ما يسري على الخطاب القرآني كله.

وكما ذكرنا فإن عملية الإبداع كان لا بد لها أن تظهر جلية في كتاب الله وقصص القرآن، وقد "وصل هذا الأخير إلى قمة الإبداع الذي لا إبداع بعده، وقمة الحسن الذي يتضاءل أمامه كل شيء حادث في الحياة، فهو لا يقارن بغيره، ولا يوصف بشيء من باب المقارنة أمام أي إنتاج بشري، فهو إبداع السموات والجمال علوي، ومعجزة لا يقدر عليها بشر، فضلاً عن أن يحاكيه أي فنان عرف في عالمه المادي بالمبدع. ⁽⁴⁾ "وهذا لا يمنع طبعاً

(1) - الجانب الفني في قصص القرآن الكريم. عمر باحاذق. دار المأمون للتراث. دمشق. بيروت. ط 1. 1993.

(2) - المرجع السابق. ص 14.

(3) - الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني. عبد العال سالم مكرم. مؤسسة الرسالة. ط 1. 1996. ص 68. ص 70.

(4) - الجانب الفني في القصص القرآني. ص 18.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

من التأثير بأسلوبه والاستلهام من طرقه الفنية في التعبير والكتابة والإبداع، فهو دستور حياة وملهم لكل الناس وأهم مصدر لغوي وأدبي للعرب خاصة والمسلمين عامة.

المطلب الثالث: الخصائص الأسلوبية في القصة

الإيجاز والإطناب

تميز الأسلوب القرآني بالتفرد والإبداع الذي لم يسبق إليه أحد، " وإن جودة أسلوب القرآن هي مظهر إبداعه، وقوة تأثيره في البيئة التي نزل فيها وفي نفوس أصحاب الذوق البياني ممن حذق العربية وسبر أغوارها، وتوقف عند أسرارها. "(1) ولهذا الأسلوب وجوه متعددة ومتنوعة تستعصي على الإلمام بها، وكشف جوانبها المتشعبة والمتداخلة، لكننا سنحاول الوقوف على بعضها.

لقد حدد أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية مفهوم الإيجاز بشكل واضح حين قال: "هو أن يُبنى الكلام على قلة اللفظ وكثرة المعاني"(2) ونجد أن هذا التحديد مناسب تماماً لمعاني الخطاب القرآني وأليق بها، ويقابله العسكري بمعنى الإطناب وهو أيضاً أسلوب فني قرآني فيصفه بأنه " بسط الكلام لتكثير الفائدة، وهو بلاغة"(3). وقد تميز القصص القرآني عموماً في أوائل الدعوة " إلى سرد أحداث القصة بإيجاز شديد، وبالفواصل القصيرة، والجرس اللفظي، والاقتصار على ذكر من نزل عليهم العذاب، دون التعرض غالباً إلى أسماء أنبيائهم، وما دار بينهم من حوار، لأن الغرض الأول في هذه المرحلة

(1) - القصة القرآنية مفهوماً وأسلوباً. ص 59.

(2) - الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. ص 40

(3) - المرجع نفسه. ص 40

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

يتمثل في تحذير مشركي مكة وتخويفهم أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم من المكذبين،

﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأَوْنَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ

رَبُّكَ سَوَاطِ أَعْدَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾ سورة الفجر (الآيات 10-14)، فمن

يتلو هذه الآيات القصيرة السريعة المتسقة الفواصل، ذات الرنين الصوتي المنغم، يحس

مالها من تأثير، ومن قوة وعنف، لأنها تتجه إلى الإرهاب والإثارة. ⁽¹⁾ وتتابع المقاطع، "

فلا تكاد تنتهي قصة مع ما تركت من تأثير في نفس سامعها حتى تبدأ قصة أخرى في

نفس السياق الأول، وهذه طريقة من طرق قص القرآن، تأخذ السامعين من جميع

أقطارهم، كما تأخذهم من كل مكان ريح عاصفة، فلا يجدون منها مهرباً، ولا يرون

لأنفسهم عنها مصرفاً، وتصب عليهم العظات والمثلثات، حتى تقطع عليهم طريق

الجدال والحجاج، فلا يجدون من الوقت ولا من القوة ما يتيح لهم رجع الجواب. ⁽²⁾ أما

في المرحلة التالية عندما تطورت الدعوة وانتشرت وصار للمسلمين حضور قوي في

مجتمعهم وأصبح من غير المسلمين من يريد أن يعرف ويفهم هذا الدين، بدأ يبرز عنصر

مهم في القصص القرآني وهو الحوار، فبدأت " تظهر أسماء الرسل وهم يحاورون

(1) - التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ص 34.

(2) - سيكولوجية القصة في القرآن الكريم. ص 92.

الباب الثاني.....الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

أقوامهم، وتمضي القصة في أناة ومهل، تصور الحياة وتعبر عن الشخصية، فتكون أكثر تبسطاً وتفصيلاً. ⁽¹⁾

ونضرب مثالا لذلك قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون في سورة " طه "، التي نزلت بعد سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء، التي كان محورها حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر، وتحمل ما تلاه من إعراض قومه، وتأسيا بما كان من ثبات موسى عليه السلام وصبره أمام فرعون وملئه.

وقد احتلت بعض الأحداث في القصة حيزاً أكبر من غيرها، كواقعة تكليم الله لموسى، والمواجهة التي صارت بين السحرة وموسى عليه السلام، وقد وردتا بشكل مفصل لأن السياق تطلب ذلك، فجاءت أنسا وطمأننة لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأيضا مواساة له من أجل حثه على الصبر، وتحمل ما تلاه من إعراض قومه، وتأسيا بما كان من ثبات موسى عليه السلام وصبره أمام فرعون وملئه. لذلك تطلبت الإطناب في أحداثها، في مقابل إيجاز أحداث أخرى كانت الإشارة إليها ضرورية لكنها لا تتطلب التفصيل. كحادثة قتل موسى للفرعوني، وقصة مدين وما كان فيها من أحداث مختلفة، أشارت إليها سورة طه إشارة سريعة.

(1) – سيكولوجية القصة في القرآن الكريم. ص 92.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

فإذا تناولنا حدث " تكليم الله موسى "، نجد بأن الحدث حظي بثلاث عشرة آية وهي

الآيات من 11 إلى 23، ﴿طه١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ۚ ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۚ ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۚ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۚ ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۚ ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۚ ﴿٨﴾ وَهَلْ آتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى الْبَارِ هُدًى ۖ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَبْنَهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقِهَا فَإِذَا هِيَ حِتَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ

- آية أخرى ﴿٢٢﴾ لِّزُيْكِكَ مِن - آيتنا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ . النازعات 16.

وسوف نتناول هذا الأمر لاحقاً بالدراسة والتحليل لأهميته.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

ونجد أن حدثاً آخر في القصة نفسها، وهو ما يمكن أن نسميه " تكليف الله لموسى " قد انحصر في آيات ثلاث في سورة النازعات، وهي الآيات 17-19: ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقَالَ لَئِكَ إِلَٰهٌ أَن تَرْكِبَ ۚ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ۚ ۝ ١٩ ﴾ في حين حظي الحدث نفسه بأربع وعشرين آية من آيات سورة طه، وهي الآيات 24-48 ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ قَالَ رَبِّ بِشَرِّ لِي صَدْرِي ۖ ۝ ٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ ۝ ٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ ۝ ٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ ۝ ٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ ۝ ٢٩ هَٰزُونَ أَجْنِي ۖ ۝ ٣٠ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ۖ ۝ ٣١ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ۖ ۝ ٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۖ ۝ ٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ ۝ ٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ ۝ ٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ ۖ ۝ ٣٦ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۖ ۝ ٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ ۝ ٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۖ ۝ ٣٩ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۖ ۝ ٤٠ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ ۝ ٤١ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۖ ۝ ٤٢ وَنَفَسَا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۖ فَلَبِثْتَ سِتِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يٰمُوسَىٰ ۖ ۝ ٤٣ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۖ ۝ ٤٤ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَنِيَا فِي ذِكْرِي ۖ ۝ ٤٥ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ۝ ٤٦ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ ۖ ۝ ٤٧ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ ۝ ٤٨ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۖ ۝ ٤٩ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۖ ۝ ٥٠ فَإِنِّيهِ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾ وكذلك نلاحظ أن حدث محاورة موسى لفرعون ودعوته، والذي انحصر في آيتين فحسب من آيات سورة النازعات، نجده قد استحوذ على عشر آيات في سورة طه، وهي الآيات:

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ۞

والأمر نفسه مع حدث " جمع السحرة " حيث اختصر في سورة النازعات بآية واحدة، بل بعبارة واحدة وهي " حشر " في الآية 23 من السورة ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ۞ ﴾ في حين تمدد هذا الحدث في سورة طه فاستحوذ على ست عشرة آية هي الآيات 60-76.

(1) مستويات التحليل الأسلوبي. مرتضى شرارة. عالم الكتب الحديث. ط1. الأردن. 2014. ص23.

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۖ ٦٠ ﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَٰتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ ٦١ ﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ۖ ٦٢ ﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذِهِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ۖ ٦٣ ﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۖ ٦٤ ﴾

﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ الْفَىٰ ۖ ٦٥ ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ ۖ ٦٦ ﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ۖ ٦٧ ﴾ قُلْنَا لَا تَخَفِ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۖ ٦٨ ﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۖ ٦٩ ﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۖ ٧٠ ﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَابَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۖ ٧١ ﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ۖ ٧٢ ﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ۖ ٧٣ ﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ ٧٤ ﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ ٧٥ ﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۖ ٧٦ ﴾

وحين نأتي إلى حدث إهلاك فرعون وجنوده بالإغراق، سنجد آية واحدة فحسب " في سورة النازعات أشارت إلى هذا الحدث إشارة شديدة التكثيف، حيث لم تذكر الآية كيفية الإهلاك، بل عبرت عنه بـ " الأخذ " وبينت علة هذا الأخذ بترميز احتاج من المفسرين أن يقفوا عنده متأملين، حين قال الله تعالى في الآية الخامسة والعشرين من

الباب الثاني..... الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص

السورة: " فأخذه الله نكال الآخرة والأولى "، في الوقت الذي نجد فيه أن سورة طه أوضحت نهاية فرعون وبعض تفاصيل إهلاكه في آيتين هما: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ إِسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ﴾ (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79) ﴿⁽¹⁾ فاتضح في الآيتين أن فرعون قد تبع موسى وقومه نحو البحر، ثم أغرقه الله ﷻ. وإن كان العقاب نفسه، إلا أنه عبر عنه بطريقتين مختلفتين حسب ما يقتضيه سياق القصة.

إذن فالإيجاز أو الإطناب الذي جاء في بعض أحداث القصة أتى ليعمل الغرض والهدف الرئيس للقصة، دون أن يؤثر ذلك على الجانب الجمالي ودوره الأساس من أجل بلوغ غاية التأثير والتبليغ.

(1) مستويات التحليل الأسلوبي. مرتضى شرارة. ص 23، 24.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من

خلال قصص: سورة " طه "

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المبحث الأول: جمالية الورد ومركزية الحركية لدى الشخصيات من خلال أحداث القصة.

المطلب الأول: جمالية ورد قصص "طه" ذاتا وخصائص.

الفرع الأول: جمالية الذات لقصص سورة "طه"

1. دلالات السورة ومحاورها:

أ- أما اسم السورة: التي نحن بصدد دراستها فهو: (طه)، "وهو مطلع رخي يبدأ بالحروف المقطعة "طا"، "ها"، للتنبيه إلى أن هذه السورة، كهذا القرآن مؤلفة من مثل هذه الحروف، ويختار هنا حرفان يتتهيان بإيقاع كإيقاع السورة، ويقصران ولا يمدان لتنسيق الإيقاع كذلك." (1)

وقد سميت بهذين الحرفين "ط" و"ه"، وهي من بين سور عدة سميت ببداية حروفها، مثل: (يس)، و(ص)، و(ق).. وهي تقع في الجزء السادس من القرآن الكريم، وترتيبها 20 بين السور، عدد آياتها 135.

وذكر السيوطي: أنها تُسمّى سورة "الكليم" لأن قصة موسى عليه السلام قد بُسّطت في هذه السورة، فقد تناولت أحداثاً تتعلق بموسى عليه السلام من ميلاده إلى خروجه مهاجراً إلى

(1) في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. م. 1. ط 32. 2003. القاهرة. ص 2328

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

مدين هاربًا من بطش فرعون وملئه، ثم عودته إلى فرعون والمواجهة بينه وبين السحرة، وانتصاره عليهم، وخروجه ببني إسرائيل وإهلاك فرعون وجنده.⁽¹⁾

وتسميتها بـ "طه" لما لهذين الحرفين من معنى النداء للنبي ﷺ، فقد جاء في تفسير الطبري أن "طه" بالنبطية: "يا رجل"⁽²⁾.

وقد اختلف العلماء في معناه، فقال الصديق رحمته الله: هو من الأسرار، ذكره الغزنوي، ابن عباس معناه: يا رجل، ذكره البيهقي.

وقيل إنها لغة في عكل، قال الكلبي: لو قلت في عك لرجل: يا رجل، لم يجب حتى تقول "طه"، وأنشد الطبري في ذلك فقال:

[الطويل]

دَعَوْتُ بِطَهَ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ فَخِفْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُوَائِلًا

الموائل: الطالب النجاة.⁽³⁾

(1) الإنثان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر. جلال الدين السيوطي. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط 1 1974 م ج 1. ص 157.

(2) تفسير الطبري. جامع البيان. عن تأويل آي القرآن. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: أحمد عبد الرزاق البكري - محمد عادل محمد - محمد عبد اللطيف خلف. ج 16. ص 80.

(3) "الجامع لأحكام القرآن". ص 8.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

والصحيح أنها إن وجدت في لغة أخرى، فإنها من لغة العرب كما ذكرنا، وأنها لغة يمنية في عك وطيء وعكل.

وقيل: " هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به، وهذا أيضا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه. وقيل هو اسم للسورة ومفتاح لها، وقيل إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه. وقيل هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا ⁽¹⁾. وذكر الطبري في تفسيره قال: طه، قال: بالنبطية: يا رجل ⁽²⁾.

وذكر أيضا قال: عن عكرمة في قوله: " طه " قال: هي بالنبطية: يا إنسان ⁽³⁾.

وقال آخرون هي حروف مقطعة، يدل كل حرف منها على معنى، واختلفوا في ذلك اختلافهم في ألم ⁽⁴⁾، " ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة، جاءتا في مواضع آخر، لا نزاع فيها أنها من الحروف المقطعة، أما الطاء ففي فاتحة الشعراء (طسم)، وفاتحة النمل (طس) وفاتحة القصص، وأما الهاء ففي فاتحة مريم (كهيعص)،

⁽¹⁾ الجامع لأحكام القرآن. ص 9.

⁽²⁾ تفسير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. ت: عبد الله التركي. بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية. هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ط 1. 2001. مصر. القاهرة. ص 5.

⁽³⁾ المصدر السابق. ص 6.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه. ص 7.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وهذا ما رجحه الشنقيطي. ولا يمنع أن تكون " يا رجل " كما ذكر سابقا، لما صح من حديث ابن جبير والذي ذكره الطبري في جامعه.⁽¹⁾

وذكر القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن قال: " عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن، قالت: طوبى لأمة ينزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل، وطوبى لألسنة تتكلم بهذا "⁽²⁾.

قال ابن فورك: معنى قوله: " إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس، أي أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة في ذلك الوقت، والعرب تقول: قرأت الشيء إذا تتبعته، فعلى هذا يكون الكلام سائغا، وقراءته: إسماعه وإفهامه بعبارات يخلقها وكتابتها يحدثها. "⁽³⁾

إن علماء القرآن ومفسريه مجمعون على أن طه من القرآن المكي، وإن كان بعضهم يستثني الأخيرتين منها، ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ﴾

(1) تفسير سورة طه تفسيرا موضوعيا. ص 12.

(2) الجامع لأحكام القرآن. والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان. القرطبي. ت: عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة. ط 1. 2006. بيروت لبنان. 7 / 14.

(3) المصدر السابق. ص 7.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ (1). وقال: سورة طه مكية في قول الجميع، نزلت قبل إسلام عمر (2).

وذكر في الإتقان عن السخاوي أنها تسمى أيضا "سورة الكليم"، وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى "سورة موسى" (3).

أ- محاور السورة

وتبتدئ السورة بتوجيه الخطاب من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقيه به، أو ليشق عليه، أو ليكلفه فوق طاقته، بل هو استمداد للقوة والطمأنينة والشعور بالرضى والسعادة، وليذكر به من تخشى قلوبهم الحق وتستعد لسماع كلمته والإيمان به، والله سبحانه وتعالى هو الحق وخالق هذا الكون أرضه وسماؤه وما بينهما وصاحب الأسماء الحسنى.

ثم ينتقل الحق سبحانه ليقص على رسوله محمد ﷺ حديث موسى وما دار بينهما، ليقدم له نموذجا للذين اختارهم برعايته، وكلفهم بتبليغ رسالته، وما لحقهم من الأذى والابتلاء فصبروا على ما أصابهم حتى ظفروا وانتصروا على الباطل. ويسوق له مثالا

(1) "سورة طه. دراسة أسلوبية لغوية مقارنة" إبراهيم عوض. الطائف. 1993. ص 5.

(2) الجامع لأحكام القرآن. ص 6.

(3) -التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. 179/16.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

لنبيه موسى، فيرويها له بواقعية بأسلوب الحوار الذي يجعله بينه سبحانه وبين نبيه موسى، ويسأله سبحانه عن عصاه وماذا يفعل بها؟ فيجيبه موسى أنه يستعملها في رعي غنمه، ويتوكأ عليها، فيأمره الله تعالى بإلقائها، لتبدي لموسى عليه السلام معجزة أخرى، إذ يُصَيِّرُ الله سبحانه وتعالى عصاه إلى حية ضخمة، ويرتعب موسى حينها من هول ما يرى، لكن الله تعالى يطمئنه ويطلب منه طلبا آخر، أن يضم يده إلى إبطه أو تحت ذراعه، لتخرج بيضاء ناصعة، وهاتان معجزتان أراد الله سبحانه وتعالى أن يشهد عليهما موسى بنفسه حتى يزداد يقينا وثباتا، ويتهيأ للمهمة الجليلة التي تنتظره، أن يبعثه الله في فرعون الطاغية المتجبر الذي يدعي الألوهية، ويستضعف بني إسرائيل، ويتفنن في تعذيبهم والتنكيل بهم، خوفا من أن يكونوا سببا بذهاب ملكه. فيطلب موسى التوفيق والمدد من الله تعالى ويسأله أن يشد أزره بأخيه هارون، ويكون له ما طلب، إكراما له، ويمضي إلى فرعون مع أخيه برسالة التوحيد، وهو يعلم قوته وجبروته، وعدم تورّعه عن قتله.

ويذكره سبحانه بمحنة أمّه عندما أمرها سبحانه أن تقذف رضيعها في اليمّ، وكيف تلقّته العناية الإلهية ووصلت به إلى بر الأمان، لينشأ في بيت عدوّه فرعون وآله، وتلك إشارة منه سبحانه إلى أنه يحرسه ويرعاه، وأنه قادر على حفظه ولو كان بين يدي أعتى الجبابرة، وإنه كما حفظه في المحنة الأولى، سيحفظه ويؤيده في الثانية.

وينطلق موسى وهارون بعد ذلك إلى فرعون ينصحه باللين والحسنى أن يطلق سراح بني إسرائيل، ويكف أذاه عنهم، ويدعوانه إلى عبادة الله الواحد الأحد. ولكن

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فرعون يأبى ذلك كله ويستعزى بدعوتها وبآيات موسى، فينتهي الأمر بالاتفاق على يوم يجتمع فيه الناس وقت الضحى أول النهار ليشهدوا التحدي بين الكفر والإيمان، بين موسى وسحرة فرعون.

ويلتقي الجمعان ويلقي السحرة حبالهم وعصيهم، فإذا بعصى موسى تلقف ما ألقوا في مشهد عظيم مهيب، وينقلب السحرة على فرعون، مؤمنين بالله ساجدين لعظمته، بعدما عرفوا من الحق، غير آبهين بتهديد فرعون لهم بتعذيبهم والنيل منهم.

ويأتي بعد ذلك مشهد من المشاهد العظيمة في السورة وهو شق البحر وعبور موسى ومن معه من بني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده بعدما تبعوهم.

لكن بني إسرائيل - كعادتهم - سيجحدون نعمة الله عليهم ويلتفتون إلى عبادة عجل ذهبي، صنعه رجل من بني إسرائيل يقال له السامري، مستغلا غياب موسى للقاء ربه وتلقي ألواح الوحي.. ويرجع موسى إليهم بعد ذلك غاضبا منهم لما بدلوا نعمة الإيمان كفرا وبها أشركوا.

ثم يتحول الخطاب في السورة - بعد هذه القصة وهذه المشاهد - إلى النبي الكريم، منبئا إياه أن الإعراض عن ذكر الله شقاوة وعذاب لصاحبه في الدنيا والآخرة.

وتنتقل أحداث السورة إلى قصة آدم وإبليس في إيجاز وتحذير ألا يتبع الإنسان طريق الشيطان فيشقى.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ويتحول بعد ذلك للحديث عن قوم الرسول ﷺ، وكيف أنهم كفروا بما أنزل إليه، وعدم اتعاضهم بمصائر من سبقهم من الأمم بسبب تكذيبهم.

ويختتم خطاب السورة بطمأنة النبي الكريم ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه، والاعتصام بذكر الله والتسبيح، وبعدم الالتفات إلى متاع الدنيا.

ح - محاور السورة الأساسية:

لقد اشتملت السورة على محاور ونقط أساسية، لابد من الإشارة إلى أهمها، وهي:

أ- القرآن مصدر سعادة الإنسان، وقد أنزله سبحانه على نبيه ليسعد به وتسعد به البشرية، وتعيش في كنف توجيهاته وتعاليمه.

ب- " التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتحتها. "(1)

ج- " التنويه بعظمة الله تعالى، وإثبات رسالة محمد ﷺ، بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس، فضرِب المثل لنزول القرآن على محمد ﷺ. "(2)

د- قصة موسى مع فرعون، وفيها إشارات ربانية جليلة أهمها:

(1) - تفسير التحرير والتنوير. بن عاشور. ص 182

(2) - المرجع نفسه. ص 182

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

1 - أن موسى عليه السلام في موقفه والظروف المحيطة به، مثل الإنسان بضعفه وعجزه وحاجته إلى مدد الله وعونه وهدايته.

2 - انتصار الحق على الباطل مهما علا وطغى.

هـ - إيراد القصص للرسول صلى الله عليه وسلم ليطمئن قلبه، ولتكون دافعا له في الدعوة والصدق بالحق، وما عليه بعد ذلك من آمن ومن كفر. ⁽¹⁾

- "تذكير الناس بعداوة الشيطان لهم." ⁽²⁾

2 - أسباب النزول وسياقاته

ذكر القرطبي في أسباب نزول السورة، قال: "قال مقاتل والضحاك: فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش، ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى "طه"، يقول: "يا رجل ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ⁽²⁾ "، أي لتتعب، على ما يأتي، وعلى هذا القول: إن معنى "طه" (طأها)، أي: طأ الأرض، وتكون الهاء والألف ضمير الأرض، أي طأ الأرض برجليك في صلاتك، وخففت الهمزة فصارت ألفا ساكنة. ⁽³⁾

⁽¹⁾ - في ظلال القرآن. سيد قطب ص 2327 إلى 2358. سورة طه دراسة أسلوبية. ص 13 إلى 21 بتصرف.

⁽²⁾ - تفسير التحرير والتنوير. بن عاشور. ص 182.

⁽³⁾ - الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ص 12.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيداً آمن خلال قصص: سورة "طه"

وقوله عن الزمخشري عن الحسن: " وفسر أنه أمر بالوطء، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجله، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل: طأ، فقلبت همزته هاء، أو قلبت ألفا في " يطأ " فيمن قال: لا هناك المرتع. ثم بني عليه هذا الأمر والهاء للسكت (1).

وذكر أنه قيل له ذلك بسبب ما كان يلقي من النصب والعناء والسهر في قيام الليل (2).

وقال مقاتل: قال أبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث للنبي ﷺ: إنك لتسعى بترك ديننا - وذلك لما رأوه من طول عبادته وشدة اجتهاده - فإننا نراه أنه ليس لله، وأنك مبعوث إلينا، فقال رسول الله ﷺ: بل بعثت رحمة للعالمين، قالوا: بل أنت شقي، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) ۝ (3) ۝

وقيل: " طه " الله أعلم بمراده بذلك (4).

(1) - الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ص 11.

(2) - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. ص 7.

(3) - الكشف والبيان في تفسير آي القرآن. الثعلبي. ص 199.

(4) - تفسير الجلالين الميسر. جلال الدين المحلي. جلال الدين السيوطي. تحقيق: فخر الدين قباوة. مكتبة لبنان.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويمكن القول " إن المفسرين الذين طرّقوا أبواب (أسباب النزول) حين يفسرون سورة طه، نجد أغلبهم يدور حول ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن الرسول ﷺ كان يراوح بين قدميه، يقوم على رجل، حتى نزلت هذه الآية.

ثانيهما: أن الرسول ﷺ لما نزل عليه القرآن أطال القيام هو وأصحابه، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية. قاله الضحاك.

ثالثهما: أن أبا جهل والنضر بن الحارث والمطعم بن عدي، قالوا لرسول الله ص ﷺ: إنك لتشقى بترك ديننا، فنزلت هذه الآية. قاله مقاتل.

ولعل تعدد هذه الأسباب هو من باب تعدد الأسباب والنازل واحد، وذلك سائغ عند المفسرين.⁽¹⁾

3- خصائص سورة طه

من خصائص سورة طه أنها مكية، وللسور المكية خصائص تتميز بها عن المدنية، لا بد أن نعرض لها، أهمها:

(1) تفسير سورة طه تفسيرا موضوعيا. ص 14.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيداً آمن خلال قصص: سورة " طه "

1 - كل سورة فيها سجدة. (1)

2 - كل سورة فيها حروف التهجي، سوى البقرة وآل عمران (2).. هذه الحروف التي اختلف جمهور العلماء في ماهيتها ودلالاتها، لكنهم أجمعوا على أن لها معاني عدة، ومن أوجه ما قيل في ذلك أنها مكملة للتحدي بالقرآن الكريم، ومتممة لإعجازه، وهذا الرأي نسب إلى قطرب والفراء وغيرهما، ففي هذه الأحرف إشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الأحرف التي تعرفونها، فدونكم إياها إن كنتم تستطيعون.

وإلى مثل هذا القول مال ابن كثير حيث يقول: " قلت ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة (ذكر الأمثلة عن ذلك) وقال: وغير ذلك من الآيات على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم ". (3)

3 - كل سورة فيها قصص الأنبياء ﷺ والأمم السابقة، سوى البقرة. (4)

(1) - سورة فصلت. دراسة بيانية. محمد العلياني. جامعة أم القرى. 2001. ص 24

(2) - المرجع السابق. ص 24

(3) - تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. دار المعرفة. بيروت 1993. 1 / 40.

(4) - سورة فصلت. دراسة بيانية. المرجع السابق، ص 24

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

4 - كل سورة فيها يا أيها الناس وليست فيها يا أيها الذين آمنوا، فهي مكية، إلا

سورة الحج. (1)

وقد اشتملت سورة طه على بعض من هذه الخصائص حيث ابتدأت بحرفين من حروف الهجاء " الطاء " و " الهاء "، كما اشتهرت السورة بذكر قصة موسى مع فرعون وجنوده.

كما أن هناك " خصائص موضوعية تتخذ من موضوع السورة ومضمونها ركيزة أساسية لتحديد انتمائها إلى أحد القسمين المكي أو المدني، حيث يكون ذلك مطروقا بوفرة في أحد القسمين، ولا يعدم وجوده في القسم الآخر، لكن يكون وجودا قليلا لا يشكل ميزة واضحة. (2)، أهمها:

1 - الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، وإثبات الرسالة، والبعث والجزاء، وذكر القيامة، والنار والجنة، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

2 - وضع الأسس العامة للتشريع، والفضائل الأخلاقية التي يقوم عليها كيان

المجتمع (3)

(1) - سورة فصلت. دراسة بيانية. ص 24.

(2) - مستويات التحليل الأسلوبي. مرتضى شرارة. ص 20.

(3) - سورة فصلت. دراسة بيانية. ص 36

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

3 - ذكر قصص الأنبياء ﷺ والأمم السابقة، زجرا للمشركين وتسليّة

لرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.⁽¹⁾

كما أن هناك خصائص بيانية لهذه السور نذكر منها:

أ - قصر الآيات والسور، و "إيجازها، وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي البارز مع قوة الإيقاعات وبخاصة إذا قورنت بالسور المدنية".⁽²⁾ وهي كذلك تمتاز " بجزالة اللفظ بما يضح الآذان ويشد وقعه على السامع، فقد ناسب قصرها وجزالتها وسرعة إيقاعها المخاطبين بها من أهل مكة والعرب في بدايات الدعوة، ويناسب كذلك كل مقبل جديد على الإسلام، إذ تقوم تلك السور أمامه كومضات وإشارات سريعة ترشده وتهديه، ثم بعد أن يترسخ لديه عقائد التوحيد والمعاد والنبوة والقضاء والقدر، ينتقل إلى معرفة التشريع والأحكام الماثلة في السور المدنية".⁽³⁾

وهذا ما اهتم به الموروث النقدي والبلاغي العربي وأشار إليه في مواطن متعددة، إذ يقول أبو هلال العسكري: " وتخير الألفاظ وإبدال بعضها بعضا يوجب التمام الكلام،

⁽¹⁾ - مباحث في علوم القرآن. مناع القطان. مكتبة وهبة. ط 11. ص 63

⁽²⁾ علوم القرآن. مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه. عدنان زرزور. دار الكتب الإسلامي. ط 1. بيروت.

1981. ص 143.

⁽³⁾ مستويات التحليل الأسلوبي. مرتضى شرارة. ص 14. 15

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وهو من أحسن نُعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما من حروف سهلة المخارج كان أحسن له، وأدعى للقلوب إليه، وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه وأحق بالمقام والحال، كان جامعا للحسن، بارعا في الفضل وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تُنبئ عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام⁽¹⁾.

و لذلك كان من الطبيعي أن يكون "الخطاب الذي يتصدى لظروف الدعوة وتبليغ الرسالة لا يمكن أن ينطلق بأسلوب المواجهات العقلية أو المنطقية المجردة في الأسلوب، وإنما لا بد أن ينطلق بأسلوب الجرعات المركزة المتدفقة التي تحرك النفوس الجامدة وتهز القلوب العنيدة، ومتى انطلق الكلام بهذا الأسلوب، فإن قلبه العام يأتي تلقائيا محدود الحجم ومتتابع الإيقاع"⁽²⁾. فجاء قويا متحديا بغرض التأثير حتى يحقق الفاعلية المطلوبة.

2 - كثرة القسم والتشبيه والأمثال إذا ما عورضت بالآيات المدنية.⁽³⁾، وهذا

الأسلوب " ينطوي على إيجابية تثري المعنى المراد، وتلفت الانتباه إليه، وتحث على التأمل

(1) - كتاب الصناعتين. أبو هلال العسكري. ت: علي البيجاوي. محمد إبراهيم. عيسى الحلبي وشركاؤه. القاهرة. 1952. ص 141.

(2) - مقدمة في خصائص الخطاب القرآني في العهدين المكي والمدني. سيد عبد المقصود جعفر. دار الطباعة والنشر الإسلامية. ط 1. 1993. ص 107.

(3) - علوم القرآن. عدنان زرزور. مرجع سابق. ص 144

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

في قيمة وجوده، سواء أكان هذا الشيء ماديا أم معنويا، فالقسم يكون أسلوبا يناسب النص الدعوي والخطاب الذي يدعو إلى التغيير، وإلى التفكير في قيمة الأشياء، وإلى تحرر العقل من جموده وغفلته ⁽¹⁾. فهو غالبا ما يأتي بغرض التمثيل أو الإيضاح، أو إثبات الحقائق.

3 - تكثيف اللغة التصويرية، وهي من أبرز المظاهر البيانية في القسم المكي، حيث يتم في هذا الأسلوب " تشخيص المعاني المجردة، وتقريب البعيدة، وتحقيق أغراض الخطاب اللغوية المتعددة في أوجز عبارة، وأوفى بيان" ⁽²⁾. وهي عامل مؤثر في المتلقي يساهم في تحقيق الغاية المرجوة.

وهناك ميزة خفية مرتبطة بتأثيرها القوي على وجدان المتلقي، إذ إن هذه السورة " ظلا خاصا يغمر جوها كله.. ظل علوي جليل تخشع له القلوب.. وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه.. إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمان على الوادي المقدس على عبده موسى، في تلك المناجاة الطويلة والليل ساكن، وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء.. وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في موقف الحشر العظيم ﴿وَخَشَعَتِ

(1) - مستويات التحليل الأسلوبي. مرتضى شراة. ص 19.

(2) - سورة فصلت. دراسة بيانية. محمد العلياني. ص 37.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

إِلَّا صَوَاتُ الرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾، إن هذا الظل وهذا الحضور الإلهي هو ما

ميز هذه السورة، وخصها عن غيرها من السور الكريمة ⁽¹⁾.

وقد كان لهذا الجلال والجمال في جو السورة أثر كبير في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكما روى ابن إسحاق في سيرته عن أنس بن مالك قال: خرج عمر متقلدا بسيف، فقيل له: إن خِتْنَكَ وأَخْتَكَ قد صَبَّوْا، فأتاهما عمر وعندهما خباب بن الارت يقرئهما سورة (طاه)، فقال: " أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرأه، فقالت أخته: " إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم واغتسل أو توضأ، فقام عمر وتوضأ وأخذ الكتاب، فقرأ طه، فلما صدرا منها وبلغ إلى قوله تعالى: " إنني أنا الله لا إله إلا أنا، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " فقال: " ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه. " ⁽²⁾

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب. ص 2327

(2) - تفسير التحرير والتنوير. ابن عاشور. ص 180

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المطلب الثاني: جمالية السرد في قصة " طه "

-الفرع الأول: التكرار

اعتبر التكرار أسلوبا من أساليب البلاغة، وقد تناوله المهتمون بدراسة الخطاب القرآني كفن من فنونه، ووسيلة من وسائله التي تروم بلوغ الغاية الدينية والجمالية عبر توظيفه في مختلف قصصه، ومعناه لغة هو " الإعادة والترديد، والإتيان بالشيء لأكثر من مرة، وقد قيل: " الكلام إذا تكرر تقرر "، ويعد التكرار من آليات الترابط السطحية، لأن تكرار عنصر معين يجعله دائما حاضرا في ذهن المتلقي، كما يضمن التكرار استمرار الكلام عبر تنشيط مفاهيم دون أخرى⁽¹⁾. والتأكيد عليها.

وللتكرار عدة وظائف منها أنه يسهم في " ربط المعلومات والأحداث والعناصر بالشيء الذي يتكرر، كما يسهم بقوة في الحفاظ على المعلومات المهمة واستقرارها، وكذلك تنشيطها وجعلها قريبة من متناول المتلقي "⁽²⁾. وللزمخشري رأي في ذلك إذ يقول: " وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن، فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقديره."⁽³⁾ ولعل هذا هو الفهم الذي ترسخ عند البلاغيين والنقاد أيضا بعد ذلك.

(1) - آليات ترابط النص القرآني. رشيد بركان. أفريقيا الشرق. ط 1. 2015. ص 78.

(2) - المرجع السابق. ص 78.

(3) - الحاشية على الكشف للزمخشري. الجرجاني. تح: رشيد بن عمر أعرضي. دار الكتب العلمية. ص 286.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

و كما هو معروف أن تكرار القصة عادة يجلب الملل لمتلقيها، ويجعلهم يمرون مرور الكرام بما تكرر بسبب السأم، أما في القصص القرآني فلا يمل السامع من التكرار، بل على العكس من ذلك، فإنه يجدد في نفسه معاني كثيرة أخرى، ربما أنها لم تحصل له من قبل فيما عرض من أسلوب ومعنى سابق، فمتلقي القرآن الكريم " يجد ظاهرة التكرار ظاهرة ملفتة للنظر في القصص القرآني، وداعية إلى الكثير من التساؤلات حولها، لكن المتأمل يدرك أن القصة لا تتكرر بألفاظها ودلالاتها، وإنما يقع ذكر جانب أو أكثر من القصة في موضع مناسبة، وذكر جانب آخر أو أكثر في غيره لمناسبة أخرى، استكمالاً للصورة العامة التي يقررها القرآن في قصصه، لأن ذلك يخدم غرضين من أغراض القصة القرآنية، غرضاً فنياً يتمثل في تجدد أسلوبها، إيرادا وتصويرا، والتفنن في عرضها، إيجازا وإطنابا، والتنوع في أدائها، لفظا ومعنى، وغرضاً نفسياً يتجلى بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرر ينطبع في تجاوزيف الملكات اللاشعورية، التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها." ⁽¹⁾ فهو يمازج بين الغرضين بفنية عالية.

وهو أيضا في القصة القرآنية " ليس تكرارا مطلقا، وإنما هو تكرار نسبي، بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملئ إعادة القصة، ولكنها في هذه الإعادة تلبس لبوسا جديدا، وتخرج إخراجا جديدا، يناسب السياق الذي وردت فيه - كما ذكرنا سابقا - وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من

(1) - بلاغة القصص في القرآن الكريم. ص 43.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

قبل. "(1) ويرى شوقي ضيف أن " في تكرار القصة القرآنية إيقاظ للهمم ودفع للعقول والنفوس إلى التدبر والتأمل، ففرق كبير بين الشيء الذي يحكى مرة وبين الشيء الذي يكثر تكراره، ففي الثاني استشعار أقوى من الأول، وتعليم للإنسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة. "(2) كل ذلك في تساوق وتجاوب بين الكلمات والآيات، بلا اضطراب ولا خلخلة.

فأسلوب التكرار في القصة القرآنية إذن، يؤكد على أهميتها وفعاليتها في التأثير على النفوس والعقول، بشكل يتتفي معه الملل أو الإعراض عما تكرر، ويجعل الفكرة تستقر في النفوس بشكل سلس.

و الحقيقة " أن كل قصة من قصص القرآن لها عناصرها وجزئياتها، منها قصة موسى عليه السلام التي تضمنت الكثير من جوانب حياته بداية من ميلاده وتربيته والفترة بين شبابه ورجولته وبعثته، وموقفه مع فرعون، وطريقة إثبات حجته، وقد تكررت هذه الجزئية الأخيرة في أكثر من موضع من سور القرآن. "(3) فنجد بأن بعض الجزئيات في عموم القصص القرآني تتكرر نظرا لأهميتها النفسية والدعوية في تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وتسليته، وأن غيره من الرسل تعرضوا للإيذاء والتكذيب والعناد، كما أن هذا التكرار –

(1) – الجانب الفني في قصص القرآن الكريم. ص 45.

(2) – المرجع السابق. ص 71.

(3) – المرجع نفسه. ص 57، 58.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الذي يبدو لنا كذلك - جاء لرد الأباطيل والشبهة، بالإضافة إلى دوره الفني والجمالي في لفت انتباه المستمع وشد سمعه وقلبه.

لكن الحقيقة أن مسألة التكرار بالمعنى المتعارف عليه ليس موجودا في القرآن الكريم، فإذا " أمعنا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة، فلا بد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معا. وإذا فلا تناقض. "(1) أي أن التكرار غير وارد أصلا، " ويمكن القول إن التكرار لم يقع مطلقا في قصص القرآن الكريم، وإنما التكرار وقع على بعض الحلقات في القصة ليس فيها كلها، فورود القصة الواحدة - في معظم الحالات - مكررة في مواضيع شتى لا يتناولها كلها غالبا، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها، أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادرا، ولمناسبات خاصة في السياق، اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه. "(2) أي أن القصة كاملة لا يمكن تكرارها، وإنما قد تتكرر جزئية منها حسب الضرورة التي يقتضيها السياق.

وهذا ما يؤكد علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة على حدة، وإن كانت جميعها متداخلة، أو تمثل مرحلة واحدة، " فالإنسان عندما يقرأ حلقات مكررة من القصة الواحدة ملاحظا السياق الذي وردت فيه، يجدها مناسبة لهذا السياق تماما في

(1) - الجانب الفني في قصص القرآن الكريم. ص 59

(2) - المرجع السابق. ص 59

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما بحسب ترتيب نزولها - فمعظم القصص يبدأ بإشارات مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تعرض حلقات كبيرة تُكوّن في مجموعها جسم القصة، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بعد في عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات، حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها.⁽¹⁾ فالتكرار لا يبقى تكرارا، لأنه يأتي في كل مرة بسياق مختلف، يجعله متفردا وغير قابل للمقارنة، حتى وإن كانت هذه المقارنة مع نفس العبارة. لأنه عندها تحمل معنى مغايرا، وغاية مباينة عن سابقتها.

ولسيد قطب رأي متميز عن أسلوب التكرار، فالقصة الواحدة بالنسبة إليه " قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة أو حلقة من قصة، قد تكررت في سورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار."⁽²⁾ وهو بهذا يؤكد مسألة التفرد لكل عبارة من عبارات القرآن الكريم عن غيرها، وإن بدت مُعادة.

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. سعيد عطية علي مطاوع. دار الآفاق العربية. ط1. 2006. ص 207. 208.

(2) - في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. ط17. 1992. القاهرة. ص 55.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وهناك أمر آخر مهم لابد من الإشارة إليه، وهو مسألة التناسق والانسجام مع موضوع السورة التي تكررت فيها القصة، " فقد وردت حلقات من قصة موسى عليه السلام حتى الآن في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة القصص، وسورة الشعراء، وسورة طه..، عدا إشارات إليها في سور أخرى، وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها الإشارات متناسقة مع موضوع السورة أو السياق الذي تعرض فيه على نحو ما في هذه السور، وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق. "(1) فتساهم في تجليته في أحسن صورة، وأدق تعبير.

وبالنسبة " لقصة موسى مع فرعون، فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيراتها من نوع معنى زائد فيه، لا وقوف عليه إلا منها دون غيرها، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة. "(2) وقد اجتمعت في هذه الخاصية، من نظم القرآن معان عديدة، منها:

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب.. ص 2588.

(2) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 201.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

1- " إنه ألبسها زيادة ونقصانا وتقديما وتأخيرا، ليخرج بذلك الكلام أن تكون

ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئا معادا، فنزله عن ذلك بهذه التغييرات.

2- أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة

في تارات التكرير، فيجد البليغ - لما فيها من تغيير - ميلا إلى سماعها، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء، مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرفهم الله سبحانه بأن الأمر الذي يتعجبون منه مردود إلى

قدرة من لا يلحقه نهاية كلامه عدد، لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ

قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝ (109)﴾ الكهف 109، وكقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ

أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَتُ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ (27)﴾ لقمان 27. (1)

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 202

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وقد أشار الجاحظ في كتاب البيان والتبيين إلى هذا الأمر إذ قال: " رأينا أن الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطا وزاد في الكلام." ⁽¹⁾

وهو ما عبر عنه أبو هلال العسكري بطريقة مختلفة حيث أشار إلى التكرار في علاقته بالإطناب، "وهو بسط الكلام لتكثير الفائدة." ⁽²⁾ وكذلك ذكر الباقلاني عندما أشار إلى أن " كلام الناس يتفاوت عند ذكر القصة الواحدة تفاوتنا بينا، ويختلف اختلافا كبيرا، أما بالنظر إلى القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، يكون غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فهو مما لا يقدر عليه بشر." ⁽³⁾ وإذا كان تفسير هؤلاء الباحثين المتقدمين لبلاغة التكرار في القرآن يرى أنه ما دعت الحاجة إليه، فإن الإمام الزمخشري قد نهج منهجا يقوم على استقراء النفس الإنسانية وما يعترها من تأثر بالأشياء المكررة إذ يرى " أن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس، وتثبيتا لها في الصدور." ⁽⁴⁾ وقد تبعه في ذلك أمين الخولي، حيث أشار إلى صورة من صور الإعجاز النفسي في قضية التكرار في القرآن، حيث رأى أن هذه المسألة قد قال فيها القدماء منذ عهد بعيد، وتلاهم

(1) - البيان والتبيين. الجاحظ. تح: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع. ط7.

1998. القاهرة. 28 / 2.

(2) - الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. ص 40

(3) - إعجاز القرآن. الباقلاني. ص 38

(4) - الكشف. الزمخشري. ص 960.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المحدثون، لكنهم لم يتناولوا المسألة من جانبها النفسي، يعلق على هذا الأمر قائلا: " تلك آراء في التكرار، أشعر أنها لا تزال تفسح مكانا لمحاولة تعليل يقوم على اعتبار نفسي إنساني عالمي، تؤيده شواهد من أحوال النفس البشرية واتجاهاتها، ولعله يصح أن يكون من وجه ما سَوَّقه النفسيون من أن التكرار من أقوى طرق الإقناع، وخير وسائط تركيز العقيدة في النفس البشرية، على هيئة وفي هوادة، دون استشارة لمخالفتها بالجدل أو المشادة، في نظم البرهان أو التعرض البادي للاستدلال، إلى آخر ما يسوق علماء النفس على ذلك من شواهد ومثل عملية تغني عن اختراع الوجوه في تعليل التكرار القرآني وجعله مثار الجدل والاختلاف." (1)

وإلى ذلك يشير أيضا محمد الغزالي في حديثه عن طرق تأثير القرآن في النفوس وإثارته للعواطف والمشاعر إذ يقول: " وكما قهر القرآن نوازع الجدل في الإنسان، وسكن لجأته، تغلب على مشاعر الملل فيه، وأمدته بنشاط لا ينفذ، والجدل غير الملل، هذا تحرك ذهني قد يجسد الأوهام ويحولها إلى حقائق، وهذا موت عاطفي، قد يجمد المشاعر، فما تكاد تتأثر بأخطر الحقائق، وكثير من الناس يصلون في حياتهم العادية إلى هذه المنزلة من الركود العاطفي، فيجد لديهم برودا غريبا بإزاء المثيرات العاصفة، لا عن ثبات وجلادة،

(1) - الإعجاز النفسي في القرآن الكريم. ص 181

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

بل عن موت قلوبهم، وشلل حواسهم." (1) فيظهر لنا في كلام الغزالي وجه آخر من وجوه التكرار مرتبط بالتأثير الوجداني والنفسي الذي يتركه عند المتلقي. ونجده حاضرا بقوة في قصة موسى التي "يقصها الله تعالى على نبيه، نموذجا لرعايته للمختارين لحمل دعوته، وقصة موسى هي أكثر قصص المرسلين ترديدا في القرآن الكريم، وهي تعرض حلقات تناسب موضوع السورة التي تعرض في جوها وظلها، وقد وردت حلقات منها حتى الآن في سورة البقرة، المائدة، الأعراف، يونس، الإسراء، الكهف، وذلك غير الإشارات إليها في سور أخرى.. وما جاء منها في المائدة كان حلقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام الأرض المقدسة، لا يدخلون لأن فيها قوما جبارين، وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة، حلقة لقاء موسى بالعبد الصالح، وصحبته فترة." (2) وكذلك في سورة البقرة والأعراف ويونس وطه، وردت منها حلقات كثيرة، تختلف في كل سورة عن الأخرى، وكذا تختلف جوانب عرضها.

وقد تكررت في سورة طه، قصتان مختلفتان، قصة آدم، وقد جاءت مختصرة وغير مفصلة، وقصة موسى عليه السلام، وقد ذكرت بإسهاب وتفصيل، وذلك لأن الله تعالى أراد أن يثبت قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ويطمئنه بإيفاء وعده لعباده الصالحين ونصره

(1) - القرآن وليلة القدر. محمد الغزالي. محمد سيد طنطاوي. أحمد عمر هاشم. مطبوعات أخبار اليوم. 1992. ص

(2) - في ظلال القرآن. ص 2329

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

للمظلومين والمستضعفين، وقد كان الرسول ﷺ في أمس الحاجة لهذه القصة، مع ما فيها من إطناب، وذلك بغرض مواساته وتأكيده له للمآل المخزي الذي ينتظر الظالمين.

وقد تكررت قصة موسى أكثر من عشرين مرة في القرآن الكريم، سنقتصر في هذه الدراسة على السور التي جاءت قريبة في حبكةها وأحداثها وشخصياتها من سورة "طه"، مثل: "سورة البقرة" و"سورة الأعراف"، و"سورة القصص"، و"سورة يونس" ..

بداية في سورة البقرة:

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ۚ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّا نَكُفِّرُ عَنْكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٥٤ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِّن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾

نجد أن قصة موسى مع بني إسرائيل بدأت من نهايتها بالنسبة لسورة "طه"، عندما أنجاهم الله من العذاب وأغرق آل فرعون، فكان شكرهم أن جحدوا بنعمة الله واتخذوا عجلا إلهًا من دون الله، واستمر تعنتهم وكفرهم رغم المعجزات التي حباها الله دون

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

غيرهم، بل وصلت بهم الوقاحة أن طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة فأخذهم الله بعذاب.

كما نجد في سورة البقرة أيضا قصصا أخرى لموسى عليه السلام مع قومه، لكن هذه القصة هي ما يهمننا في دراستنا لأنها مرتبطة بما قبلها في استعباد بني إسرائيل من فرعون وقومه.. إضافة إلى أن بين السورتين رابط مشترك وهو اتخاذهم العجل.

وقد سبقتها قصة آدم وتكريمه في الملأ الأعلى، وعهد الله إليه بخلافة الأرض، ونعمته عليه بعد ما غفر له، فجاءت قصة موسى وبنو إسرائيل تذكيرا لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم، وعهده إليهم، وإنجائهم من فرعون وملئه، واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى، وذكرت مواعدة موسى وعبادتهم للعجل من بعده، ثم غفرانه لهم، وعهدهم إليه تحت الجبل، ثم عدوانهم في السبت، وقصة البقرة".⁽¹⁾

(1) - في ظلال القرآن. ص 2329.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

و سورة النساء:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَنبَأْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾

وهنا في سورة النساء نجد حدثا واحدا مشتركا بينها وبين سورة " طه " وهو اتخاذ بني إسرائيل العجل، مع إضافة جديدة وهي عفو الله عنهم بعد ذلك.

- وفي سورة الأعراف

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَاتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا ذَا ثَامُورَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ (1)

نجد قصة موسى مع فرعون في سورة "الأعراف" قد بدأت من وسطها أو من عقدتها بالنسبة لسورة "طه"، وهي دعوة موسى لفرعون ومواجهته لسحرته، فقد جاءت الأحداث أكثر تفصيلا وتضمنت إضافات جديدة في القصة، منها خطاب فرعون لموسى عندما قال لسحرته: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهٖ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ؕ إِنَّ هَٰذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمْوُهُ فِي الْمَدِينَةِ كُنْخَرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (123)، فهذه إضافة جديدة من كلام فرعون تتهمهم بالتآمر عليه مع موسى عليه السلام، وبأنه كبير سحرتهم في الثانية، وكلاهما يفضي إلى نتيجة واحدة، وهي أنهم مشتركون في محاربته والتخطيط للنيل منه، ويبدو أن هذا الاتهام المباشر من أسبابه أيضا نشوء موسى في بيت فرعون فترة شبابه، فكان ذلك أقرب لتفكيره بالتآمر عليه.

ويعقب هذه الواقعة إنجاء بني إسرائيل، وجحودهم مرة أخرى بآيات الله ومعجزاته، واتخاذهم العجل، فنجد في سورة "طه" أن الحق تبارك وتعالى نقل لنا وقائع الأحداث دون أن يعقب على ما فعلوا، أما في سورة الأعراف، فقد علق عليهم ونعتهم بالظالمين، كما توعدهم بالعذاب من جراء ما فعلوا، يقول ﷻ: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ

(1) - في ظلال القرآن. ص 2329.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥٢﴾ كما نجد قصة

العجل في سورة الأعراف أكثر تفصيلا من سورة " طه " وبأسلوب مختلف.

وأیضا حديثه مع أخيه الذي ظهر مختلفا في المبنى متطابقا في المعنى، كما نجد في السورة إشارة استباقية من الحق ﷻ إلى جحود بني إسرائيل حتى بعد أن رأوا المعجزات، وإشارته المسبقة إلى نكرانهم وجحودهم رغم ما شهدوه من آيات بأم أعينهم، عندما قال سبحانه على لسانهم: ﴿ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ

أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٢٩﴾

يقول سيد قطب تعقيبا على هذه الآية: " إنها كلمات ذات ظل .. وإنها تشي بما وراءها من تبرم .. أوزينا من قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك، وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية. "(1) فهم هكذا دائمو التأفف والاستياء واليأس.

ويمكننا إجمال ما ذكرنا، بما قاله سيد قطب عن هذه السورة، إذ يقول: " في الأعراف سبق قصة موسى الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى، تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين، ثم

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب. ص 1355.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ما كان من بني إسرائيل بعد ذلك من اتخاذ العجل في غيبة موسى، وتنتهي القصة بإعلان فيه وراثته رحمة الله وهداه للذين يتبعون الرسول النبي الأمي. "(1)

وفي سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاستَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا الْغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

في هذه السورة نجد تفاصيل أخرى واختصارات أيضا في قصة موسى مع فرعون، " فقد بدأ بمشهد المواجهة مختصرا لم يعرض فيه آيتي العصا واليد، واختصر كذلك في مشهد المبارزة "(2)، وتدل الآيات السابقة على خوفهم من تحطيم معتقداتهم الموروثة، وهو الخوف على السلطان في الأرض، وتوجسهم من أن يستحوذ موسى عليه بدعوته، ثم يمر مشهد السحر مختصرا، بعد ذلك بعكس المشهد في سورة " طه "، لأن نهايته هي المقصودة في هذه السورة، " وتضيف السورة معنى آخر من معاني القصة، وهي إيمان الشباب

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب.. ص 2329

(2) - المرجع السابق ص 2588

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

والفتية من قوم موسى وليس من شيوخهم من الشعب الإسرائيلي - وهي إحدى العبر

المقصودة -، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى، ﴿فَمَا

ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ

لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

وعقب هذا التميز، وفي فترة الانتظار بعد الجولة الأولى، وإيمان من آمن بموسى، أوحى

الله إليه وإلى هارون أن يتخذا لبني إسرائيل بيوتا خاصة بهم، وذلك لفرزهم وتنظيمهم

استعدادا للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلفهم تطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم،

والاستبشار بنصر الله. ويأتي بعد ذلك الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي

والتكذيب، والسياق يعرضه مختصرا مجملا، لأن الغرض من سياق هذه الحلقة من القصة

في هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة. ويعقب كل ذلك بلمحة سريعة عن مآل بني

إسرائيل، تستغرق ما حدث في أجيال، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّن

الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ والسياق هنا أيضا لا يطيل في عرض ما وقع بعد ذلك لبني إسرائيل،

ولكن يطوي هذه الصفحة، فيبقى للقصة جلالها، ويظل للمشهد الأخير تأثيره. ⁽¹⁾

(1) - انظر "في ظلال القرآن" سيد قطب. ص 1814 . 1815 . 1816

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

فالسورة هنا قد " سبقها عرض مصارع المكذبين، فجاءت قصة موسى من حلقة الرسالة، وعرض مشهد السحرة ومصرع فرعون بالتفصيل. "(1)

- سورة الشعراء:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ إِنِّي آلَقَمْتُ الظَّلْمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَنَبَّؤُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الْيَ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ۞.. (2)

نجد هنا القصة قد ابتدأت من نفس أحداث سورة " طه " - إذا استثنينا حدث تكليم الله لموسى وخصّصه بالمعجزات التي سيواجه بها فرعون وآله -، كما تُظهر لنا حدثا جديدا وهو خوف موسى من آل فرعون بسبب قتله لفرعوني في السابق، إضافة إلى لشعة في لسانه خاف أن تكون سببا في عدم تبليغ الرسالة كما يجب، فطلب من الله ﷻ أن يرسل

(1) - المصدر السابق. ص 2329.

(2) - في ظلال القرآن. ص 2329.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

أخاه بدلا منه، لكن الله سبحانه وتعالى طمأنه بحل لمشكلته وخوفه، ثم انتقل إلى " مشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصرا، ومر بمشهد السحرة سريعا، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة.. واختصر هذا هنا فلم يشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدل بين موسى وفرعون حل وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله، وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي ﷺ، بينما توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربّه في سورة " طه "، واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة، فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلا، ولم يجاوز هنا مشهد الغرق والنجاة ⁽¹⁾. وفي السورة أيضا " لا نجد تكرارا في العرض للقصة أبدا على كثرة ما عرضت في سور القرآن، لأن هذا التنوع في اختيار الحلقات التي تعرض، ومشاهد كل حلقة، والجانب الذي يختار من كل مشهد، وطريقة عرضه.. كل أولئك يجعلها جديدة في كل موضع، متناسقة مع هذا الموضع. " ⁽²⁾

- سورة النمل:

أما في سورة النمل، " فتعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى عليه السلام، بعد قوله

تعالى في هذه السورة: " وَإِنَّكَ لُلْقَى الْفُتْرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ " وكأنها

(1) - في ظلال القرآن. ص 2588

(2) - نفسه. ص 2630.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ليقول لرسول الله ﷺ: إنك لست بدعا في هذا التلقي، فهاهو ذا موسى يتلقى التكليف، وينادى لحمل الرسالة إلى فرعون وقومه، وليس ما تلقاه من قومك بدعا في التكذيب، فهاهم قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله، ولكنهم يجحدون بها ظلما وعلوا".⁽¹⁾ والجديد في القصة التسع آيات التي أرسل الله بها موسى إلى قوم فرعون، " ولم يعدد هنا بقية الآيات التسع التي كشفت عنها سورة الأعراف، وهي سنون الجذب، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم، لأن التركيز هنا كان على قوة الآيات لا على ماهيتها، وعلى وضوحها وجحود القوم لها.

- سورة القصص:

﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْثَاءَهُمْ وَيُسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۝٧ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُوا بِمَا

(1) - في ظلال القرآن. ص 2630.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

أَوْنِي مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سَحَرَنَ تَظَاهَرًا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ۖ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ ابْتِغَىٰ هَوَاهُ يُغَيِّرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

في هذه السورة الكريمة، جاءت بداية القصة مختلفة أيضا عن سورة طه ، إذ يبشر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بالنصر والتمكين لقومه بعد أن استضعفهم فرعون وتسلط عليهم، ويذكره بحاله عند ولادته وكيف حفظه الله وهو في قمة ضعفه، وأنشأه في بيت عدوه لا يخاف ولا يخشى، فنلاحظ بأنه في كل مرة " تختلف القصة في بنيتها الوظيفية، ويكون التركيز على وظائف دون غيرها، ويكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة كما مر بنا من قبل. "(1) وهذا هو التفرد الذي تحدثنا عنه سابقا.

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم. ص 50.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

سورة غافر:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَحَرُ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي

إِلَّا لَبِئْسَ ﴿٥٤﴾ ﴿١﴾

(١) - في ظلال القرآن، ص 2329.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

في سورة " غافر " هذه المرة تظهر أحداث أخرى جديدة تعزز القصة وتخدم هدف السورة بالأساس، ففرعون هذه المرة يتحدى الله سبحانه في جرأة ووقاحة، ويضع موسى موضع اختبار، حتى يشهد على ذلك قومه، فتقوى تبعيتهم له، كما تظهر شخصية جديدة بالقصة وهي الرجل المؤمن الذي حذر فرعون وقومه من قتل موسى.

أما هنا في سورة طه، " فقد سبقها مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفاهم لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، فجاءت القصة مظلة بهذا الظل، تبدأ بمشهد المناجاة، وتضمن نماذج من رعاية الله لموسى عليه السلام، وتثبيته وتأييده، وتشير إلى سبق هذه الرعاية للرسالة، فقد كانت ترافقه في طفولته فتحرسه وتتعهده، **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً**

مِّنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ " ^(١). ومن خلال ما ذكرنا نجد أن هناك اختلافا في عرض القصة بين السور، " فتارة تقدم نهايات القصة على عنصر البداية، أو على النقطة الأولى من نقاط القصة، وذلك لبيان أن هذا العنصر هام وهو الركيزة والركن الأساسي في القصة. " ^(٢)

من هنا، وفيما عدا التحليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن هناك ظاهرة أخرى تدخل ضمن هذا التكرار، وهي التي تمنحه ذلك التفرد والتميز وهي: " التوزيع "، ولنتبع ذلك في بعض قصص القرآن.

^(١) - في ظلال القرآن. سيد قطب. مرجع السابق. ص 2329.

^(٢) - الجانب الفني في قصص القرآن. عمر باحاذق. ص 82.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

1 - التكرار توزيعا

لنتأمل معا قصة موسى عليه السلام في معارضها المختلفة استيضاحا عند التزام البيان القرآني لمنهجه، وتقديرا لتلك الخصيصة الفنية في القصص القرآني نلاحظ:

أ- أن المواطن القرآنية التي ذكرت فيها قصة موسى عليه السلام تبلغ أكثر من إحدى عشرة سورة وهي: (البقرة، المائدة، الأعراف، يونس، الكهف، طه، الشعراء، النمل، القصص، غافر، النازعات..)

ويلاحظ أن " ما جاء في البقرة إنما هو في ثنايا قصة بني إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسى وغير موسى، فذكر طرف من قصة موسى معهم في سورة البقرة جاء عرضا في أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم، وما كان منهم من عناد وصد عن دين الله، وكفران بأنعم الله سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (50) البقرة: 50. "(1)

وقد وردت هذه التفصيلات في سور مكية عديدة من قبل، فجاءت هنا لمجرد التذكير لقوم يعرفون القصة، سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة، " وقد جاء تذكيرهم بها هنا على صورة مشهد، ليستعيدوا تصورهما، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى

(1) —حقائق التأويل في الوحي والتنزيل. محمد علي حسن الحلي. دار الكتب العلمية. 2018. ص 23.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

الخطبة، على مشهد منهم ومرأى، وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب.⁽¹⁾

ب- من أهم أحداث قصة موسى التي أعيد ذكرها في سورة "طه" ما يأتي:

- 1- خوف الأم على وليدها وما أوحى به الله إليها.
- 2- إشفاق أمه عليه وبحثها عنه.
- 3- إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المرضعات.
- 4- بلوغه مرحلة الشباب وما كان في تلك الفترة من معاونة الإسرائيليين على قتل المصري.
- 5- اتجاهه إلى مدين، والتقاؤه شيخ مدين وتزوجه إحدى بناته.
- 6- عودته إلى مصر بأهله، وما وقع في رحلة العودة.
- 7- مشهد تكليم الله له وتكليفه بالرسالة، وتخوفه من لقاء فرعون، وطلبه من الله أن يعينه بهارون أخيه.
- 8- مواجهة موسى لفرعون.
- 9- إيمان السحرة.
- 10- خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وتعقب فرعون لهم.
- 11- مطالبة بني إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنما

(1) - انظر. في ظلال القرآن. ص 71.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

12 - دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة

13 - معاقبتهم بالتيه

14 - خروج موسى لميقات ربه مستخلفا هارون في قومه

15 - لقاء موسى بربه وعودته

16 - غضب موسى لاتخاذ بني إسرائيل العجل ..

هذه بعض أحداث قصة موسى التي جاءت في سورة طه واشتركت معها سور أخرى في نفس الأحداث، فهي كما نلاحظ لم تأت كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم، بل اشتملتها عدة سور، " واختصت كل سورة بعدة مشاهد منها - على حسب ما يقتضيه السياق - بحيث تبدو في تفردا قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود." ⁽¹⁾ وإذا جمعناها كلها أصبحت كذلك قصة متكاملة منسجمة، " فإذا أخذنا كل حلقة من تلكم الحلقات ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسى مع بني إسرائيل متكاملة البنيان، متلاحمة النسيج، تربطها الوحدة بمختلف مظاهرها - على الرغم من توزعها هذا التوزيع - سواء وحدة الموضوع، أو وحدة السياق التعبيري، أو وحدة الجو النفسي.. دون أن نرى فيها تكرارا، أو تحتاج إلى توضيح أو تبين، وهذا

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 210.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

إحكام وقدرة لا طوق لمخلوق على السير في طريقها.⁽¹⁾ وسنسوق مثالا على ذلك من خلال مقابلة بين سورة "طه" وسورتي "القصص" و"الأعراف" في ذكر تفاصيل القصة، محاولين الوقوف على هذا التوزيع الفني الذي تكلمنا عنه سابقا.. ففي سورة "القصص" نجد مجموعة من الأحداث المتعلقة بنشأة موسى عليه السلام من ولادته ونشأته في بيت فرعون إلى قتله للفرعوني وهروبه إلى مدين حيث التقى بشيخها وتزوج إحدى بناته.. يبرزها

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِجُّ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (4)

﴿ وَنُتِمْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْقَطْعُ: ءَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

(1) – الإعجاز القصصي في القرآن. ص 210. البيان القصصي في القرآن الكريم. إبراهيم عوضين. دار الأصاله

للثقافة. 1990. ط 2. القاهرة ص 138. 139.

الفصل الثانی: جمالیۃ الخطاب القرآنی تجسیداً من خلال قصص: سورۃ " طہ "

• ﴿ وَأَصْبَحَ قُودًا أَمْرًا مُّوَسًى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِّلَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝⁽¹⁰⁾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝⁽¹¹⁾ ﴾

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ۝⁽¹²⁾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝⁽¹³⁾ ﴾

• ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ۝⁽¹²⁾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝⁽¹³⁾ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَانَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝⁽¹⁴⁾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝⁽¹⁵⁾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝⁽¹⁶⁾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ۝⁽¹⁷⁾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝⁽¹⁸⁾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ۝⁽¹⁹⁾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّ

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

الْمَلَأَيَاتِمُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَبُوزَ رَبِّ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ آئِي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطِئُ اسْتِجْرَاءُ خَيْرٌ مِنْ اسْتِجْرَاءِ الْقَوِيِّ الْأَمِينِ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ انْكحَاكِ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجْتُ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

- ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾

في المقابل نجد نفس هذه الأحداث في سورة " طه " يبرزها قوله تعالى:

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

- 1 - ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنْ إِقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) ﴾
- 2 - ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ. ﴾
- 3 - ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾
- 4 - ﴿ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا ﴾
- 5 - ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾
- 6 - ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِي (40) ﴾

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقتين من اختلاف بين، يقرره السياق، " فالمشاهد في سورة القصص، بناء قصصي مقصود، ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم، ويرى فيها غير بني إسرائيل أنموذجا بشريا يحركه الصراع بين الحق والباطل، ولكن الله يتدخل المرة بعد الأخرى ليوجه الصراع في الوجهة التي تحقق النصر في النهاية للحق وأعوانه.."(1)

أما في سورة "طه" فالأمر مختلف، إذ إن " المشاهد لا تعدو أن تكون إشارات سريعة تلفت نظر موسى إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق، مما يؤكد أنه سبحانه سوف يكون بجانبه في كل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشقات، ولذلك فإن هذه المشاهد إنما

(1) - البيان القصصي في القرآن الكريم. ص 139.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

جاءت بعد أن كلف موسى بتبليغ فرعون ما أرسل به إليه، فأبدى موسى عليه السلام تخوفه من فرعون، وطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون، فاستجاب له ممتنا عليه بفيض نعمه المتوالي، مشيرا بذلك إلى ما يستوجبه من تضحيات في سبيل الله المنعم الكبير.⁽¹⁾ وبذلك فإن المشاهد التي تبدو متشابهة، تأتي في كل مرة لتبرز جانبا معينا، فيفهم مغزاها انطلاقا من سياقها، وليس مما تحمله في ذاتها.

ولا شك أن مسألة "توزيع القصة الواحدة في عدة سور يؤدي إلى اختلاف عوامل التأثير في النفس الإنسانية، وذلك لتجدد الأسلوب في الأداء تجددًا يمد المشاعر بنشاط لا يفتر"⁽²⁾ فالإنسان مجبول على حب التغيير وإن كانت الأشياء نفسها إنما في قالب مختلف.

كذلك فإن "ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في أخرى أثناء عرضها لتلك القصة نفسها، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها على موطن القصة منها، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة. وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني."⁽³⁾ وقصة موسى "تنطبق عليها قاعدة المشاهد الأربعة التي جاءت في القرآن الكريم، عن هذه

(1) - البيان القصصي في القرآن الكريم. ص 141

(2) - الإعجاز القصصي في القرآن الكريم. ص 213

(3) - سيكولوجية القصة في القرآن. التهامي نقرة. ص 507.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

المرحلة في سورة "طه" و"القصص" و"النمل" و"الشعراء"، ثم الصور المجملة غاية الإجمال في "الفرقان" و"السجدة" و"النازعات"، فالتفصيل الذي تبدو فيه الصورة بكل معالمها الكبرى، تأتي في موضع آخر ثم لا تلبث أن تتأكد هذه الصورة بتلك المعالم بصورة قريبة منها، وإن كان الإجمال يعوض بإيراد تفاصيل جديدة تحفظ للصورة طرافة تعينها على استشارة الاهتمام، وبعث التشوق والتطلع، والصورة الكبرى تبدأ في سورة طه:

﴿وَأَنَا أَخَّرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ (15) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۚ (16)﴾ (1) وتبدأ بعدها المناجاة: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوِي ۚ (17)﴾

وإذا قابلناها مع سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِي ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتَرِّكُهَا جَانًّا وَلِيُّ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِي ۚ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۚ (31) أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ۚ وَاضْمُمِ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۚ فَذَلِكَ بَرْهَنُنِي مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ۚ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۚ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 113

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعَ رِدَاٍّ يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونَّ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصُودَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا ۖ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ (سورة القصص، الآيات: 31-35).

وإذا قارنا بين سورة طه وسورة القصص، وجدنا أن الأولى قد بسطت في ذكر بعض الوقائع، وخصصت له حيزا أكبر، كمشهد المناجاة، فقد اهتم بتفاصيل دقيقة، كأمر الله تعالى لموسى أن يخلع نعليه، وتذكيره بجوهر الرسالة، وأيضا تسليته عبر سؤاله عن عصاه حتى يهدأ روعه، ويذهب توتره، أما في سورة القصص فقد تم تجاوز هذه التفاصيل، نظرا لما يتطلبه الغرض العام وسياق القصة في السورة، وهذه الطريقة " تبرز تماما منهج القرآن الكريم في التفصيل في الموضع الذي اختاره الله تعالى، ومنهجه في الإيجاز في الموضع الذي يختاره لذلك رب العالمين." ⁽¹⁾ وبذلك فإن هذا التباين في عرض القصة الواحدة بطرق مختلفة يؤكد على مسألة التوزيع المتقن والمحكم البعيد عن التكرار بمعناه المعروف.

2 - التكرار تنوعا وكثرة في سياق الأحداث.

يتضمن القرآن الكريم صورا مختلفة وكثيرة جدا لا تعد ولا تحصى، و" إن استقصاء المادة القصصية في القرآن الكريم لا تكاد تجد لها حصرا، فابتداء من سورة البقرة إلى آخر السور القصار، يجد المتلقي نفسه إزاء مشاهد وصور وأحداث يعرضها تعالى عرضا

(1) - القصة القرآنية. فتحي رضوان. كتاب الهلال. دار الهلال. العدد 332. القاهرة. 1978. ص 119.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

سرديا مبهرًا⁽¹⁾. ولا تكاد تخلو السورة من أكثر من قصة وأكثر من حدث ومشهد، وهو ما نجده بارزا في سورة طه، التي ابتدأت بخطاب النبي الكريم وتثبيت قلبه بسرد قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وهي تحوي مجموعة من المشاهد والصور الناطقة الحية "تقوم على حوار بين الحق والباطل، وهي أيضا آيات تستعرض حلقة من حلقات لا متناهية، مكونة من الدعوة إلى الله، والرفض والاستكبار، كما حدث مع فرعون عندما رفض دعوة موسى وهارون واستهزأ بهما، أو الإذعان والإيمان، كما حدث لسحرة فرعون عندما عرفوا الحق وآمنوا رغم التهديد والوعيد، ثم العاقبة والمصير الذي جاء في القصة بنجاة بني إسرائيل من الاستعباد والظلم الذي طالهم من فرعون وإهلاكه ومن معه، إذ تشكل هذه البنية النواة، التي تكررت دلالاتها في كل القصص القرآني."⁽²⁾ ويمكن تفصيلها كالآتي:

- اختيار موسى للرسالة، الآية 9، 36.
- تذكير موسى بنعم الله، الآية 37، 41.
- إرسال موسى إلى فرعون، الآية 42، 55.
- استكبار فرعون وتكذيبه، الآية 56، 76.

(1) - بلاغة القصص في القرآن الكريم. ص 40

(2) - المرجع نفسه، ص 40.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

- إهلاك فرعون وقومه، الآية 77، 79.

- إنجاء بني إسرائيل، الآية 80، 82.

- عودة بني إسرائيل للكفر وعبادة العجل، الآية 90، 83.

إن سورة طه زاخرة بالأحداث والوقائع، ورغم تنوع أحداثها وكثرتها، فإن بناءها متناهي الدقة متوازن، لا يشوبه نقص، كأنك تسمع تلك الوقائع لأول مرة، وإن تكررت على طول سور القرآن، يطبعها جو خاص يميزها كما تتميز كل سورة وكل آية من آيات القرآن الكريم، فأسلوب التكرار في القصة القرآنية يحمل في طياته مفاهيم ورؤى جديدة، وإن بدت الأحداث معادة، وهذه خصيصة اختص بها الخطاب القرآني وانطبع بها.

الفرع الثاني: الانسجام والتناسب بين بداية القصة ونهايتها

تركز القصة القرآنية على البداية والنهاية فيها، أولا لأنها يمثلان الموضوع الأساس وموضع الإثارة فيها، وثانيا لأنها يؤطران القصة في شكلها العام، ولا يتركز المجال لأي قراءة خارجة عن تلك الحدود، فتأتي القصة متماسكة منسجمة أشد الانسجام يؤكد آخرها أولها وتسير بدايتها إلى نهايتها بشكل منطقي وحتمي.

ونجد في سورة طه الأمر نفسه من انسجام وتناسب فني بديع بين مطلع القصة

وخاتمها، يقول تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (13) ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (14) ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (15) ﴿فَلَا

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَبَّى ﴿١٦﴾، حيث يؤكد سبحانه على أهم أمر وأجله وهو تحقيق العبودية لله، " فالله في ندائه لموسى عليه السلام يؤكد بها بالاثبات المؤكد ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، وهذه الدعوة ستكون المحور الذي تدور عليه قصة موسى عليه السلام مع فرعون، بالإضافة إلى تذكيره بحقيقة الآخرة والحساب ومآل المؤمنين والكافرين. وكما ابتدأت هذه القصة بهذا المعنى فإنها قد ختمته به، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ آذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عَلَمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴿١﴾. إن الله ﷻ يختم القصة بتأكيد ما سبق في البداية، بل ويبسط لنا سبحانه تحقيق وعده في مشهد يبدو لوهلة وكأنه حقيقة تراها العين. ونتيجة حتمية لتلك البداية المليئة بالابتلاءات والمخاطر.

وإن بداخل هذه البداية والنهاية الكبرى، بداية ونهاية ثانية، متعلقة بتلقي موسى عليه السلام أمر الله تعالى، وما وقع من أحداث كانت نهايتها نصرا للمؤمنين وهلاكًا للكافرين،

(١) - في ظلال القرآن. ص 2331

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وهذه الأحداث هي ما وسمت سورة طه وألقت عليها بظلالها ﴿وَهَلْ أَبْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ٩ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ١٠ ﴿فَلَمَّا أَبْنَهَا نُودَى يَمْوَسَى﴾ ١١ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ١٢، فبداية القصة تتضمن الإثارة والتشويق عن طريق استعمال أسلوب الاستفهام بطريقة لطيفة وجذابة، وطبعا هذا الاستفهام ليس غرضه معرفة الخبر، لأنه ﷺ يعرف السر وما يخفى، ولكنه استفهام تقريرى يتلوه الإخبار بأمر مهم، وهذا الأسلوب يقصد به إثارة اهتمام النبي ﷺ وشد انتباهه إلى ما سيكون من أحداث بالغة الأهمية، ستكون نبراسا في طريق دعوته عليه الصلاة والسلام.

وتستمر أحداث القصة بوتيرة تصاعدية يغلفها التشويق والإثارة، إلى أن تصل ذروتها في مشهد هلاك فرعون وجنوده، فتبدأ بالنزول حتى تستقر في النهاية بعقاب السامري - على ما فتن به بني إسرائيل من صنع العجل وعبادتهم له - بالنبذ من قومه ومن الناس جميعا إلى أن يموت، وبأن ما أغواهم به لن يغني عنهم من الله شيئا، وأنه هو الله الواحد الأحد ولا معبود سواه، وعاقبة السوء لمن أشرك أو كفر به سبحانه، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ٩٧ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٩٨ ﴿

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثالث: الزمن في القصة

لا يمكن وضع تعيين محدد لمفهوم الزمن إلا على وجه التقريب، باعتباره من القضايا التجريدية التي يصعب الإحاطة بها أو تكوين فكرة دقيقة عنها، إذ " يمكن اعتباره ظاهرة كونية تمارس تأثيرها الفعال بهذا الحضور الحسي الدائم غير المرئي، هو هذا المعطى الوجودي، الجوهرى الذي تكتسب به وفي كنفه الموجودات هويتها ووظيفتها، أي تحيزها المادي الفعال، في محيطها ومع ذاتها، ضمن صيرورة كلية، تحكم المادة في شتى مظاهرها، وتنساب في فضاء طردى منتظم." ⁽¹⁾ فهو عنصر متداخل بين مجموعة من العناصر التي تساهم في تشكيله، وهو في غياب هذه العناصر متعذر الوجود. لهذا فإن الوقوف على مسألة الزمن " يكتنف صعوبات عدة، نظرا إلى تعدد العناصر المساهمة في تشكيل الإحالة الزمنية في جمل اللغات الطبيعية، علاوة على انتهاء هذه العناصر إلى مستويات متباينة، ويرتبط هذا التعدد بتباين مظاهر الزمن، فالزمن ذو مظهر صرفي وتركيبى ودلالي ومنطقي وتداولي، وكل مقارنة تروم تحقيق مطلب الشمولية في معالجة النظام الزمني ينبغي أن تراعى تفاعل هذه المظاهر." ⁽²⁾ فهو ذو طبيعة متغيرة وغير ثابتة ومتعددة، وهذا يطرح صعوبة الإحاطة به، لذلك فإن رصد هذا التفاعل يطرح إشكالات أهمها: "

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشراقي. ص 107.

(2) - الزمن في اللغة العربية. بنياته التركيبية والدلالية. احمد الملاخ. دار الأمان. ط 1. 2009. الرباط. ص 11.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

تداخل المظاهر المشكلة للنظام الزمني فتركيب الزمن لا ينفصل عن البعد الدلالي، إذا اعتبرنا أن البنية الداخلية للزمن متكونة من ثلاثة عناصر:

1- زمن التلفظ.

2- زمن الحالة.

3- زمن الحدث. "(1)

فالزمن إذن بما هو "عنصر تجريدي، ظل مقرونا بالميتافيزيقيا، فقضايا مثل القَدَم، والحدوث ومآل الوجود، قضايا تتمحور في الحقيقة حول هوية الزمن، تلك الفاعلية الأساسية المطلقة، التي لا يخرج عن سلطانها موجود.. وقد كانت الديانات السماوية تنظر دائما إلى الزمن على أنه المجال الحسي الذي تتجسد فيه قدرة الله ومشيتته في الكون بمشمولاته المدركة. "(2)

لكن بالرجوع إلى المسألة الأساسية وهي الزمن المرتبط بالقصة القرآنية، فنجد أن القرآن الكريم "تناول مسألة الزمن كخلق خلقه الله تعالى، وحين نتلو سورته وآياته تصادفنا آيات تحمل ألفاظ الزمن ودلالاته، كالحين والأجل والأمد والوقت والعصر واليوم والشهر، وهذا لا يعني أن النص القرآني مجرد جامع لألفاظ الزمن، فالقرآن الكريم عرض علينا مرحلة الخلق والوجود، خلق الكون والإنسان، فقدم قصة خلق

(1) - الزمن في اللغة العربية. بنياته التركيبية والدلالية. احمد الملاخ. ص 11.

(2) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية للسرد الإعجازي. ص 107

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الكون بسماواته وأرضه، وأحصى المدة الزمنية المعدودة بستة أيام، وأثار مشهد إحياء الأرض بعد موتها، كما سرد علينا قصة خلق آدم.. لكن الزمن يبقى في حد ذاته إشكالية مستعصية على الإنسان المخلوق، كما بقي الزمن قضية خطيرة، تعرض لها الفلاسفة وتناولها العلماء والمفكرون، والأدباء والنقاد قديما وحديثا، ولا زالت البحوث متواصلة ⁽¹⁾، فهذا الزمن القرآني يصعب الإحاطة به، لأنه في أحيان كثيرة يدخل في إطار الغيبيات التي يتعذر على العقل الإنساني إدراكها، لكنه يسلم بها، كما ذكرنا سابقا. "لذا قدم القرآن الكريم حقيقة الزمن كخلق من مخلوقات الله، مستعرضا توظيف الزمن بالمستوى الغيبي والخارق، والإشراف عليه من طرف خالقه سبحانه وتعالى، بإثارته كقضية إعجازية من جهة، واستظهارا لطلاقة قدرته تعالى من جهة ثانية." ⁽²⁾ لذلك لا يمكن التوصل بجميع آليات تحليل الزمن في تناول القصة القرآنية، كما نفعل مع الزمن في القصة الأدبية العادية، لكن هناك نقط مشتركة عامة بينهما يمكن الوقوف عليها، مثلا: "إذا افترضنا نقطة انطلاق زمنية، ونقطة اندماج في الفضاء، لأن كل قصة على الأقل يلزمها أن تحدد منذ البداية زمنها ومكانها معا، ولا يتحقق الخروج عن المؤلف واكتساب الفردية إلا بهذا الشرط." ⁽³⁾ وهذا الأمر تشترك فيه القصة العادية بالقصة الأدبية القرآنية.

(1) - إشكالية الزمن في القصص القرآني. بحث دكتوراه. جامعة سيدي بلعباس. الجزائر. بن دهيبة لطروش.

2017. ص 7

(2) - المرجع السابق. ص 7

(3) - ينظر: الفضاء الروائي. مجموعة من المؤلفين. ترجمة عبد الرحيم زحل. إفريقيا الشرق. ط 1. 2002. ص 74.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

يعتبر الزمن إذن أحد أركان عملية السرد الأساسية، فهو الإطار العام الذي يحيط بالسرد ويؤطره، ويعد القصص أكثر الأنواع الأدبية التصاقا بالزمن، إذ لا يمكن له أن يستغني عن الزمان بحال من الأحوال.⁽¹⁾ وهو ما تركز عليه القصة القرآنية، وإن لم يكن إلا بالشكل الذي يخدم الغرض الدعوي بالأساس، لذلك فإن "توظيف الزمن في القصص القرآني، لم يكن أبدا إشكالية، كما هو الشأن في القصة الفنية، لأن القرآن الكريم لم يبههم عنصر الزمان، ولم يهمله، وإنما الذي يحدد توظيف الزمان في عملية القص هو الإطار الديني، ومن خلاله يتحدد منهج القرآن الكريم في توجيه قصصه وسرد أحداثه، الأمر الذي أدى إلى توظيف الزمان، بمستواه النسبي الغيبي والخارق، كظاهرة إعجازية."⁽²⁾ فهو أحد العناصر الإعجازية في القصة القرآنية، وهو دائما خاضع للضرورة الدينية وما تقتضيه الوقائع فهو "ليس إشكالية بالمفهوم الفلسفي أو النقدي أو الفني، ولن يكون كذلك، بل هو موظف وفق ما تمليه الأحداث. وإن خضوع الزمان لقدرة الله تعالى ومشيبته باعتباره خلقا من مخلوقاته، وكل عناصر القصة متساوية في المخلوقية."⁽³⁾

(1) - البنية السردية بين الاسترجاع والاستباق في رواية العقرب. رسول بلاوي. جامعة خليج فارس. بوشهر. ص 286.

(2) - إشكالية الزمن في القصص القرآني. ص 481.

(3) - المرجع نفسه، ص 481.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ولذلك يصعب جدا محاولة ضبطه وتحديدده، خصوصا ما اتصل بالجانب الغيبي كأحداث خلق آدم ويوم القيامة وغيرها مما لم يطلع عليه أحد، لذلك فقد " تفرد منهج القرآن في توظيف الزمن في قصصه، عبر المستوى الخارق والغيبي، حيث يستحيل توظيف الزمن بتلك المستويات في المنظومة السردية الفنية والتاريخية، والتي يكون فيها توظيف الزمن توظيفا موضوعيا محدودا، لا يتعدى نظرة السارد الضيقة للأحداث الماضية، وبمعالجة جزئية مؤقتة، لكن القصة القرآنية سايرت وتسائر مراحل الزمن من بداية الخلق إلى نهايته، ثم تتعدى المرحلة الدنيوية إلى الآخروية، لتشمل مرحلتي الماقبل والمابعد، وهما مرحلتان لا زمنيّتان، لتؤكد وجود الخالق الأزلي قبل الزمكانية، وخلوده الأبدي بعد فناء الكون مكانا وزمانا وشخصا، فالقصة القرآنية هي النص الوحيد والمصدر الأوحد الذي يقدم لنا قصة حقيقة الخلق والحياة والوجود والمصير والإنسان.⁽¹⁾ وهي مع ذلك تقدم زمنا مختلفا ومغايرا لما هو معروف، ربطه الله تبارك وتعالى في كثير من الأحيان بمصير الإنسان الآخروي - الذي لا ندرك عنه شيئا لكننا نؤمن به-، وحقيقة الحياة الدنيا، ونحن عندما نتكلم عن الزمن القرآني فإننا لن نتناول إلا جزءا يسيرا من دلالاته وأثره الفني في القصة القرآنية، ذلك الجزء القريب من الزمن الذي نعرفه وندركه، كما جاء في سورة طه " قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59). فهذا زمن معلوم معهود يمكن أن يُدرك، وقصة موسى عليه السلام في السورة

(1) - إشكالية الزمن في القصص القرآني. ص 483.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

عموما لم ترتبط بزمن خارق، بل ظلت في نطاق المعقول، لذلك أمكننا أن نتناول الزمن فيها بشكل نستطيع معه الإحاطة ببعض جوانبه، وتطبيق بعض آليات التحليل عليه.

1- أساليب الزمن في القصة القرآنية

بالنسبة للقصة القرآنية فإن الأحداث تروى بأساليب مختلفة، " منها ما يروى على أساس الزمن المتسلسل الترتيبي، وقد لا يلاحظ هذا الزمن الترتيبي، ولكن مع العناية بالترتيب الزمني الذي يقتضيه سياق الكلام، يمكن أن يقتضي هذا السياق أن يقطع الزمن في القصة دون اتصال الأحداث." (1) بحيث يصبح غير خاضع لهذا التسلسل، ويأخذ مجرى مختلفا لكنه بهذا الانتقال بين الأزمنة، يخدم فنية القصة وجمالياتها، ويلعب دورا في شد انتباه المتلقي، إذ في هذا الأسلوب " كسر لتوقعه ومفاجأة له، لأن قيمة العرض ليست بالمعلومات التي يضخها المتكلم فحسب، بل ما يحدثه من شد المتابع والسيطرة عليه وشد انتباهه من بين يديه قسرا عنه عن طريق الجدة في العرض." (2) فهذه التقنية تتطلب حضور المتلقي بكل كيانه حتى يتمكن من الوقوف على الأحداث وفهمها بشكل صحيح، وهذا هو الغرض المطلوب من القصة والخطاب القرآني عموما.

(1) -الإعلامية في الخطاب القرآني. دراسة في ضوء نظرية التواصل. زهراء البرقعراوي. كنوز المعرفة. ط 1. 2018

ص 100.

(2) - المرجع السابق. ص 100.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

وإن من أساليب القرآن في قطع الزمن من دون اتصال أحداث القصة، ما يسمى بـ " العرض الاسترجاعي " ⁽¹⁾. وهو كل استرجاع للماضي خارج زمن القصة وأحداثها، كما أشار إلى ذلك حسن بحراوي على اعتبار أن الاسترجاع " يحيلنا على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة. " ⁽²⁾ وقد نشأت عن هذه التقنية أنواع متعددة يمكن تلخيصها في ثلاثة استرجاعات:

أ- استرجاع خارجي: يعود إلى ما قبل بداية القصة.

ب- استرجاع داخلي: يعود إلى ماضٍ لاحق لبداية الرواية، وقد تأخر تقديمه في النص

ج- استرجاع مزجي: وهو ما يجمع بين النوعين. " ⁽³⁾ وسنأتي على تفصيلها لاحقا.

وإذا أردنا تتبع هذه التقنية في سورة طه، فسنجدها حاضرة بقوة في القصة، بحيث بدأت بذكر موسى عليه السلام للنار التي تراءت له، ثم تلاها كلام الله معه، ذكره فيه بطفولته وشبابه وما تخللها من أحداث بارزة في حياته، فالملتقي يحسب أن الأحداث ستبتدئ من حيث بدأت القصة في تلك اللحظة وأن الله تعالى سيكلفه بالرسالة حينها، "

(1) - الإعلامية في الخطاب القرآني. دراسة في ضوء نظرية التواصل. زهراء البرقعاني. ص 100

(2) - بنية الشكل الروائي. حسن بحراوي. المركز الثقافي العربي. ط 1. بيروت. 1990. ص 120.

(3) - بناء الرواية: دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ. سيزا قاسم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1984. ص 40.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ولكن القصة بدأت بأحداث معكوسة، وهذا خرق للعادة، إذ لم يراع التسلسل الزمني لنقل الأحداث، ثم ترجع القصة بعد ذلك إلى حدث إرساله إلى فرعون.⁽¹⁾

وقد " اختزل النص القرآني هذا العرض بقوله " حَدِيثُ مُوسَى "، وهو يشير بذلك إلى حديث مشهور في القرآن الكريم، وقصة تكررت في أكثر من سورة، عناصرها معروفة في ذهن السامع، ثم تبدأ الحبكة من حدث رؤية النبي موسى ﷺ للنار، وهذا الحدث يشكل نقطة البداية الذي تبدأ به الحبكة، وتتوارد الدراما تباعا مع تسارع الزمن وتقدمه، ثم يعرض البيان الإلهي بعد ذلك لموسى بالاصطفاء، ﴿وَهَلْ أَبْتَكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ٩ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ ١٠ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسِي ۖ﴾ ١١ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ﴾ ١٢ .
ويسمى هذا الأسلوب من العرض الدرامي كما ذكرنا سابقا بالعرض الاسترجاعي، و" كأن النص قد رجع إلى العرض في موضعه الأول، إذ تنتمي هذه الأحداث إلى زمن ما قبل نقطة البداية، فضلا عن كونها طفرة في التسلسل الزمني للقصة، إذ يمكن أن تستقيم الأحداث من غير ذكرها، لأن الحدث الذي أعقبها مباشرة كأنه استمرار لما سبقها، ﴿وَأَجْعَلِ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ٢٩ ﴿هَٰؤُلَاءِ أَخِي﴾ ٣٠ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرًا﴾ ٣١ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِ﴾ ٣٢ ﴿كَتَبْنَا بِكَ﴾ ٣٣ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ٣٤ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ٣٥ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسِي ۖ﴾ ٣٦ ﴿وَلَقَدْ

(1) – الإعلامية في الخطاب القرآني. دراسة في ضوء نظرية التواصل. ص 100

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ (١). فتظهر الأحداث منسجمة ومترابطة رغم هذا الاسترجاع، " فالسياق إذن لا يفتقر إلى العرض الاسترجاعي، لكن هذا العرض هنا في غاية الأهمية، لأنه وإن كان يتناول أحداثا ماضية، فإنه يكشف عن العناصر التي ستصنع الموقف المتأزم، وهو الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون، إذ ينتمي هذا الصراع إلى طفولة موسى، فضلا عن متابعته في شبابه لما قتل موسى نفسا خطأ. (٢)

إضافة إلى ما سبق، هناك مسألة مهمة أخرى وهي ارتباط الزمن بالمكان في القصة دائما، إذ أن أحدهما يفضي إلى الآخر بشكل تلقائي، فبينما يبنى " السرد القصصي الفني أحداثه على مكان وزمان موجودين سابقا، ولا دخل للسارد في مسألة الزمكانية إطلاقا، ولا يشغل باله في البحث عن بدايتها أو نهايتها، أو الربط بين المكان والزمان، ليجلي لنا مدى أثر الفاعلية المطلقة، لأن هذا الأمر ليس في متناول القدرة البشرية المحدودة الخاضعة لشروط الزمن، لهذا تنحصر العملية السردية في تتبع وعرض وصف الحركة والفعل والشخص، ضمن المكان والزمان الموجودين، أما القصص القرآني، فيقدم لنا أن العالم ليس مجرد جملة من الظواهر تحتاج إلى رفع الطلاسم عنها باكتشاف قوانينها، وإنما هو جملة من الظواهر التي ترتقي إلى رتبة الآيات، فتحمل معاني دقيقة تدل على أن لها

(١) – الإعلامية في الخطاب القرآني. مرجع سابق. ص 100.

(٢) – المرجع نفسه. ص 102.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

خالقا يتقدس عن مماثلتها.⁽¹⁾ ونعرض لمثال من سورة "طه" لقدسية المكان والزمان، فنجد في بداية السورة "إشارة سريعة غير مباشرة عن زمن التكليم وهو الليل، مندمجا مع مكان التكليم وهو الواد المقدس ﴿إِذْ بَعِثْنَا نَارًا فَيَقَالُ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي بَالِغُكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى الْإِنَارِ هُدًى ﴿10﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْحُوبٍ ﴿11﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿12﴾﴾. فقد أصبحت هذه الليلة مقدسة بعد أن اختصها الله سبحانه وتعالى بتكليم نبيه، وكذلك مكان التكليم، وهذا المزج بين الزمان والمكان يضيفي جمالية خاصة على الحكيم وينفي عنه صفة التساؤل والاستغراب، فيندمج سريعا في جو القصة، مترقبا بشوق باقي الأحداث.

ونجد القصة مرة أخرى قد تضمنت تقنية أخرى من تقنيات السرد الزمنية، فنجد هذه المرة يسترجع الماضي البعيد عندما ذكر الله موسى تثبيتا له - لما هو مقبل عليه من مواجهة لفرعون - عندما أوحى إلى أمه أن تقذفه في اليم، وينتقل به إلى ماضٍ أقرب عندما قتل الفرعوني، وكيف أن الله سبحانه حفظه وأنجاه في كل هذه المحن حتى وصل إلى الواد المقدس وحظي باصطفاء الله له واصطناعه له واختياره لدعوته، ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿37﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿38﴾ أَنْ إِقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿39﴾﴾ إِذْ تَمْشِي

(1) - إشكالية الزمن في القصص القرآني. ص 13

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

أَخْلَقَكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ
وَقَلَّلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
يُمْرِسِي ۖ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۖ ﴿٤١﴾ طه 37 - 41.

وهذه التقنية المتضمنة في القصة تسمى "بالاسترجاع الخارجي" وهي معروفة في الرواية والقصة على السواء، وقد سبق الإشارة إليها، إذ أنها تزيد من اندماج المتلقي مع وقائع القصة وشخصياتها، وتشده أكثر إلى متابعتها، فما ميز هذه الأحداث هنا، هو ذلك الانتقال السريع بينها من أقدمها زمنا إلى أحدثها وذلك في شكل مكثف جدا، لكنه بليغ لا يُخل بجمالياتها. وهو ما يمكن تسميته بـ "مدى الاسترجاع"، إذ إن للاسترجاع مدى يقيس المسافة الزمنية الفاصلة بين اللحظة التي يتوقف فيها المحكي، واللحظة التي يبدأ منها الاختلال الزمني. وقد حدده جيرار جينيت في ثلاث مديات وهي:

1- المدى الأسطوري

2- المدى البعيد نسبيا

3- المدى القريب

وإن مدى الاسترجاع في القصة القرآنية، إذا استبعدنا لفظة المدى الأسطوري، لما قد تثيره من إشكالية في التعبير، يتوزع بين ماضٍ بعيد جدا، وهذا ما نجده في قصة عيسى عليه السلام،

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيداً آمن خلال قصص: سورة "طه"

مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُخْذَرِّينَ ﴿٦٠﴾ فهذا الاسترجاع يعود إلى بداية الخلق، وهو استرجاع

بعيد جداً⁽¹⁾، وماض بعيد نجده في قصة موسى عليه السلام أيضاً كما سبقت الإشارة إليه، وبين

ماض قريب، كما جاء في الآية ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ

السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٥﴾ فقد وقعت الفتنة مباشرة بعد ذهاب موسى عليه السلام للقاء ربه، وقد أخبره

الله تعالى بأمر حصل في وقت قريب من وقت حضوره إليه وتلقيه الوحي.

ولقد جاءت هذه الاسترجاعات في قصة موسى كما ذكرنا متشابهة مع ما جاء في

سورة الشعراء في شكلها وبنائها، "إلا أنها تختلف في الغرض، وقد هدفت إلى أمرين هما:

-الأول: أراد أن يعلم موسى أن الأمن يتحقق بالاعتماد على الله، وأن أسباب النصر

تتحقق في ذلك الاعتماد، وليس بمقدور أي إنسان حتى لو كان فرعوناً أن يؤذي إنساناً

آخر قد حفظه الله، فجاءت هذه التذكيرات لتطمئن قلبه، وتزيل عنه الخوف.

-الثاني: على موسى أن يتهياً لمجابهة فرعون الذي رباه صغيراً، وكبر أمام عينيه، ثم

قتل القبطي وهرب من مصر، ولا شك أن موسى سيواجه بهذه الحقائق من قبل فرعون

لإفشال مهمته، فجاءت هذه الاسترجاعات تذكر موسى بماضيه، ليكون مستعداً

للقوف أمام فرعون، وإسقاط ما لديه من حجج وذرائع.⁽²⁾

(1) - البنية الزمنية في القصة القرآنية. الاسترجاع والاستباق إبراهيم نايف. دار الكتب العلمية. لبنان. ص 59.

(2) - المرجع نفسه. ص 31.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وقد مثلت هذه الاسترجاعات مديات مختلفة بعيدة تقترب كلما اقتربت من بداية

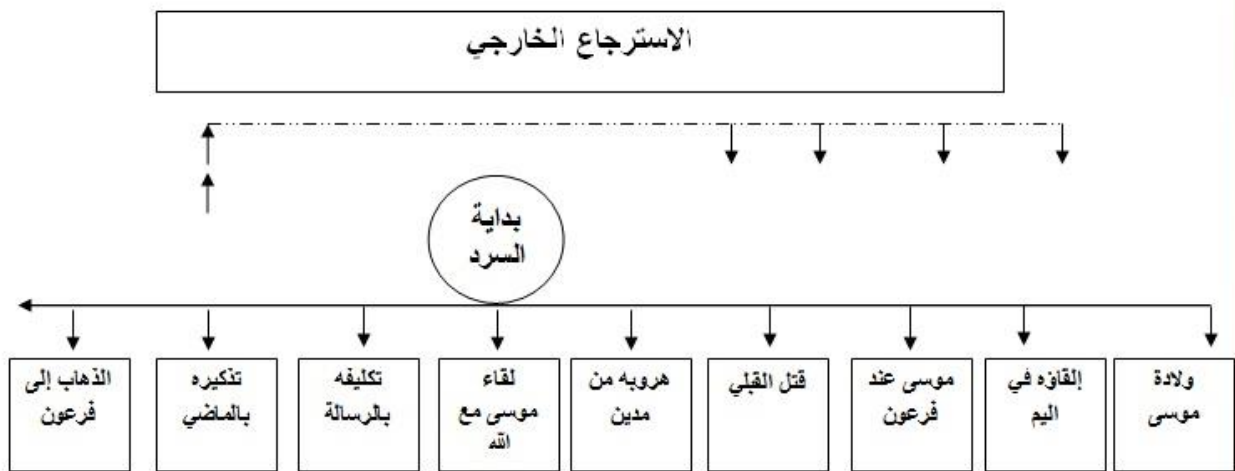
السرد، وسعّتها خمس آيات توزعت على عدة مراحل، وكما سيأتي:

- 1- ولادة سيدنا موسى
- 2- تربيته في بيت فرعون
- 3- قتله للقبطي
- 4- خروجه من مدين
- 5- لقاءه مع الله وتكليفه بالرسالة.

وإذا " نظرنا إلى الأفعال الماضية التي وردت في هذه الآيات (مَنْنَا، أَوْحِينَا، أَلْقَيْتَ، فَرَجَعْنَاهُ، قَتَلْتَ، فَنجَيْنَاكَ، فَتَنَّاكَ، لَبِثْتَ، جِئْتَ.) نجدها مثلت محاورا ارتكزت عليها قصة موسى، إن كل فعل منها يدل على فترة زمنية مثلت رجوعا إلى ماض بعيد، كسر تتابعية السرد، ثم يعود بعد ذلك إلى الصعود من النقطة التي وقف عندها".⁽¹⁾ وهذا المخطط يوضح الاسترجاعات الزمنية الخارجية في قصة موسى في سورة طه:

(1) – البنية الزمنية في القصة القرآنية. الاسترجاع والاستباق. ص 58.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "



(1)

(1) – البنية الزمنية في القصة القرآنية. الاسترجاع والاستباق. ص 58

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

كما نجد أيضا تقنية زمنية أخرى إذا حاولنا إسقاط هذا المفهوم على مفهوم مشابه في الدراسات الحديثة الغربية والعربية للبنية السردية فسنجد بأن مصطلح الحذف هو الأنسب والأمثل لهذا الوصف، فبالنسبة لجينيت مثلا: " فالحذف هو أقصى سرعة يمكن أن يسير بها السرد، وتتمثل في تخطيه لأحداث بأكملها دون الإشارة إليها، وكأنها ليست جزءا من المتن الحكائي، كإلغاء التفاصيل الجزئية والأحداث قليلة الأهمية في سياق ما.. إن مدة السرد تساوي صفرا، بينما مدة الحكاية تشغل حيزا في التاريخ طال أم قصر"⁽¹⁾.

وينقسم الحذف إلى ثلاثة أنواع حسب " جينيت":

1 - " حذف صريح Explicite:

بالنسبة للحذف الضمني فإنه " ينتج إما عن إشارة (محددة أو غير محددة) إلى المدة الزمنية المحذوفة، وفي هذه الحالة فإن هذه الإشارة هي التي تشكل الحذف بما هو مقطع نصي، والذي لا يساوي عندئذ الصفر تماما، وإنما عن حذف مطلق (درجة الصفر في النص الحذفى)، مع إشارة إلى الزمن المنقضي عند استئناف الحكاية، وهذا الشكل الأخير حسب جينيت حذف بصرامة تامة، وهو ليس أكثر إيجازا بالضرورة، لكن النص يومية في هذا الشكل إلى الإحساس بالفراغ السردى أو الثغرة إيماء أكثر تماثلية. ويمكننا أن نمثل

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم. ص 80.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

لهذا بنموذج من قصة آدم عليه السلام في سورة "طه" حين ابتدأت الآية الكريمة ب: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾⁽¹¹⁵⁾، وهنا نجد حذفاً صريحاً لما كان قبل أن يسكنه الله الجنة مع زوجته من خلق وتكوين وإعلام للملائكة بأمره والحوار الذي دار بينهم وبين الله في شأن خلقه.

2- حذف ضمني Implicite

و هذا الحذف " لا يصرح في النص بوجوده، وإنما يستدل عليه من ثغرة في التسلسل الزمني، أو انحلال للاستمرارية السردية." ⁽¹⁾ ونمثل له هنا بهذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾⁽¹¹⁶⁾ فَقُلْنَا يَنْتَظِرُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾⁽¹¹⁷⁾ هنا نجد حذفاً ضمناً واسترجاعاً في نفس الوقت، فالله تعالى لم يذكر ما دار بينه وبين إبليس من حوار، فاكتمى بالإشارة إلى رفضه، وانتقل إلى خطاب آدم وزوجه.

(1) - البنية الزمنية في القصة القرآنية. مرجع السابق. ص 80.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا أمن خلال قصص: سورة "طه"

3 - حذف افتراضي Hypothétique

وهو أكثر أشكال الحذف ضمنية، وتستحيل موقعته، بل أحيانا يستحيل وضعه في أي موضع كان، وإنما ينم عنه استرجاع ما بعد فوات الأوان⁽¹⁾. ومن أمثلته عندما يجب فرعون على كلام موسى، فلا يذكر ما قاله موسى، لأنه سبق أن أخبره به الحق تبارك وتعالى، فالقصة حذفت لحظة مخاطبة موسى لفرعون، وهي مساحة زمنية قصيرة بالنظر إلى أحداثها، ونجد أن الغرض لم يكن الاختصار أو الإيجاز فقط، "بل هو وسيلة تعبيرية قصدية يُعَدَّل في تركيبها عن الأصل إلى بنية تركيبية أقل لفظا وأغزر معنى، فهو تقنية أسلوبية وطريقة خاصة يطلبها المقام ﴿ فَإِنِّيهِ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (47) وفي ذلك تجلّ واضح لروعة الصياغة وتوظيف الزمن بشكل سلس دون تكرار أو تمديد.

كما نجد شكلا آخر من أشكال التوظيف الزمني الدقيق، عندما يتواعد الجمعان - موسى وهارون مع فرعون والسحرة - فيتم التطرق إلى تحديد الزمان والمكان بشكل دقيق، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴾ (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشِرَ النَّاسَ ضُحًى ﴿ (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿ (60) والسبب هذه المرة هو ضرورة سَوق التوقيت والفضاء الذي ستم فيه

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن. ص 80.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

المواجهة، وذلك للإشارة إلى أهمية حضور أكبر عدد من الناس لأنه يوم مشهود بالنسبة إليهم ومشهور، كما أن الضحى هو أنسب وقت لظهور المعجزات التي سيأتي بها موسى واضحة جلية، لا تدع مجالا لشك المشككين ولا ريبة المرتابين، ولذلك جاء التفصيل فيها، وهذا أيضا شكل آخر من أشكال حضور الزمن داخل القصة. فبعكس القصة الأدبية العادية، فإن " الإشارة إلى الزمن تكون سريعة بعكس الرواية " ⁽¹⁾، لكننا نجد القصة القرآنية قد جمعت بينهما معا، إذ يمكن الإشارة إلى الزمن سريعا، ﴿إِذْ بَرَأْنَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدى ١٠﴾ فَلَمَّا أَبْنَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ١١ إِنِّي أَنَارُكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢﴾. ويمكن التفصيل فيه بدقة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

إن من أهم مقومات القصة الزمن " والقصة القرآنية - بما هي في الأغلب - سيرة نبي عاش في قومه، ضمن ظروف محددة، فإنه لأمر طبيعي أن تتبلور هذه القصة من معطيات تلك الظروف، وأن تنطبع أدبيتها بطوابع الزمان والبيئة بشكل أو بآخر، وإذا كانت الوقائع الحياتية وأحداثها، مشروطة بصرامة زمنية يستحيل معها وقف جريان الزمن، أو مراجعته أو استمهاله، فما حدث قد حدث، ولا يمكن بحال من الأحوال نقله أو تعديله أو إرجاؤه، فإن أدبيات الإنسان، رغم هذه الصرامة التي يتمظهر فيها الزمن، استطاعت فنيا، وعن طريق الخبر والرواية ونقل الوقائع، أن تتصرف في منطق الواقع،

(1) - النص السردي. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. ص 19.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وأن محور في أحداثه، وتتفنن في استعراض تلك الأحداث بالتمديد، أو بالضغط والتكثيف، كما استطاعت أن تستمهله في استحداث مرويّات، وأخبار ذهنية لغايات تنفيسية أو تعليمية وما إلى ذلك..⁽¹⁾

ف نجد القصة في سورة طه مثلا " تبدأ باستباق تمهيدي (داخلي) ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ

ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَانْسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾ ، بعد ذلك بسجود الملائكة وامتناع إبليس ،

وتحذير آدم من عداوته، لكنه ينسى التحذير ويستمع لوسوسة الشيطان ويعصي ربه

فيغوى، ﴿ ثُمَّ أَجْنِبْهُ رَبُّهُ فَلَبِئْسَ الْفِتْنَىٰ وَهُدًى ۝١٢٢﴾ ، هكذا في إيجاز سريع، لنعود إلى

المشهد مع الهبوط إلى الأرض، الذي يحمل معنى التجدد والتكرار، تجدد العداوة وتكرار

الرسالات ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝١٢٣﴾ ، ويتحول إذ ذاك الزمن إلى المشهد

الاستباقي (الخارجي) حيث تنتقل إلى الآخرة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ۝١٢٤﴾ ، وهنا أيضا يبدأ السرد بمفارقة واسعة

المدى، وما تلبث أن يتلاشى مداها مع المشهد الحوارى الذي يسيطر على السرد فيلغى

المسافة الفاصلة بين زمن السرد وزمن الحكاية، ويصبح من ثم زمن الحكاية هو زمن

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية للسرد الإعجازي. سليمان عشراي. ص 115.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

السرد. ⁽¹⁾ وهذه التقنية قد استخدمت في القصة القرآنية بشكل واسع، وترجع أهميتها إلى أنها تضيف إلى القصة اتساعا زمنيا وشساعة يستطيع معها المتلقي أن يغوص عبرها ويولد أفكارا مرتبطة بالسياق الذي جاءت فيه، فيشعر كأنه جزء منها.

وإذا نظرنا إلى الأدبية الإنسانية، نجد أنها كانت " تطوع شرط الحادثة الزمانية، أو تعدل فيها، أو تختلقها خلقا، ضمن سردية واقعية أو خيالية، أو مزيجة منهما، والقرآن في قصصه قد صدر عن وقائع تاريخية تتمحور حول شخصيات أنبياء الله ورسله، وأقوامهم وأمهم.. ⁽²⁾.. ليس فيها زيادة أو جنوح أو خيال، فللزمنا المكان في القصة القرآنية دور محوري فيها، لا يكون مجرد إضافة فنية أو جمالية للنص. وذلك بخلاف الرواية مثلا، " فالزمن داخل الرواية، لا يطرح غالبا إلا فاصلا بين التجارب، ويقتصر دوره على تحديد مقروئية النص ومقروئية التحولات من خلال تصنيفها داخل وعاء زمني معين ⁽³⁾، وهذا ما يختلف فيه عن القصة القرآنية.

وبهذا نرى أن القرآن الكريم " كانت قصته مشوقة تمام التشويق، لما رآه كثير من النقاد المحدثين الذين رأوا في مظاهر التشويق أن لا تكون عقدته مفتعلة، وأن تتسق المقدمة مع النتيجة، وأن لا تكون العقدة كاللغز الذي يحار في فكّه، وهو ما يطلق عليه

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن. ص 85.

(2) - الخطاب القرآني. ص 115.

(3) - النص السردى. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. ص 161.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

بالعقدة المضادة، بل إن العقدة في القصة القرآنية مهما استغلق هدفها، فسرعان ما يحكي القرآن الحل لها، ويأتي بالنتائج المحققة التي من ورائها العظة والعبرة، فليس في القصة القرآنية ما يسمى بالعقدة المضادة.⁽¹⁾ وهو ما كان يعتمد إليه بعض مؤلفي القصة الحديثة، عندما يحاولون الوصول بالعقدة إلى نقطة مبهمة، ظنا منهم أن ذلك سيزيد من تشويق المتلقي، وسيمنح القصة تميزا وفراة. فكانت القصة القرآنية مستغنية عن هذه الوسائل ومتفوقة عليها.

والحقيقة أن القصة القرآنية تحتوي أساليب زمنية كثيرة ومتنوعة، حاولنا التركيز على بعضها دون الأخرى، لأن المجال لا يتسع لذلك. وهي أساليب تخدم الهدف الأساسي للقصة القرآنية التي تجعل الجمال سمتها الأساسية، من أجل بلوغ الغاية الدينية، إذ إن التحديد الزمني أو التاريخي أو المكاني، لم يكن من أهداف القصة القرآنية عموما، فتحديد الزمان والمكان لا يذكر إلا إذا كان يخدم الهدف الأساسي للقصة، ومع ذلك فإنه عندما يسوقه فإنه يبرع في إبرازه، فلا يخلو من فنية واجمالية التي تتميز بها كل مكونات القصة القرآنية.

(1) - الجانب الفني في قصص القرآن الكريم. عمر باحاذق. ص 100.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الرابع: بيئة القصة وفضاؤها

لا بد للقصة الأدبية الإنسانية من بيئة تُولِّدُها وتساهم في بنائها وبلورة أحداثها وشخصياتها، وهذه البيئة هو ما يعبر عنه بالفضاء في المفهوم الأدبي، و"إن الفضاء/ L'espace كتصور مفهومي أولا وكأداة إجرائية ثانيا، قد تجاوز معناه اللغوي/ المعجمي، الذي يعني في اللغة العربية أساسا المكان الطبيعي أو الجغرافي، المشترك أو المحايد."⁽¹⁾ ويؤكد الباحث السيميائي لوتمان هذا المفهوم، في تعريفه للمكان، إذ يقول "هو مجموعة من الأشياء المتجانسة (من الظواهر، أو الحالات، أو الوظائف، أو الأشكال المتغيرة...) تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة/ العادية مثل (الاتصال، المسافة...) "⁽²⁾، فهي إذن مرتبطة بشكل أساسي بالجغرافيا وكل ما يتعلق بها من فضاء وأماكن.

و يمكن اعتبار كلمة " فضاء في اللغة العربية على المستوى المعجمي معادلا مناسباً للفظ الأجنبي Espace الذي يعني معجمياً أيضاً: الفسحة، المسافة، يعني كل فراغ أو اتساع حيث يمكن أن تتموضع الأشياء وتتخذ حجمها أو شكلها أو حركتها"⁽³⁾ وهو بهذا المعنى يوسع المفهوم ويجعله مرونة وقابلية للتفكيك والتأويل.

(1) - الفضاء الروائي في الرواية المغربية. ص 35

(2) - تحليل النص السردي. ص 99

(3) - الفضاء الروائي في الرواية المغربية. ص 40.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وللفضاء داخل أي نص سردي - قصة كانت أو رواية أو حكاية.. - أهمية بالغة، بل لا بد منه، باعتباره "شرطا للوجود الإنساني، وتعيّنه الذاتي لا يتحقق إلا به وفيه. والحضور والغياب يكونان في الفضاء، فحضر الشخص، أي حل في فضاء، وغاب، أي حل في فضاء آخر. الفضاء هو البدء والمنتهى".⁽¹⁾ فهو دعامة أساسية من دعائم القصة والرواية بشكل عام.

وإذا عرفنا أن المكان في الحقيقة هو شيء محدد ومعروف بالضبط، يسهل علينا تعيينه "فإن الفضاء في القصة أو الرواية يبدو لفظيا وغير حقيقي، بل إنه يتشكل من خلال تجارب الشخصيات وما تعيشه،" فهو فضاء رمزي مرتبط بالذات الإنسانية بشكل مباشر، وذلك من خلال ما يحلم به الإنسان أو يتذكره، أي من خلال ما ينسجه الإنسان من علاقات بالمكان، سواء كانت علاقات ألفة وحنين وانجذاب وتذكر، أو علاقات عداء ونفور وابتعاد ونسيان.⁽²⁾ وهو ما يعني "تجاوز المنظور التقليدي عبر النظر إلى المكان باعتباره وصفا يتجاوز الأبعاد الهندسية وعلاماته الجغرافية، لبحث في قيمته الأنطولوجية اعتمادا على فاعلية الخيال".⁽³⁾ وهو ما استخدمه القصص القرآني أسلوبا قبل قرون، كما استخدمه في أسلوب الزمن أيضا.

(1) - شعرية الفضاء الروائي. جوزيف كيسنر. تر: لحسن احمامه. إفريقيا الشرق. 2003. ص 7.

(2) - تحليل النص السردى. ص 105.

(3) - المرجع السابق. ص 104.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويمكننا القول إن الفضاء أعم من المكان - المحدد - وأشمل، لارتباطه بالإنسان وتجاربه وانفعالاته وبما ينسجه من علاقة تفاعل تطبعها بطابع خاص. حيث يساهم كل منهما في تشكيل الآخر وتحديد ملامحه الأساسية.

كان هذا بالنسبة للسرد الأدبي، والمفاهيم الجديدة التي أصبحت تطبق عليه، فهل يمكن أن نطبقها على القصة القرآنية، وهل هناك تداخل بين الفضاء والمكان، على اعتبار أن الأول عام والثاني خاص، وهل للفضاء نفس الأهمية التي يكتسيها في القصة أو الرواية الأدبية الإنسانية .

بالنسبة للمكان في القصة القرآنية، فإنه " لا يأخذ قيمة تعبيرية إلا ضمن السياق التوجيهي للقصة في كليتها.. وحدثية القصة هي التي تحدد إطارها المكاني." ⁽¹⁾ وهذه الخاصية تختلف فيها القصة الأدبية مع القصة القرآنية، فالمكان قد يأخذ بعدا دينيا أو اجتماعيا.. دون أن يشارك الإنسان في تحديده أو تأطيره، ومن غير أن يكون ناتجا عن تجاربه وانفعالاته، لأن تحديده رباني ومرتبط بكل ما هو حقيقي وليس متخيلا، لذلك فالمكان في القرآن هو " مادة توصيل، وإيحاء، لذلك فهو يأتي صريحا، مباشرا له دلالة مرجعية إشارية، كما هو حال أسماء الأمصار (مصر، يثرب، سيناء، الطور، حنين..)، أو الأماكن المعلومة التي اكتسبت علميتها من خلال إثبات السياق القرآني لها، مثل سدره

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية للسرد الإعجازي. ص 170 .

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المنتهى، أو الكهف في قصة أصحاب الكهف، أو هو يأتي ضمينا، وهذا اعتبار لغائية الخطاب لقرآني العامة.. لذلك فإن أدبية الخطاب القرآني وإن تخطت أحيانا الإشارة الصحيحة إلى المكان، فإنها تظل موصولة به، بحكم مرماها الكلي.⁽¹⁾ فالأدبية القرآنية " لم تخص المكان من حيث هو حيز مادي، أو فضاء فيزيقي ماثل أو متخيل بتنويعها، إلا لكونه أحد الموضوعات الأساسية التي ارتكز حولها الخطاب القرآني سواء، وهو يبني مجالته الحسية، بوصف مظاهر العظمة المادية المتجلية فيه، أو هو يستدل بآثار ذلك الكون الحسي، عن ألوهية الخالق، رب العالمين.⁽²⁾ وبذلك فهو أحد العناصر الأساسية التي تنأسس عليها القصة القرآنية، وتمنح له أبعادا مختلفة، حسب ما يقتضيه السياق.

من هنا " تأخذ المكانية القرآنية هذه القيمة التعبيرية المطلقة التي تنسجم مع جوهر الرسالة، المتمثل في بناء الإنسان، من خلال استثمار العوامل المحيطة به، وفي مقدمتها المكان، وربطه بها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فالعقل الإنساني مفطور على هذا الإحساس بالمكانية التي لا مندوحة له عن التحرك ضمن شروطها في كل ما يأتي من تفكير، أو من مواضع واقعية، أو تصورية، جعلت من عنصر المكان مرجعيتها سواء على مستوى التقرير والمباشرة، كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ

السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ إِلَهِ أَنْفَنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (88) النمل 88، أو على

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية للسرد الإعجازي، ص 157.

(2) - المرجع السابق. ص 157.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

مستوى التصوير والمجازية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيغُهُ يَحْسِبُهُ

الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيَهُ حِسَابَهُ ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ النور 39

فالمكان إذن من العناصر الأساسية للقصة، لا يقل أهمية عن سواها من العناصر، ويظهر المكان في القصص القرآني في الوقت المناسب، حيث تستدعي الحاجة إليه، " كما جاء في بداية سورة طه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٢﴾ فليس يغني في هذا المقام أن مجهل المكان الذي كانت فيه المحاورة بين الله تعالى وموسى عليه السلام، لما يضيفه على الجو العام للقصة من عظمة ورهبة وجلال، يستبد بالنفوس، ولما يشيعه في قلوب السامعين من مشاعر الحب والدهشة في آن واحد. "أما إذا لم يكن للمكان هذه الخاصة التي تجعل له وضعاً متفرداً بين الأمكنة بحيث تهب منه على الحدث أنساماً معطرة، أو أنفاساً محترقة، فإن القرآن لا يلتفت إليه، ولا يجعل لذلك ذكراً. "(1) وغير ذلك فهو لا يسوقه ولا يوليه أهمية، لأنه عندها لا يخدم الغاية الدعوية.

بعد هذه المقاربات لمفهوم المكان في القصة القرآنية، نبتغي بعدها التطرق للفضاء في قصة موسى، مع الحفاظ على خصوصيتها باعتبارها خطاباً قرآنياً.

(1) - القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. ص 93

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

1- أ- الجغرافيا القصصية (التعيين الطبوغرافي)

يمكن أن نطلقها على كل ماله علاقة بجغرافية القصة، أماكنها، تضاريسها من جبال وأنهار وأراضي، وفي قصة موسى نجد أن هذه الجغرافيا موزعة بين أماكن متنوعة أولها، الوادي المقدس الذي جاء ذكره في مطلع السورة، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾⁽¹²⁾ والوادي كما هو معروف مكان منخفض بين جبلين أو سهلين يجري عادة به الماء، وهو مكان يوحى بالهيبة والرهبة والعلو لما يحيط به مرتفعات، وقد شكل هذا المكان انطلاقة مرحلة جديدة ومفصلية في حياة موسى عليه السلام، لذلك فهو يحتل مكانة هامة وبارزة في القصة، ويأتي بعده في الأهمية نهر النيل الذي سيحمله إلى جانب قصر فرعون، الذي يقع على ضفافه، ويبدو أنه مكان منبسط محاذ لمكان إقامته، ﴿أَنْ إِقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾. "أي أيها الماء خذ الصندوق، وألقه في ساحل النيل، عند قصر فرعون"⁽¹⁾، كما يمكننا أن نتخيل الفضاء الذي وقعت فيه المواجهة بين موسى وفرعون وسحرته قريبا من قصره في مكان مرتفع قليلا على الأرض، يحيط به منبسط فسيح وواسع، حتى يتمكن الناس من مشاهدته، ويبدو أن المكان قد اختير بعناية فائقة، لأن ما سيحدث فيه سيكون حدثا مفصليا ومهما لكلا الطرفين.

(1) - حياة موسى. محمود شلبي. دار الجيل. بيروت لبنان. ط2. 1987. ص47.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

يمكننا من خلال هذه الإطلالة السريعة أن نتخيل تضاريس الأمكنة ودورها الكبير في إبراز أحداث القصة وسيرورتها.

كما يمكن أن نُفَصِّل قليلا في تناول هذه الفضاءية، فإذا توجهنا إلى الرواية بداية، فإننا فسنجد توافقات واختلافات بينها وبين القصة القرآنية، " فالفضائية داخل الرواية تقدم لنا مستويات متنوعة من الانفتاح، بحسب ما هل تبدأ الرواية في مكان واحد، ثم تتواصل في أمكنة متباينة، أم تتوزع تلك الأحداث على كل النطاقات، فالفضاء يكون محدودا، أو مغلقا، بل خانقا حين يظل الحدث والشخص حبيسي الإطار المعين لهما منذ البداية لا يتجاوزه. "(1) ولذلك " فقد أصبح يوظف الفضاء المفتوح في القصة، أو كما أسماه جون بول كولدنستين "بالفضائية المتشظية" ". (2) أي التي تنفتح على أوسع مدى، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك سابقا.

وقد جاء الفضاء في قصة موسى على مستويات عدة منها: الفضاء المفتوح، والفضاء المغلق أو المحدود، يقول تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَىٰ الْنَّارِ ۖ هُدًى ۖ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ۖ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ﴾. فنجد الفضاء منفتحاً لأبعد الحدود، وموسى تائه في الفلاة الشاسعة، يلتمس مكانا يأوي إليه أو يجد فيه ضالته،

(1) - الفضاء الروائي. ت. عبد الرحيم حزل. أفريقيا الشرق. 2002. ص 23.

(2) - المرجع السابق. ص 23

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويتنقل بعد ذلك إلى مكان مغلق وهو قصر فرعون، ثم يعود بعد ذلك إلى فضاء مفتوح مرة أخرى وهو الساحة العامة لأجل المواجهة مع فرعون وسحرته، ويظل هذا الانتقال الفضائي حاضرا بقوة في القصة، والغرض من ذلك أن النفس تميل إلى التغيير والتنويع، فنجد الشخصية دائمة الحركة والتنقل، إضافة إلى الغاية الدعوية من القصة، وذلك حتى لا يمل المتلقي ويصيبه السأم، فيبقى انتباهه مشدودا إليها.

لذلك يستحيل فصل المكان عن الزمان بأي طريقة، لأنهما كُلاهما يكمل أحدهما الآخر- ليس ذلك في القصة أو الرواية فقط، بل في جميع الأشكال السردية وحتى الفنية البعيدة عن ما هو مكتوب.

وبالنسبة لمنيف " فإن البشر هم مادة الربط بين الزمان والمكان، وهذا يحيل إلى وتيرة الجهود الإنسانية، فروح الزمان والمكان هم البشر، وهما متلازمان، ونرى من إشارات هذا التلازم، عدم ثبات المكان، إذ إنه متحول أبدا عبر الزمان.⁽¹⁾ فالإنسان هو الذي يخلق الحدث الذي يستدعي ضرورة التواجد المكاني والزمني.، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان أيضا هو الذي يعطي لهذه الأمكنة روحا ويطبعها بطابعه بحسب ما يعيشه من تجربة داخلها، ويمكن التمييز بين هذه الأمكنة، وتصنيفها إلى قطبين متقابلين: " أمكنة الألفة، والأمكنة المعادية، فأمكنة الألفة هي التي نحب، وهي أمكنة مرغوب فيها،

(1) - الفضاء ولغة السرد. ص 10 .

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وترتبط بقيمة الحماية التي يمتلكها المكان، والتي يمكن أن تكون قيمة إيجابية، قيم متخيلة سرعان ما تصبح هي القيم المسيطرة، إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية فحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، إننا ننجذب إليه لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية، وبالمقابل فإن المكان المعادي أو العدائي، هو مكان الكراهية والصراع، ولا يمكن دراسته إلا في سياق الموضوعات الملتهبة انفعاليا والصور الكابوسية⁽¹⁾. ونمثل لذلك في قصتنا إذ أننا سنجد عددا من أمكنة الألفة ومن الأمكنة المعادية بالنسبة لموسى، يمكننا توضيحها كالآتي:

(1) - تحليل النص السردي. ص 105.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

الأماكن الأصلية	أمكنة الألفة	أمكنة الوحشة
الوادي المقدس	رغم أنه مكان موحش، إلا أن تكلم الله مع موسى فيه، قد غير حالته إلى مكان أليف بالنسبة له.	
التابوت	الصندوق الذي وضع فيه موسى أثناء ولادته، وعادة هو مكان موحش بالنسبة للإنسان، لكنه كان لموسى مكان آمنا يحميه من المخاطر التي كانت تنتظره	
اليَمُّ	نهر النيل الذي أخذ موسى إلى مكان إقامة فرعون، وهو أيضا مكان موحش بالنسبة لرضيع لا يملك من أمره حولا ولا قوة، لكنه كان وسيلة أساسية لنقله بأمان إلى حيث قدر الله أن يكون.	
مدين	المكان الذي فر إليه هاربا من	

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

	مصرًا وبات به غريبا، أصبح بعد ذلك موطنًا ثانيا له.	
قصر فرعون	ورغم أنه يشكل أسوأ مكان قد يكون فيه موسى، إلا أنه عاش فيه فترة من حياته منعما.	المكان الذي كان يشكل لموسى مكان الكراهية والصراع.
ساحة المواجهة	كانت بالنسبة لموسى مكانا يبعث على الخوف والرهبة لما صار بها في البداية من أحداث عظيمة، لكنها سرعان ما أصبحت مكانا يبعث على الطمأنينة والارتياح، والثقة بوعده الله.	

البحر	كان عذابا لفرعون لكنه كان مكان نجاة لموسى وبني إسرائيل.	

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

نلاحظ أن الغريب في قصة موسى أن الأماكن التي يفترض أن تكون أماكن وحشة وغربة وخوف، كانت بالنسبة إليه أماكن راحة طمأنينة وحماية، وأحيانا كانت أماكن ألفة فصارت أماكن وحشة بسبب تغير الظروف والأحداث، كقصر فرعون.

يشكل المكان إذن حمولة فنية وقيمة للعمل الأدبي، فهو "لا يرى بالعينين وحسب، وإنما هو وسط محمل بالقيم التي لا شأن لها بذكر الأشكال والألوان." (1) وهو في القصة القرآنية أشد تأثيرا وأقوى فاعلية، ويمكن أن نمثل لهذا الأمر في واقعة تكليم الله لموسى عندما أخبره الله تعالى أنه بالواد المقدس، فدلالة الفضاء هنا لها حمولة قيمة كبيرة، فاختيار الله ﷻ لهذا المكان ليكون مدار الحوار بينه وبين نبيه موسى كان مقصودا ومهما: ﴿إِنِّي أَنَا

رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (12)، "إنك في الحضرة العلوية، فتجرد بقدميك، وفي الوادي الذي تتجلى عليه الطلعة المقدسة، فلا تطأه بنعليك." (2) فعلى عكس الروايات، حيث يكون الفضاء المغلق أو الداخلي أكثر أمانا وأشد حميمية من الفضاء المفتوح أو الداخلي حيث إن "كثيرا من المؤلفين قاموا بالمقابلة بين الأمان الذي يكون في الغرفة المغلقة والطابع العدواني المميز للخارج" (3)، فنجد نحن موسى ﷺ قد وجد الأمان في قفار الفلاة، ووجد الطمأنينة في ظلام الصحراء، "لقد رأى موسى النار في

(1) - الفضاء الروائي. ص 57.

(2) - في ظلال القرآن. ص 2331.

(3) - الفضاء الروائي. ص 58.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفلاة، فاستبشر وذهب ليأتي منها بقبس يستدفع به أهله، فالليلة باردة وليالي الصحراء باردة قارة، أو ليجد عندها من يهديه إلى الطريق، أو يهتدي على ضوئها إلى الطريق.. لقد ذهب يطلب قبسا من النار، ويطلب هاديا في السرى، ولكنه وجد المفاجأة الكبرى.. إنها النار التي تدفع الأرواح لا الأجساد، النار التي تهدي لا في السرى ولكن في الرحلة الكبرى، ﴿ فَلَمَّا أَبْنَاهَا نُودِيَ يَتْمُومِي ۖ ۝١١ ﴾.. إن القلب ليجف، وإن الكون ليرتجف، وهو يتصور مجرد تصور ذلك المشهد.. موسى فريد في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب لذلك النداء، ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ ۝١٢ ﴾⁽¹⁾. فهذا الفضاء له هيئته الخاصة التي اكتسهاها من الأحداث التي وقعت فيه، ولو أنه يبدو موحشا، إلا أنه أصبح بفضلها أأمن مكان وأحسنه وأقربه للنفس.

وعلى هذا المنوال فقد " ابتكر الروائيون صورا عديدة ومتعددة للفضاء الضاغط، كما ابتكروا صورا أخرى للفضاء الحامي والمطمئن. وصوروا تناوب فضاء الراحة وفضاء الحركة. وأبدعوا صورا لفضاء السعادة: فضاء المشي والتنزه، وفضاء الملاذ والحمى. فهل يوجد نموذج جامع للفضاء السعيد؟ إن هذه الصفة تستدعي أن يتحقق في هذا الفضاء التضامم والحميمية ومشهد الشساعة."⁽²⁾ وهذا ما نجده متحققا في مشهد تكليم الله

(1) - في ظلال القرآن. 2330

(2) - الفضاء الروائي. ص 62

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

لموسى. وفي مشهد سجود السحرة، حيث أصبح مكان المواجهة والاستعلاء مكان طمأنينة وخضوع تام ورضا وتسليم لأمر الله.

كما نجد في قصة موسى أيضا تقنية أخرى استخدمتها بعض الأشكال السردية الغربية بالخصوص، فما كان معروفا في الرواية مثلا من ذكر لفرار البطل وملاحقته، إذ إن " أنجح روايات المغامرة تلك التي تحكي مسيرا طويلا عبر الفضاء.. وأولى صيغ هذه التنقلات داخل الفضاء هي الفرار والملاحقة، فبطل رواية « Iris de suse » ينخرط في فريق يتولى قيادة قطيع عظيم صوب المراعي، فرارا من المهربين الذين كانوا شركاءه وأصبحوا خصوما له، ويعتبر سيلين كذلك، من روائبي الفرار الدائم ففيردينان في رواية « Voyage au bout de la nuit »⁽¹⁾ يكون دائما على أهبة الاستعداد للفرار، فهو لا يني باحثا عن شيء ما في مكان بعيد، فالفرار يعتبر سمة أساسية لهذا البطل النقيض.⁽²⁾ وإننا في قصتنا القرآنية لنجد أمرا مشابها لما سبق الحديث عنه من فرار البطل والخوف من ملاحقته، ﴿ وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتْنَاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ

جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾ لكن الفارق هنا هو أنه في قصة موسى شكل هروبه من فرعون والمصريين ابتلاء من الله حتى يمحّصه ويهيئه لأمر المهمة الكبرى في مواجهة فرعون يذكره بما حدث معه في شبابه عندما قتل فرعونيا نجدة لرجل من بني إسرائيل،

(1) - الفضاء الروائي. ص 66

(2) - نفسه. ص 66

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيداً آمن خلال قصص: سورة "طه"

فاغتم وحزن لأجل ذلك، وزاد همّه خوفه وهربه من مصر خشية قتله، فأصبح مغتربا عن أهله ووطنه، إلى أن تزوج واستقر به المقام بمدينة يرمى غنم صهره بعد أن كان يعيش عيشة الرفاه في قصر أكبر ملوك الأرض فشكّلت كل هذه الأماكن فضاءات للهروب والتنقل بينها عند موسى.

وخلاصة لكل ما سبق، فقد استطاع القصص القرآني أن يصل بتوظيف عنصر الزمان والمكان حد الإعجاز، وأن يبعثهما من أجل المشاركة في الحدث القرآني وأن يضع كل واحدة منها في مكانها المناسب، لتتشكل الصورة الكلية في أجمل حلة وفي أدق تعبير، دون أن يختلط به خيال أو وهم.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المطلب الثالث: جمالية الحدث والحركة في سورة طه.

أحداث القصة

تقوم القصة على الحدث عموما، فالحدث هو الذي يخرج القصة إلى الوجود ويمنحها الحياة، ولا يمكن تخيل قصة بدون أحداث، بل حتى عنصري الزمان والمكان يتحددان من خلالها في علاقة تفاعلية، فهو جوهرها وإطارها الموضوعي والفني. والحدث هو "علاقة الاستقطاب والدفع التي تتحرك عبرها شخصية أو شخصيات القصة ضمن شروط السياق الزماني والمكاني، ذلك لأن الحدث سواء أكان معقولا أو خارقا، إنما يشرطه إطار ظرفي، يؤقت لوقوعه، ويحدد أرضيته، والفواعل التي هيأته أو صاحبه أو تقاطعت معه، مباشرة أو بالتبعية، على نحو فني، يتجسد فيه العمل القصصي. فالحدث من هذا المنظور، هو إشكالية الوقائع في ترابطها العضوي، وتتابعها عبر مسار سردي زماني مكاني تصاغ به في نهاية المطاف تلك الوقائع في ماهية حدثية، هي مآل لتجربة إنسانية أو رمزية، صيغت بفعل عوامل ظاهرة أو مستترة، على نحو فني لتحقيق هذه الغاية الحداثية." (1)

إذن فإن ترابط هذه المستويات الثلاثة لا مناص منه عموما وفي أي نص سردي، "فالزمن يتداخل كليا مع الحدث، فهو العلامة الدالة على مرور الوقائع اليومية، وهو إطار

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشراقي. دار العراب. 2012. ص 90.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

يشمل كل الأحداث ويضفي عليها صفة الانتظام، ويحدد مع المكان ملامح عنصري القصة الآخرين (الشخصية والحدث)⁽¹⁾، سنأتي على تفصيل ذلك لاحقا، قسمها البنيويون وفصلوا في أشكالها، " وبدءا بالشكلانيين الروس، نجد أن الأبنية الزمنية قد صيغت في مجموعة من الأنساق، أهمها: (التتابع، التضمن، التنضيد، التوازي، نسق الخلط)، فيما اختزل تودوروف بناء الحدث إلى ثلاثة أنساق وعلى حسب ترابط العلاقات الموجودة بين القصص، وهي: (التسلسل، التضمن، التناوب).⁽²⁾

ويمكن الملاحظة عبر ما مر من شواهد قرآنية، " وجود عدة أبنية اعتمد عليها القصص القرآني، أهمها البناء المتتابع أو التسلسل، وهو البناء الذي تتتابع فيه الوقائع تتابعا لفظيا منطقيا يعتمد على السببية، وفيه يبدأ السرد من نقطة الصفر، وينطلق إلى الأمام من دون الرجوع إلى الماضي، أو القفز إلى أحداث مستقبلية"⁽³⁾، وهناك بناء ينطلق من وسط السرد عائدا إلى نقطة الصفر، وهناك أيضا بناء آخر يبدأ من نقطة النهاية راجعا بالأحداث إلى ما قبلها، وهذه الأبنية قد اشتملت جميعها في سورة " طه "، وقد سبق التفصيل فيها.

وأحداث القصة كما أسلفنا سابقا دارت بين موسى عليه السلام وفرعون وبني إسرائيل في أرض مصر، وهي كما غيرها من القصص القرآنية، تتميز عن غيرها من القصص الأدبي،

(1) - البنية الزمنية في القصة القرآنية الاسترجاع والاستباق. ص 34.

(2) - المرجع السابق. ص 34.

(3) - المرجع نفسه. ص 34. 35..

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

بصدقها التام كما هو الأمر مع شخصياتها أيضا. دون الإخلال بالعنصر الجمالي فيها، بل إنه كان الأكثر حضورا وتأثيرا.

والسرد القصصي في سورة طه تميز عن باقي السور الأخرى بأنه يستعرض حياة موسى عليه السلام منذ المولد إلى وقت ارتداد قومه في غيبته لملاقاة الله، في إطار سردي أوسع تفصيلا، كما نجد في قصة موسى مع فرعون كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أن لها " ثلاث وظائف ثابتة كأغلب القصص القرآني: الدعوة، التكذيب، النجاة، الهلاك، غير أن الوظيفة الأخيرة ههنا لا تعني خاتمة القصة، كما رأينا في القصص السابقة، وإنما هي بداية لجانب آخر من القصة، يتكفل بإظهار فساد طبيعة بني إسرائيل، وانحراف فطرتهم، وهم الفريق الناجي المفترض فيه الإيمان، لكن طبيعتهم تمنعهم عن أن يثبتوا على العقيدة الصحيحة: فينحرفوا مرة بعد مرة، وما يزال الرسول بين ظهرانيهم. "(1)

-بداية القصة: افتتاح السورة بخطاب الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتذكيره بقدرته وجلاله.

-الدخول مباشرة في قص ما حدث مع موسى عليه السلام، وقد ابتدأه وَكَلَّمَ بتساؤل موجه

لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك إمعان في التشويق ولفت الانتباه.

-بعدها يعرض أمرا مفاجئا جدا، وهو بمثابة بداية لأحداث قصة موسى عليه السلام في

سورة "طه" وليس في القرآن كله.

(1) - بلاغة السرد القصصي. ص 38

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

- ثم تبدأ الأحداث بشكل متسلسل ومتسارع، فيه الكثير من التوتر، حتى تصل إلى إيمان السحرة وعصيانهم لأمر فرعون، وتنتهي بهلاكه ومن معه.

- ثم بعد ذلك يبدو الأمر مستقرا مع بني إسرائيل، ويتخذ منحى الأحداث وضعاً مستقيماً.

- ثم تبدأ قصة أخرى مع بني إسرائيل، تغير في المكان والزمان والشخصيات التي كانت تهيمن على واقع الأحداث، فبدل فرعون وحاشيته وجنوده، ظهرت شخصية ضالة أخرى أرادت أن تفتن بني إسرائيل، وهي السامري، وأصبح من كان يطالب بحريتهم وحياتهم حياة كريمة في ظل عبادة الواحد الأحد، أصبحوا ضده، فقد ألفوا حياة الرق والعبودية والاستغلال، فما أن أنجاهم الله ﷻ من فرعون وطاعته، حتى اتخذوا "العجل" إلهاً لهم بعد ذلك، ونسوا ما وعدهم الله على لسان نبيه موسى ﷺ.

يمكن أن نربط في القصة بين مجموع هذه الأحداث التي عرفها النص كخطاطات سردية صغيرة داخل التركيب السردى باعتباره الأداة المنظمة للمجموع السردى (الوقائع الصغيرة التي تبنى عبرها الوقائع الكبيرة)⁽¹⁾.

إذ نجد في قصة موسى تلك الأحداث والوقائع التي تشكلت بطريقة متنامية بدءاً بالسير بأهله ليلاً إلى تكليم الله له وتكليفه بدعوة فرعون ومن معه إلى توحيد الله..

(1) - النص السردى. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. سعيد بن كراد. دار الأمان. الرباط. ط 1. 1996. ص 156

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فكانت هذه الأحداث بمثابة جسر يقودنا إلى استشراف آفاق المعركة الكبرى مع فرعون (دعوة فرعون إلى توحيد الله، وتغيير المجتمع). وبذلك يمكن القول إن البناء الداخلي للقصّة "يسير وفق خطة تقود من فعل إلى فعل، ومن قيمة إلى قيمة، داخل سلم تراتبي صارم، وكل فعل يتم إنجازه يعد مكسبا نهائيا يوضع في حساب الشخصية." ⁽¹⁾ إلى أن تتحدد المعالم الكاملة لها، وتظهر لنا بوضوح يجعلنا نفهمها أكثر ونقترب منها اقترابا شديدا.

ويمكن أن يقودنا العد التصاعدي للقيم "الذي يتشكل عبر مجموعة من الثنائيات الصغيرة"، وهي ثنائيات مرتبطة بنسق ديني يظهر - سرديا - على شكل وقائع متنوعة المضامين ⁽²⁾، تظهر في قصة موسى وفرعون على الشكل الآتي:

- واع # لا واع

- مستغل # مستغل

- مؤمن # جاحد

- الخير # الشر

- رسول # مرسل إليه

- التوحيد # الشرك

(1) - النص السردي. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. سعيد بن كراد. ص 158.

(2) - المرجع السابق. ص 158

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

هذا التقابل الدلالي يفصل بين عالمين لا رابط بينهما، ولا يمكن عقد مصالحة بينهما،

وعلى هذا التقابل، تشيد القصة، وتقرأ وتؤول، إذ يتعلق الأمر بـ

- معرفة النفس # جهل النفس

وهذه الثنائية محددة داخل جهاز ديني خاص (توحيد الله)، وسابق على القصة،

ومولد لها، بل إنها ليست سوى شكل من أشكال تجلياتها.

كما "تخضع هذه الشخصيات لسلسلة من النشاطات المتنوعة والمتكاملة"⁽¹⁾:

- فاعل يقوم بالفعل (موسى عليه السلام)

- مشجع على الفعل (هارون عليه السلام)

- معيق للفعل (فرعون وجنوده)

- باعث على الفعل (الله سبحانه وتعالى)

- غاية من وراء كل فعل (توحيد الله وعبادته).

ويخضع هذا التوزيع لمجموعة من التداخلات، "تداخلات على مستوى الخانة

الواحدة، وتداخلات على مستوى تفاعل الخانات، وبناء عليه، إذا كانت الأدوار المنضوية

تحت أية خانة ليست معطاة بشكل نهائي وكي منذ البدايات الأولى للنص، أي انطلاقا مما

يوفره الفعل السردى من أحداث، فهذا معناه أن فعل القراءة يمتلك هامشا كبيرا

⁽¹⁾ - النص السردى. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. سعيد بن كراد. ص 90

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

للافتتاح على كل ما يمكن أن يثيره النص، إن النص في هذه الحالة لا يقول بل يوحي، وهو لا يعين بل يشير، ولا يقرر بل يقترح، وهذا معناه أيضا أن فعل القراءة يتوفر على هامش كبير في صياغة ونحت صورة لكل شخصية ليدرجها ضمن هذه الخانة أو تلك، لتحديد هذا المسار أو ذاك ⁽¹⁾.

إلا أن الأمر في حالة القصة القرآنية يختلف تماما، إذ إن الرواية أو القصة الدينية أو السياسية أقرب ما تكون إليها " فإذا كان المتناص العقائدي يفترض الوضوح في بلورة القيم، فإنه يقوم لتحقيق ذلك، بتحديد عوالم مفصولة عن بعضها البعض، نتيجة لقرار إيديولوجي سابق، عالم الخير من جهة وعالم الشر من جهة أخرى. وكل عالم يستوعب داخله -عبر الفعل السردي والفعل الوصفي- سلسلة من القيم التي تشتغل كمدلولات توسطة تصل العالم المُحَيَّن بالعالم المحتمل، أي الربط بين التجربة الواقعية وبين ما يشكل في أذهاننا عوالم مَخَيَّالية، وعلى هذا الأساس فإن الترسيمة السردية تُنَمِّذُ وفق الصورة التي توفرها الإيديولوجيا باعتبارها تأويلا مسبقا للفعل الاجتماعي. ⁽²⁾ وهذا شبيه بما

يحدث في القصة القرآنية، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إذ إنها مبنية على أسس معروفة وسابقة لشخصيات القصة، وموجودة قَبْلًا.

(1) - النص السردي. نحو سيميائيات للإيديولوجيا. سعيد بن كراد.. ص 91.

(2) - المرجع السابق. ص 91.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

كما ترتبط أحداث القصة دائما بأمر أساسي، وهو المغزى أو الفكرة الرئيسة التي من أجلها سيقت، ولا بد هنا للإشارة إلى أن المغزى الأساسي دائما في القصة القرآنية ديني: وهو أخذ العبرة، ويأتي بعده المعنى الآخر الفني والجمالي، الذي يخدم السبب الأول بشكل مباشر ويفتل في حبله، لتخرج لنا القصة في أبهى حللها وأحسن مقاماتها.

بالإضافة إلى أمر آخر وهو " التعقيب النهائي للقصة والذي يشكل كسرا آخر لأفق الانتظار لدى القارئ، لأن الحادثة المعجزة - شق البحر لبني إسرائيل وغرق فرعون-، كان من شأنها أن توقظ في قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى، وتعقبا على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع

ويترقب "(1). يقول تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۚ ﴾ (85) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقُومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنۢ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۚ ﴾ فهذه الآية تأتي مباشرة بعد آية إنجائهم وتذكير الله لهم بفضلهم وكرمه عليهم، وذهاب موسى لتلقي الألواح من ربه، وهذه سرعة ما بعدها سرعة في الانقلاب على العقب، والجحود، تجعل المستمع نفسه مشدوها أمام هول هذه النهاية البئسة لبني إسرائيل، وتخالف كل التوقعات الإيجابية التي كان من المفروض أن تصدر عنهم بعد ما رأوا من معجزات خصهم بها الله سبحانه وتعالى.

(1) - الإعلامية في الخطاب القرآني. ص 138.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المطلب الرابع: جمالية خصائص الشخصيات لقصص "طه"

الفرع الأول: الشخصية في القصة القرآنية

كما سبقت الإشارة فإن الحدث في القصة هو أهم عنصر فيها، لكنه لا بد أن يتفاعل مع عناصر أخرى لا تقل أهمية عنه، حتى يكتمل بناؤها العام، ونجد الشخصية مثلا أكثر اقترانا بالحدث، لأنها من تصنعه وتتحكم فيه " فالحدث هو فعل شيء ما ولا بد أن يكون لهذا الفعل من "فاعل"، وهو الشخصية، والحدث والشخصية من هذه الزاوية، يشكلان قطبي التحام فني من الصعب فصلهما عن بعضهما، فالحدث ما هو إلا شخصية تعمل، والشخصية ما هي إلا فاعل الحدث وصانعه.⁽¹⁾ فالشخصية إذن تمثل إلى جانب الزمان والمكان العنصر المهم في بناء قالب القصة الفني والتاريخي، ويعتبرها النقد الحديث " أحد العناصر الأساسية التي تساعد في إبراز القصة من الناحية الفنية، كما يرى أنه على القاص أن يعرض علينا أشخاصا عاملين نراهم بقوة، ونفهم أخلاقهم، ونسايرهم بشعور سار إلى آخر القصة، ومعنى ذلك أن أسلوب القصة يكون أجود كلما تجلت شخصياتها متميزة، وتوالت حوادثها وفصولها في أعمال أبطالها وحوارهم."⁽²⁾ فالشخصية هي التي تبرز العمل إلى الوجود وتبعث فيه الحياة، ولولاها سيكون جامدا لا حركة فيه، بل سكونا يبعث على السأم والملل.

(1) - القصة في أدب الجاحظ. عبد الله باقازي. منشورات تهامة. ط 1. 1982. جدة. السعودية. ص 91

(2) - الجانب الفني في قصص القرآن. ص 125.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وفي أحيان كثيرة، تكون الشخصية هي المحدد الأساسي للعمل الأدبي، بل المتحكم فيه، دون أن يكون للكاتب تدخل مباشر فيه، " وواضح في قصص كبار الكتاب أنه لكل شخصية آراؤها التي تكشف عن سلوكها وحديثها في القصة، ومن العيب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلا سافرا بالشرح والتحليل، وينبغي أن يكون تدخله مستورا، وفي أضيق الحدود.. كما رأوا أن تشابه الشخصيات يرجع إلى أن الكاتب كان يصدر في إحساسه عن إيمان بالمثال، والمطلق العام، لا عن إحساس بالتجربة الذاتية." (1) وهم في ذلك يتمثلون أسلوب القصة القرآنية إلى أبعد الحدود، إذ إن كثيرا من الشخصيات تحكي عن نفسها، ويكتفي القرآن بتصوير حالتها ونقلها نقلا صادقا بأسلوب فني بليغ.

وبهذا نرى أن النقد الحديث في علاجه للقصة العصرية حاكى شيئا من أسلوب القصة القرآنية، حيث إنه راعى في منهجه النقدي أن في عرض الشخصية عرضا دقيقا من الممكن أن يستشف جوانبها النفسية وأحوالها وعاداتها وما لها من ظلال وقيم، ولن يكون ذلك إلا برسم الشخصية القصصية رسما محكما يعرب عن حقيقتها إعرابا تاما. " (2) ولذلك نجد كثيرا من الأدباء قد استلهموا من ملامح الشخصية القرآنية لما يمثله حضورها داخل القصة من براعة وقوة تصويرية وفنية، لكن رغم ذلك تبقى خصوصية

(1) – الجانب الفني في قصص القرآن. مرجع السابق. ص 125.

(2) – نفسه. ص 125.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الشخصية في القصة القرآنية فريدة من نوعها، تصعب محاكاتها، إذ إننا عند "استشفافنا لملاحظها بكل يسر وسهولة، لا تعتمد في عرضها على جانب توضيحي خيالي إيجائي رمزي، كما هو صنيع كثير من كتاب البشر الذين أعجزتهم الحيل عن أن يصوروا نفسية أبطال الرواية إلا بالجنوح إلى هذه التوهّمات التي قد تجلي في نظرهم شيئا مما أرادوه." (1) ولكن شخصية البطل في القصة القرآنية نستطيع استجلاء معالمها وتحليل نفسياتها، دون أن يعطينا القرآن الكريم شيئا من الأساليب الابتكارية، والصور المغلفة بالعبارات التوضيحية الخيالية. فحينما غضب موسى حينما رأى قومه عبدوا العجل، ولام أخاه هارون في تركه لهم، نرى القرآن الكريم يعرب لنا عن نفسية موسى حينذاك وصنيعه تجاه قومه وأخيه هارون، من غير أن يجنح إلى رمز أو خيال، فيقول الحق ﷻ: "قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِذُنُوبِي وَلَا يُرْسِي إِلَيَّ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) ﴿

لذلك " فالشخصية في قصص القرآن الكريم، ترد محورا تدور حوله الأحداث، فتؤثر فيها وتتأثر بها." (2) والخطاب القرآني لم يكن غرضه في إبراز الشخصية رسم خطوطها الفيزيائية أو هيئتها الشكلية كما هو الشأن في القصة الأدبية الإنسانية، لأن هدفه هو إعطاء القدوة بالشخصية الخيرة، وضرب المثل بالشخصية الشريرة، ورغم ذلك لم

(1) – الجانب الفني في قصص القرآن. مرجع السابق ص 127.

(2) – سيكولوجية القصة في القرآن الكريم. ص 360

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

يكن ينقص من جمالها وتأثيرها شيء، بل تزداد تألقا لأنها مبنية على الصدق والحقيقة، فهي أقرب لإحساس المتلقي وشعوره.

فالقرآن " يكشف عن مزاج الشخصية وعن دوافعها وانفعالاتها وسلوكها من خلال الوصف، أو حكاية الأقوال أو الأحداث بصورة عرضية لم تقصد لذاتها بالأصالة. ومن ناحية أخرى فإن الشخصية القرآنية تتمثل في أنها:

1- فرد معين باسمه: كإبراهيم وموسى وفرعون.

2- جنس معين وحدث بين عناصره العصبية، ومجموعة من سجايا العرق، مثل بني إسرائيل.

3- الإنسان أيا كان، بما جبل عليه من غرائز، وما ركب فيه من طباع ثابتة، تكشفها الأحداث من حين لآخر. "(1)

كما أن في " القرآن شخصيات من غير البشر، صدرت عنها عبارات وأفكار، وقامت بأدوار إيجابية في القصة، كالملائكة في قصة إبراهيم، والجن في قصة سليمان، وإبليس في قصة آدم. "(2) أو حيوانات تصنع الحدث كالحية في قصة موسى، أو جمادات تؤثر في مجرى القصة كعجل بني إسرائيل.

(1) - سيكولوجية القصة في القرآن الكريم. ص 360.

(2) - المرجع السابق. ص 361

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويمكننا أن نقسم شخصيات قصة "موسى وفرعون" في سورة "طه" إلى مجموعتين، شخصيات (مع) أي تسير في خط التوحيد والعبودية لله، وشخصيات (معاكسة) للاتجاه الأول، وشخصيات (متحولة) أي انقلبت من الإيمان إلى الكفر، أو العكس، وشخصيات محايدة كان لها تأثير في مسار الأحداث لكن بطريقة غير مباشرة..

وما يجعل قصة موسى في السورة فريدة هو هذا التحول غير المسبوق في القرآن باستثناء قوم يونس، لكن ما يميز تحول السحرة من الكفر إلى الإيمان هو أنه كان تحولا سريعا، ربما قد يكون استغرق ساعات من النهار أو أقل ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۚ﴾ (70) قَالَ ءَاْمَنْتُمْ لَهِ قَبْلَ اَنْ اٰذَنَ لَكُمْ ۚ اِنَّهٗ لَكَبِيْرُكُمْ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطْعُوْا اَيْدِيَكُمْ وَاَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّبُوْكُمْ فِىْ جُذُوْعٍ اَلْتَّخَلُّوْا وَلِنَعْلَمَنَّ اَيْنَا اَشَدُّ عَذَابًا وَّاَبْقَى ۚ﴾ (71) ﴿بينما "قوم يونس" قد أخذ إيمانهم بعد الكفر وقتا أطول.

ف نجد أن هذه الشخصيات قد شهدت تحولات معاكسة، كان أبرزها شخصية موسى وفرعون وبنو إسرائيل والسحرة، ويمكننا أن نمثل لذلك بهذا الشكل:

1- موسى ← هروب ← مواجهة.

2- فرعون ← طغيان ← انحذار.

3- السحرة ← كفر ← إيمان.

4- بنو إسرائيل ← استضعاف ← تمكين.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثاني: جمالية توزيع الحركة للشخصيات

توزعت حركة الشخصيات داخل القصة القرآنية بحسب أهمية ورودها ودورها في بناء الحدث، وكانت أحيانا تتحرك انطلاقا من نفسها وأحيانا أخرى تتحرك بإيعاز أو بأمر إلهي، وغالبا ما كانت تستند حركتها إلى مرجعية دينية أو اجتماعية أو سياسية.

سنحاول الوقوف على أهم الشخصيات التي وردت في قصة موسى وفرعون في سورة طه، وسنبدا بأهم شخصية فيها.

1- شخصية موسى عليه السلام

تظهر شخصية موسى بأشكال مختلفة ومتنوعة داخل القصة، فأحيانا هي شخصية مثالية تتحرك وفق أوامر ربانية، وأحيانا أخرى هي شخصية عادية يعترها ما يعترى الإنسان العادي، فهو يأنس يخاف ويغضب، وقد تجتمع خصائص الشخصيتين فيه في آن واحد، ولو طالعنا المواقف والأحداث التي مرت على موسى عليه السلام، لوجدناه شخصية حريصة على الدين والتوكل على الله تعالى، بالإضافة إلى جرأتها في الحق، كما أنها لا تنسلخ من طبيعتها البشرية، فيعترها الغضب (الذي تسبب في قتل النفس)، "وتظهر هذه الطبيعة الانفعالية الدفاعية لشخصية موسى عليه السلام من صفاته في كل أدوار حياته، فكان هذا المزاج العصبي ملازما له في كل مواقفه" ⁽¹⁾، بالإضافة إلى خوفه عليه السلام **قَالَ رَبِّ إِنَّا**

(1) - سيكولوجية القصص القرآني. ص 368

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾، وهذه مشاعر وانفعالات إنسانية يجتمع فيها الأنبياء والناس العاديون.

ونجد من أبرز سماتها أيضا أنها شخصية قوية متمسكة بالحق، ترفض الظلم وتسعى للدفاع عن المظلومين والمضطهدين، إلى جانب أنها شديدة الانفعال والتأثر، وهذا ما نستشفه من الغضب الذي يعتريها أحيانا بسبب ما تجده من سوء تصرف أو جحود، "ولعل هذه السمات هي التي جعلت حظوظه أقوى في قيادة شعب صلب المراس، معقد النفسية، وهو شعب بني إسرائيل، الذي كان طبعه التلكؤ في الطاعة، والجمود في المشاعر، والمراوغة والسخرية في المواقف الجدية، ومقاومة شيع الفراعنة الذين كان من أخلاقهم البغي والكبر، واحتقار الفقراء والضعفاء، وتقديس الكبراء وذوي الثراء، والله أعلم حيث يجعل رسالاته." ⁽¹⁾ كل هذه الصفات كانت تلزمها شخصية بهذه المواصفات حتى تستطيع التعامل معها وكبح جماحها. وإن أبرز تجل برزت فيه تلك السمات، موقفه من قومه عندما وجدهم يعبدون العجل، ففقد على إثر ذلك هدوءه وسيطر عليه الغضب، فألقى الألواح التي تحمل وحي الله إليه، وتوجه إلى أخيه آخذا بشعر رأسه ولحيته معاتبا له على تركهم يعبدون العجل من دون الله، لكن غضبه يهدأ عندما يخاطبه

(1) - سيكولوجية القصص القرآني. ص 366

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

هارون بأسلوب فيه من الرحمة والرقّة واستثارة عاطفة الأخوة ما يجعله يعود إلى رشده، وتخبو سورة انفعاله عليه.

أما إظهار خوف وخشية موسى عليه السلام الذي ذكر مرتين في السورة الكريمة، ففيه حكمة بليغة، فمهما بلغت قوة الإنسان وشجاعته، فإن نفسه مجبولة على الخوف، وهو فطرة بشرية، وإن هذا الخوف الطبيعي لا ينقص من إيمان الإنسان، ولا يضرب في رجولته.

وإضافة إلى ما ذكرنا، نجد الحق تبارك وتعالى يقول على لسان موسى: ﴿قَالَ رَبِّ

إِبْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ﴾ (25) ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ﴾ (27) ﴿وَاجْعَلْ لِي

وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۖ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ ۖ﴾ (29) ﴿هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ ۖ﴾ (30) ﴿إِشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ﴾ (31) ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۖ﴾ (32) وهو بهذا يبرز

جانبا آخر من ضعفه البشري، فهو لا يستطيع التحدث بطلاقة، لذلك يسأل الله أن يرسل

معه أخاه هارون، فهو أفصح منه لسانا. وإن الكمال البشري الحقيقي، لا يكون إلا

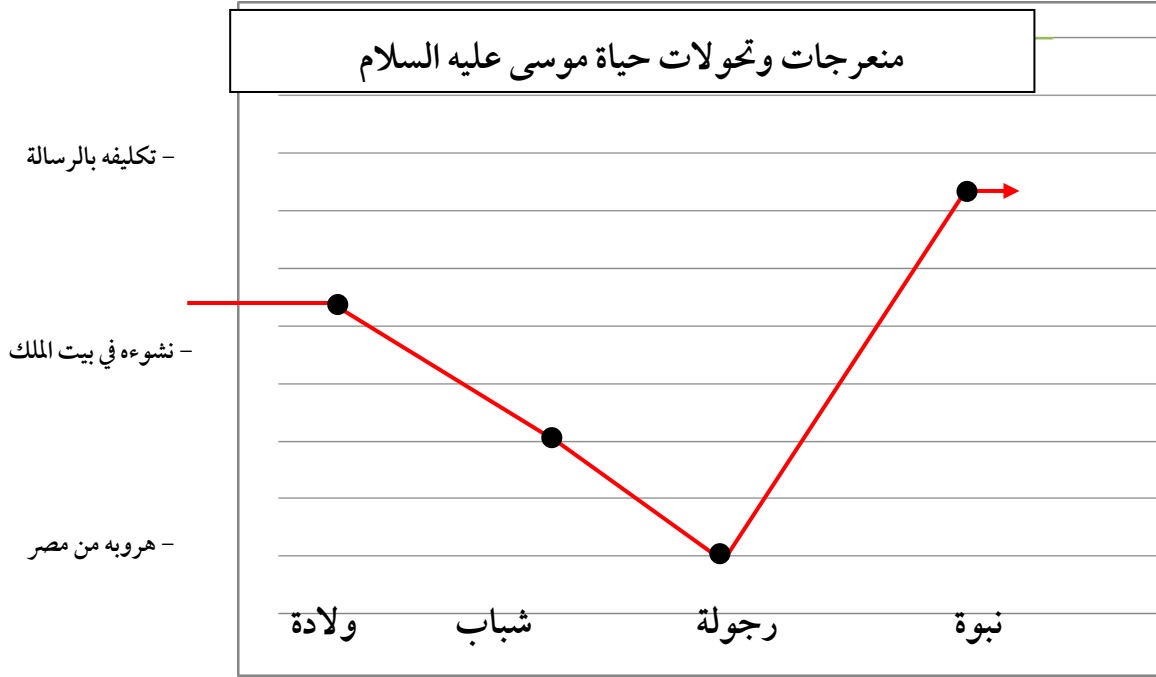
بمعرفة الله تعالى وتوحيده والدعوة إليه، وليس يبلغ بالقوة الجسدية أو الفصاحة، ولذلك

اختار الله موسى عليه السلام، لما اشتمل عليه من هذه الصفات التي تؤهله ليكون نبيا، بغض

النظر عن النقصان البشري الذي يعتريه، ويعتري كل إنسان. ويمكننا أن نمثل لحياة

شخصية موسى وما طرأ عليها من تغيرات ومنعرجات بالشكل الآتي:

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"



2- شخصية هارون عليه السلام

تأتي شخصية النبي هارون عليه السلام - وهو أخو موسى عليه السلام - مختلفة عن شخصية أخيه، فالشدة التي تميز بها موسى عليه السلام، تكاد تغيب في شخصية هارون، وقد كان أكبر منه سناً، وأفصح منه لساناً، وإن كان لا يدانيه قوة وبأساً، فما يميزه هدوؤه وعدم انفعاله، ويظهر ذلك جلياً في واقعة السامري - الذي أمر بني إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن ذهب موسى لتلقي الألواح " فبعدما رأى هارون والفئة الباقية على الإيمان، ما وصل إليه القوم من غواية وفتنة، فعزموا على مقاومة نزعاتهم ولو كانت القوة هي السبيل لتلك المقاومة، ولكنهم وبعد الشورى فيما بينهم، آثروا ألا يشهروا القتال خوفاً من إشعال نار

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فتنة تكون أشد فتكا مما كان عليه قومهم، فسكتوا على مضض⁽¹⁾. والآية توضح أن

هارون عليه السلام هو من أشار عليهم، ﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَانْبَعُوثْ وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾⁽⁹⁰⁾ وهذا يظهر أيضا صبر هارون عليه السلام وحلمه وخوفه على

قومه من أن تقوم الفتنة بين بني إسرائيل، فيكون سببا في ذلك، وهذا من ملامح

شخصيته التي تختلف عن شخصية موسى عليه السلام، إذ إنه عندما عاد إليهم وجدهم قد

وقعوا في الكفر " ووجدهم في هرج ومرج، وراهم حول عجل يلتفون، فعرف أن الفتنة

قد حلت ببني إسرائيل، وأن سبب الفتنة هو السامري، وهم أن يبدأ تقتيلا في القوم، إلا

أنه أثر أن يسأل ويتبين ما آلت إليه تلك الحال من أخيه هارون، فعاتبه بشدة وعنف،

والغضب يملكه وهو يقول: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا؟⁽⁹²⁾ أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ

أَمْرِي⁽⁹³⁾ قَالَ يَبْنَومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ

تَرْقُبْ قَوْلِي⁽⁹⁴⁾﴾ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن تردعهم عن هذا الضلال، هل عصيت فلم

تحارب فسادهم، أو نسيت عهدي فلم تمنع انحرافهم؟، فقال هارون والألم يعتصر قلبه،

بعد أن ذهبت سورة غضب أخيه: يا بن أمي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، لقد حاولت

ردع القوم لكنهم استضعفوني، فلا تشمت بي عدوا ولا تجعلني مع القوم الظالمين⁽²⁾، كما

ينم حواراه مع أخيه موسى عليه السلام عن أدب جم، وتؤدة بالغة، رغم أنه أكبر منه سنا..

(1) - قصص الأنبياء في القرآن الكريم. ص 446

(2) - نفسه ص 447.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فشخصية هارون عليه السلام جاءت مكملة ومتممة لشخصية موسى عليه السلام، حتى يبلغ التناغم والانسجام من أجل الدعوة غايته وهدفه.

3- شخصية فرعون

قد تكون شخصية فرعون هي أكثر الشخصيات الكافرة التي ورد ذكرها في القرآن، كما أنها أكثر الشخصيات المثيرة للجدل والاستغراب، فهي تمثل قمة الكفر والتكبر والجحود، بل إنها الشخصية الوحيدة في القرآن التي ادعت الألوهية.

وهو كما وصفه محمد خضر " يمثل نموذج الشر، المعارض الأول لدعوة موسى عليه السلام، من صفاته التي تتجلى في القصص القرآني من خلال علاقته بالآخرين: الضعف الشديد، فلم يقاوم الدعوة الجديدة بقوة، وإنما بخوربيّن، وخوف كامن من مجهول، ففي رده على موسى يتساءل فحسب، وكأنه يريد أن يعرف من أمر ذلك الرب ما يرجح عنده أحد أمرين، فهل هو " فرعون " الإله الأوحدهم، أم أن كل هذا محض كذب نشأ عليه، ولا أساس له من الصحة، وثم إله آخر يستحق أن يعبد ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُؤْمِنُ ﴾ (49) طه 49. (1) وسنحاول بدورنا الوقوف على ملامح هذه الشخصية انطلاقا مما ورد في السورة.

إنها شخصية متكبرة مغرورة ممتلئة بالأنأ وحب الذات، لا ترعوي عن فعل كل ما هو قبيح.

(1) - بلاغة السرد القصصي في القرآن. ص 64.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

- طاغية: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ ﴾ (43)

- لا ترعوي عن فعل كل ما هو قبيح: ﴿ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجَلُكُمْ مِّنْ خَلْفِ

وَأَصْلَبَتْكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَآثِقًا ۖ ﴾ (71)

- ضالة: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ ﴾ (79)

- عدوة لله: ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّهِ وَعَدُوٌّ لَّهُ ۖ ﴾ 39 طه.

وبهذا نجد أن فرعون قد جمع أقبح الصفات التي يمكن أن تجتمع في كافر في القرآن الكريم، لكن فرعون الطاغية المتجبر الذي يقول للناس أنا ربكم الأعلى، قد ترك الفرصة لموسى وهارون عليهما السلام ليقولا ما عندهما، وفتح لهما باب المنافسة في إظهار دعوتهما، ربما لأنه يعلم يقينا بأن الغلبة ستؤول إليه ولجنده. " وإذا كانت شخصية الإنسان تتميز على حسب العواطف التي تدور عليها حياته، وخاصة السائد منها، فإن لكل من موسى وفرعون عاطفة سائدة تسيطر على ما لديهما من عواطف أخرى وتوجه سلوكهما، وهي في موسى كما عند سائر الأنبياء عليهم السلام: حب الله، والإخلاص له في السر والعلانية، والتفاني في تبليغ رسالته. وهي في فرعون: حب الذات الذي يسيطر فيه الزهو والغرور على النفس، فيطغى عليها الكبرياء حتى يجرها إلى عدم الاكتراث بالغير، واحتقار البشر،

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وعدم الإذعان للحق رغم ظهور آياته، والعناد الأعمى رغم ما يؤدي إليه من الهلاك.
(1) فيها شخصيتان متباينتان تماما ومتقاطعتان.

4- شخصية السامري

جاء في الظلال لسيد قطب أن " السامري رجل من سامراء كان يرافقهم، أو أنه واحد منهم يحمل هذا اللقب "(2)، يظهر من خلال ما تحدث به القرآن عنه أنه رجل معروف بين بني إسرائيل، وله تأثير قوي عليهم، بأن جعلهم يتخلون عن عبادة الله وينصرفون إلى عبادة العجل الذي صنعه لهم، ويبدو من خلال الآيات أنه رجل ماكر مخادع مضل، استغل جهل بني إسرائيل وضعف إيمانهم، ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۖ ﴾ (85) كما أنه إنسان كاذب ملتو في تصرفاته مع موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِيُّ ۖ ﴾ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ ﴾ (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرِ إِلَى إِلِهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۖ ﴾ (97)

(1) - سيكولوجية القصة في القرآن الكريم. ص 372

(2) - في ظلال القرآن. ص 2356

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا أمن خلال قصص: سورة "طه"

ونجد أن موسى قد عاقبه جزاء فعلته وحكم عليه بالطرد والنفي، فتحول من رجل معروف إلى رجل منبوذ بين قومه وعشيرته.

5- شخصية جنود فرعون

جنود فرعون في القصة القرآنية يمثلون الشخصية المسلوقة الإرادة، التي يُفعل بها ولا تفعل، ويُتَحَكَّم بها، ولا تملك من أمرها شيئا إلا السمع والطاعة لفرعون وأمره ونهيه. فهم سيف الجلال المسلط على رقاب المستضعفين من قومهم، وتَرَدُّ دائما مقرونة بفرعون، لكنهم مثلما أنهم لا يرفضون طغيان فرعون، ويقبلون على أنفسهم أن يكونوا أداة ظلم في يده، فإن الله ﷻ جعلهم في العذاب والعقاب سواء مع فرعون، ﴿فَأَنبَعَثَهُمْ

فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ ۖ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (79)﴾

6- شخصية سحرة فرعون

سحرة فرعون يمثلون الشخصية المتطلعة إلى المراتب والمناصب، والفوز بثقة فرعون ونيل رضاه، وهي تبذل من أجل ذلك قصارى جهدها وكل طاقتها، فتسخر مهنتها ووظيفتها في الحياة، أملا في الحصول على ما تصبو إليه، لكنها أيضا في لحظة فاصلة من لحظات حياتها تستغني عن كل ذلك وتؤمن بربها، وتترك ما اقتربت وراء ظهرها طمعا في عفو الله وغفرانه وجنته وما عنده.. إنها الشخصية التي لم يطبع الله على قلبها بالكفر، فظلت داخلها بذرة الخير والإيمان، ما إن وجدت تربة الحق حتى نبتت وآمنت بخالقها، يقول سيد قطب "إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فيتنفض الجسم كله،

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وتصادف " الزر " الصغير فينبعث النور ويشرق الظلام، إنها لمسة الإيمان للقلب البشري، وتحوّله في لحظة من الكفر إلى الإيمان".⁽¹⁾ بل إنها من أنبل المشاعر وأكثرها صدقا على الإطلاق.

7- شخصية بنو إسرائيل

بنو إسرائيل تمثل الشخصية المنقادة الراضية بوضعها، التي تقبل حياة الذل ولو على حساب حرّيتها وكرامتها، " لقد كانوا يتبعون خطوات فرعون الضالة بلا تدبر ولا تفكير، وينقادون إليه في ذلة وخوف، وقد خلب البريق الخادع عقولهم الساذجة "⁽²⁾. وحتى عندما خصهم ربهم بالمعجزات وأخرجهم موسى من محتهم بقي طبع الانقياد وحب الاستعباد غالبا عليهم، فعادوا إلى عبادة عجل لا ينفع ولا يضر.

إن شخصية بني إسرائيل هي شخصية جنس وحدث بين طباعه وأخلاقه عوامل العرق والوراثة "فصار الفرد مرآة للجنس كله، والجنس يتمثل في أي فرد من أفراد.. ويكاد ينحصر ذلك في بني إسرائيل، الذين لهم تاريخ طويل، ولكنهم جنس واحد في سجايا العرق، متضامنو الأجيال، متحدو الجبلية في جميع العصور، لذلك نرى القرآن في عرضه لأخبار بني إسرائيل يحول السياق من الحكاية إلى الخطاب، ليذكرهم بما أنعم الله على آبائهم من نعم جليّة قابلوها بالجحود والانحرافات، كالعناد والتمرد واختلاق

(1) - في ظلال القرآن. ص 2334

(2) - سيكولوجية القصة في القرآن. ص 371

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المعاذير الواهية في التخلي على الواجبات، والاستخفاف بأنبيائهم، والاعتداء على بعضهم بالقتل، ونكث العهود ونقض المواثيق، والادعاءات العريضة الباطلة، وكأنه يخاطب بذلك جيلا واحدا، لا أجيالا عديدة فرقت بينها القرون، لأن ما في طبيعتهم من تعصب شديد، جعل تصرفات الأحفاد متساوقة مع تصرفات الأجداد⁽¹⁾. فهذا طابع يوحدهم ويسمهم على مر العصور والأزمنة.

وهم أيضا قوم هلعون، شاكون في نصر الله لهم، مترددون في إيمانهم، "يعبدون الله تارة، ويطلبون غيره أخرى، قلة عقلهم ظاهرة، وجهلهم بين، وإضلالهم من أسهل الأشياء، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾⁽⁸⁸⁾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا⁽⁸⁹⁾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُومُونَ إِنَّمَا فَتَنَّاهُمْ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَانْبِعُوزِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي⁽⁹⁰⁾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ⁽⁹¹⁾ ﴿

كما نجدهم عندما سأهم موسى عما فعلوا بعد غيبته، "أنهم لم يستطيعوا الدفاع عن موقفهم، تماما كالطفل الذي يلعب بالنار، فيحرق يديه، ثم يكشف ذلك بعد فوات الأوان"⁽²⁾، ومن خلال الآية الكريمة أيضا يبدو أن القوم لم يكونوا يتعاملون مع هارون كما يتعاملون مع موسى، إذ كانت شخصية موسى قوية وكانوا يحسبون حسابه ويخافون

(1) - سيكولوجية القصة في القرآن. ص 372

(2) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 275.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

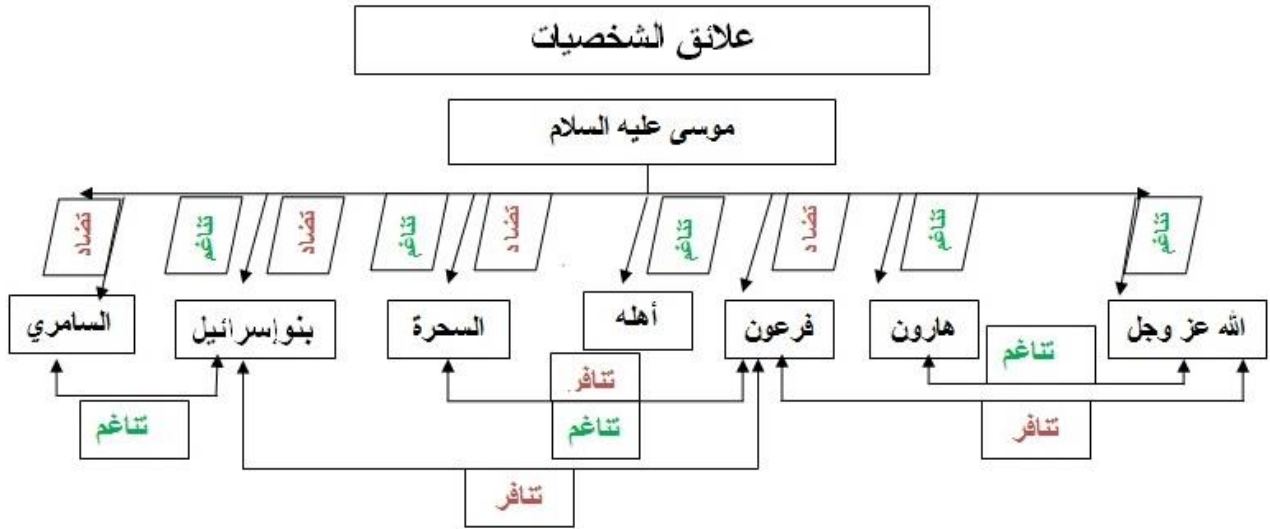
غضبته، وهذا ما لم يتوفر في هارون، حيث إنه عرف بشخصيته اللينة وعدم قدرته على منعهم من شيء.

ويمكننا أن نلاحظ أن الشخصية القرآنية " هي شخصية موحدة متسقة، لا تلمس فيها تناقضا في تصرفاتها أو اختلالا، فإبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم على مبدأ عام يسمى في علم النفس اتساق شخصية الفرد، بحيث إن سلوكه يتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدد وجهته ونمطه، وما ذلك إلا لأن القرآن قد عبر بأمان عن تصرف الشخصية في مواقفها، واستخدم دقة التعبير عن مشاعرها، وصدق الترجمة الباطنية عن خواطرها، فهي رغم تعدد مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن، لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة، لانعدام الوحدة الموضوعية بينها، لكننا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر، وائتلاف الصفات، وتفاعل السمات المزاجية والخلقية على الخصوص، ما يلقي الأضواء على جوانبها النفسية." ⁽¹⁾ وبين كل هذه الشخصيات التي ذكرنا، نجد علاقات متشابكة ومتداخلة بعضها مع بعض، كما أنها مركبة، وليست شخصيات عادية تسير في اتجاه واحد أفقي، بل شخصيات عمودية تتغير بتغير الظروف والأحوال. بالإضافة إلى كون هذه الشخصيات ذات مشارب ومرجعيات مختلفة تصل حد التضاد في أحيان كثيرة.

(1) - سيكولوجية القصة في القرآن. ص 369

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

العلاقات بين الشخصيات



الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المبحث الثاني: السمات الجمالية لأسلوب حوار الشخصيات في قصص

سورة "طه"

المطلب الأول: التجليات الجمالية للحوار في القصة

الفرع الأول: ماهية الحوار ودلالاته

الحوار لغة: ورد في القاموس المحيط "الحوار أو المحاور: هي مراجعة النطق، وتحاوروا، تراجعوا الكلام بينهم. وفي التبيان: يحاوره: يخاطبه، يقال: تحاور الرجلان، إذا رد كل منهما على صاحبه، والمحاور: الخطاب من اثنين فما فوق، أما في مختار الصحاح: الحوار يعني المجاورة، والتحاور: التجاوب." (1)

وفي لسان العرب "الحوار في اللغة أصله من الحَوْر، وهو الرجوع، وحوار بمعنى رجع، وهم يتحاورون: أي يتراجعون." (2)

"وحاورته: راجعته الكلام، وهو حَسَنُ الحِوَارِ، وكلمته فما رد علي مُحَوَّرَةً، وما أحرار جوابا، أي ما رجع، قال الأخطل (3):

[الكامل]

هَلَّا رَبَعْتَ فَتَسْأَلُ الْأَطْلَالَ
ولقد سألتُ فما أحرَنُ سُؤالا

(1) - القاموس المحيط. الفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة. ط3. 1993. ص 487.

(2) - لسان العرب. بن منظور. م4. ص 217.

(3) - الأخطل: هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبي النصراني. شاعر الأمويين وأمدح ثلاثة شعرائهم المتقدمين والمتفرد بوصف الخمر دون الإسلاميين. انظر في ترجمة الأخطل الأغاني 8 / 280 (دار الكتب المصرية). وفي جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (2 / 147).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ونجد في مختار الصحاح للرازي المحاوراة بمعنى المجاورة والتجاوز بمعنى التجاوب.⁽¹⁾

فنجد المعاجم تؤكد في أغلبها على نفس المعنى وهو المخاطبة والمراجعة والتجاوب بين طرفين أو أكثر.

واصطلاحا: فالحوار لا يبعد كثيرا عن معناه في اللغة، إذ هو "نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين، يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء، والبعد عن الخصومة والتعصب."⁽²⁾ وهو أيضا "ضرب من الأدب الرفيع، وأسلوب من أساليبه، فهو مراجعة في الكلام، ومنه التحوار، وهذا يعني أن الحوار هو مراجعة الكلام، ولكن بطريقة مؤدبة، وبألفاظ حسنة فيها نوع من الود والحب"⁽³⁾

وقد جاءت كلمة الحوار في القرآن ثلاث مرات، مرتين في سورة الكهف، ﴿وَكَانَ لَهُ مُعَارِفًا لِلْصَّاحِبِ ۚ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ الكهف 34، ﴿قَالَ

(1) - مختار الصحاح. أبو بكر الرازي. مكتبة لبنان. 1986. ص 68

(2) - صناعة الحوار. مقارنة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم. حمد عبد الله سيف. مركز نهج للدراسات والأبحاث. ط 1. بيروت. 1015. ص 27.

(3) - مفهوم الحوار مع الآخر وأهميته في الفكر الإنساني. مصطفى الخفاجي. مجلة مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية. 2017. م 7. ع 4. ص 87.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

لَهُ صَحْبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

الكهف 37، ومرة في سورة المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي﴾

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَحَاوِرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ المجادلة 01.

وقد تعددت صور وأشكال الحوار في القصة القرآنية، فكانت تأتي أحيانا على شكل حوار ذاتي، كما في قصة إبراهيم عليه السلام عندما كان يتفكر في خالق هذا الكون وي طرح التساؤلات حوله، أو بين شخصين أو أكثر كما هو مبثوث في عموم القرآن، وهو وسيلة من وسائل التواصل والتخاطب بين الناس، وخاصة إنسانية تفرد بها عن باقي المخلوقات، لارتباطها بالفهم والفكر.

وهو ضرورة لا بد منها، ففي القصة القرآنية يكون أكثر تأثيرا في وجدان المتلقي وأقوى مفعولا، إذ "يشكل عمودها الفقري، فهو العنصر البارز في أقاصيص القرآن، والحوار من أقصر السبل للوصول إلى الغرض ومعرفة الحقيقة، وهو قائم على المنافسة وإيراد الحجج والبراهين المنطقية." (1)

ويمكننا أن نجمل خصائص الحوار في ثلاث: أنه مشترك إنساني، ومنهج تربوي، وأسلوب فني من الأساليب الجمالية الحاضرة بقوة في الخطاب القرآني.

(1) - القصة القرآنية مفهوما وأسلوبا. صابر مشيل. ص 50

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثاني: الحوار مشترك إنساني

الحوار قيمة مشتركة بين الناس جميعا، وهو حاضر وواقع في كل زمان ومكان، بل إنه شرط للتواصل ووسيلة لا بد منها للإفهام وتوضيح وجهات النظر، وهو في الثقافة الغربية يقابل " le dialogue وهو مشتق من dia والتي تعني من خلال، وlogos والتي تعني الكلمة، أي معنى الكلام وتأثيراته المتبادلة سواء كانت فردية أو جماعية – أحد أنواع الاتصال بين الأفراد، وهو يقوم على تبادل الحجج والمعاني دون عنف أو قوة أو خروج عن آداب الحوار، بل إنه حتى تبادل النظر مع شخص آخر هو نوع من أنواع وأشكال الاتصال، ولكنه ليس حوارا، حيث يبدأ الحوار فقط مع التأمل والتفكير وتبادل الحجج والآراء والمعاني، بعبارة أخرى هو التجربة المعيشة بالكلمات، وإذا كان الاتصال قائما بين جميع المخلوقات، فالحوار هو الشكل الوحيد للاتصال الذي يقتصر على الجنس البشري والقائم بين جميع البشر فقط.⁽¹⁾ فهو إذن تبادل كل ما يحمله العقل الإنساني من أفكار وتصورات مختلفة مع غيره، عن طريق الكلام.

وإذا كان الحوار يستوعب مجالات مختلفة، إلا أنه "يعتمد بشكل أساسي على تقابل شخصين منفتحين كل منهما على الآخر، وفي حاجة لتبادل الكلام فيما بينهما، ليصبح الحوار هو التعبير الأساسي عن أي موقف إنساني مثالي، أو تجربة إنسانية معيشة، حتى في حالة الحوار الذاتي مع النفس، فالحوار باعتباره أحد ديناميكيات التفكير، هو خطوة لفهم

(1) - الحوار مع الغرب. آلياته ودوافعه. ص 71.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

العالم والآخر ومشاركته في القناعات المختلفة، بشكل موضوعي أو أقرب إلى الاعتراف وإدراك ما بين الذوات Intersubjectivité⁽¹⁾ فهو قيمة مشتركة أساسية وضرورية في أي تواصل، وفي الخطاب القرآني نجده أشد حضورا وأكثر ظهورا من خلال القصة، إذ جاء الحوار في القصص القرآني " مخاطبا لجميع مستويات البشر على تفاوت درجات الذكاء، واختلاف القدرات العقلية بحيث يجد كل منهم بغيته بنفس العبارة في آن واحد، وذلك لما يحويه من الجمع بين العمق والمتانة مع السهولة واليسر، يقول دراز تحت عنوان: " خطاب العامة وخطاب الخاصة": وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بهم على مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت به العامة باللمحة والإشارة التي يخاطب بها الأذكياء، لَحَتَّتْهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها في بيانك، أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى.. وذلك مما لا تجده على أتمه إلا في القرآن." ⁽²⁾ بمعنى أن ثمة مستويات متفاوتة من الخطاب حسب درجة قابلية فهم المتلقي واستيعابه، وهو يتشكل انطلاقا من هذه الخلفية، أما القرآن، فقد استطاع أن يجمع كل ذلك في خطاب واحد، فهو مفهوم عند الجميع، وبنفس الوقت بلغة معجزة لا يمكن الإتيان بمثلها.

(1) – الحوار مع الغرب. آلياته ودوافعه. ص 72.

(2) – النبأ العظيم. عبد الله دراز. ص 17

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ومن الحكمة الإلهية أن تكون " هناك فروق فردية تؤدي إلى اختلاف استجابة الأفراد للموقف الواحد، ما يترتب على ذلك من اختلاف في وجهات النظر، لهذا يصبح الحوار ضرورة للإقناع والاقتناع بين مكونات المجتمع، ولقد حشد القرآن الكريم في آياته كثيرا من صور الحوار وأشكاله المختلفة، وذلك بحسب نوع المتحاورين وأهدافهم من الحوار، أهو حوار يقصد به الوصول إلى الحقيقة؟ أم أنه تنطع وجدل فارغ المحتوى." (1) وسنأتي على توضيح الفرق بين الحوار وبين الجدل لاحقا.

إن هناك اختلافا من حيث الصفات والخصائص النفسية بين الأفراد، فسنة الحياة وحكمة الله سبحانه وتعالى في الاستخلاف الذي أوكل لبني آدم يقتضي أن يكون تكامل بين الأفراد لتقدم وظائف الحياة، وهذا التكامل يتأتى من هذه الاختلافات قد " جاء الحوار نتيجة للفروق العقلية والذهنية والنفسية بين بني البشر، فليس كل الناس تفكر بنفس الطريقة وتدرك الأمور بشكل متشابه، وهذه خاصية خص الله بها الإنسان عن سائر المخلوقات التي تتصرف بشكل موحد وتسير على نمط واحد، وهذه الاختلافات تسمى بالفروق الفردية." (2) فالتفاوت الطبيعي بين البشر واختلاف طبائعهم ونظرتهم للحياة تجعل من الحوار أداة مثالية للتواصل والانسجام والتفاهم.

(1) - الحوار في القرآن الكريم وتطبيقاته في الحياة ونشر ثقافته في المجتمع. الصديق عوض الكريم. المؤتمر العالمي للقرآن الكريم. الخرطوم. 2011. جامعة إفريقيا العالمية. المركز الإفريقي الإسلامي.. ص 112.

(2) - المرجع السابق. ص 114.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

إن للحوار حدودا لا يمكن أن يتجاوزها، من أهمها " التفكير فيما هو معقول، وليس فيما هو عقلائي فقط، لأن الحوار ذا الحجج والبراهين المتبادلة هو نوع من اختبار للشيء وضده أو نقيضه، من خلال آليات توحيد البشر، من الحكمة والصداقة والإخاء، بعبارة أخرى يصبح العالم متقاسما بين شركاء، فالحوار هو وسيلة تعلم ما هو اجتماعي ومدني وثقافي وديني." ⁽¹⁾ ويخالفه الجدل الذي يبنى على التصنع والتكلف والالتواء، وعدم إيراد الحجة في أغلب الأحيان.

وسنحاول الاقتراب أكثر من هذين المفهومين اللذين كان لهما حضور كبير في القصة القرآنية، ونعرف الحدود الفاصلة بينهما.

1- الحدود الفاصلة بين الحوار والجدل

ترد كلمة حوار أحيانا كثيرة مرادفة لكلمة جدل، لكن القرآن الكريم ميزهما عن بعضهما، كما ميزهما أيضا النقد الأدبي، فكلمة جدل ذكرت في القرآن في 27 موقعا، ولعل السبب في ذلك ما كانت تعيشه الدعوة الإسلامية آنذاك من جحود ورفض لها، فكانت تواجه بالجدال وكثرة المناقشات العقيمة، " فالجدال كان أقرب إلى الواقع العملي الذي عاشه الإنسان.. فقد واجه التحديات الفكرية والتقليدية التي تعيش في داخل وعي

(1) - الحوار مع الغرب. آلياته ودوافعه. 74

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الإنسان وفكره مما يدخل في حركة التغيير الذي يريد الإسلام لها أن تغزو أعماق الإنسان وفكره، لتنتقله من ظلمات الشك والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد.⁽¹⁾

ويظهر هذا الاختلاف جليا في القرآن الكريم في مفهوم الجدل واختلافه عن الحوار، إذ "

يرد الجدل غالبا في سياق الذم، إلا في موضعين، ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽¹²⁵⁾ النحل 125. وفي الآية الأخرى " ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ العنكبوت 46. وقد قيد بالحسنى في الموضعين

الاثنين، وقد كان الحوار وسيلة ربانية " تخطط للإنسان طريقه إلى الهداية دون أن تفرض

عليه، ويدله عليه من موقع ممارسته لإرادته، لينطلق فيه على أساس حرية الإرادة

والاختيار.⁽²⁾ فهو تربية خلقية قبل كل شيء، تعود الإنسان على تقبل الآخر كيفما كان

والإنصات إليه، ومراجعة الكلام معه، في جو يخلو من الاستعلاء والتكبر، ويفتح الآفاق

لفهم أعمق وإدراك أكبر.

وتعود شساعة مساحة كلمة الجدل في القرآن أكثر من الحوار إلى أن " الكلمة

أخذت مدلولاً جديداً يوحى بالطريقة التي يتبعها المتناظران أو المتجادلان، ليغرقا

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 15. 16.

(2) - المرجع نفسه. ص 22

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

حديثهما أو مناظرتها بالكلام العقيم، الذي قد يقترب إلى الترف الذهني.. ولعل السبب في ذلك هو أن الجدل قد يتحول إلى صناعة يقصدها الكثيرون لذاتها، من أجل التدريب على الأخذ والرد⁽¹⁾. وأما كلمة حوار فهي أوسع مدلولاً من كلمة الجدل، باعتبار تضمن الثانية معنى المساجلة والخصام، بينما نجد الكلمة الأولى تتسع له ولغيره. فنقط الالتقاء إذن بين الحوار والجدال أقل بكثير من نقط الاختلاف، " فهما يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين، لكنهما يفترقان بعد ذلك." ⁽²⁾ إذن الحوار هو كل خطاب جنح إلى الإفادة والاحترام بين الطرفين، وعكسه الجدل إذ إنه كل ما قام على رفض الآخر وتصيد أخطائه وسقطاته، وسنحاول في هذا الجدول تحديد أوجه الاختلاف بينهما:

الحوار	الجدل
1- تعاون بين الجانبين من أجل هدف مشترك.	1- كل جهة تحاول إثبات خطأ الآخر.
2- الاستماع ومحاولة فهم الآخر	2- عدم الاستماع وتصيد أخطاء الآخر.
3- اتساع مساحة إمكانية تغيير وجهة نظر الآخر.	3- التشبث بوجهة نظر كل طرف.
4- إعادة مراجعة القناعات والدوافع والمشاعر.	4- الكلام من أجل الانتقاد فقط
5- إمكانية التوصل لحلول أفضل من الحلول الأصلية.	5- الدفاع باستماتة عن وجهة نظر كل طرف، وإن كانت خاطئة. ⁽³⁾

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله.. ص 18.

(2) - المرجع نفسه. ص 18.

(3) - الحوار مع الغرب. آلياته. أهدافه. دوافعه. ص 77.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويأتي الحوار متداخلا مع الجدال شكلا، أما مضمونا فإنه نقيضه، لأن الحوار يحاول

بناء جسور التواصل، أما الجدال فهو يهدمها، ويساعد في إذكاء نار الكراهية والعداوة.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثالث: الحوار منهج قرآني

عندما ننظر إلى الحوار كشكل من أشكال التواصل البشري، وكضرورة تستدعيها كل مجالات المعرفة الاجتماعية والدينية وكافة الصنوف الأخرى، نجد أن الخطاب القرآني كان سباقا إلى تأكيد هذا الأمر وتكريسه بشكل كبير في آياته وقصصه خصوصا، بل قد اتخذ منهجا وطريقا للتبليغ ولاستثارة فكر الإنسان، ودعوته إلى إعمال عقله في اكتشاف ما حوله، والاستفادة من تجارب المحيطين به، غايته أن يسمو به إلى مدارك المعرفة ذلك لأن " الخطاب القرآني قد تأسس على دعامة فكرية، سمت بالإنسان عن نوازع الحس البدائية، التي ظلت الديانات الأسبق تصقلها، وتهذبها فيه، فمخاطبة الكون بالفعل إقرأ، هي إشارة هذا الانطلاق المثقف، الذي يحمل الإنسان بصيغته الإلزامية، على أن يحيا وجوده واعيا، متأملا، متسائلا، مؤسسا إدراكه وتحصيله، على روح مسؤولية، فيها ذلك الجانب الإيجابي الفارز للمعطيات، والهاضم لها، والمتمثل لحقائقها، عن تعقل وبصيرة.. لقد كانت القراءة أبدا مشروعا حواريا، يواصل جدليته في سبيل امتلاك القناعات، التي ستؤطر الحياة، وتوجه صيرورتها على ضوء العقل والحقيقة، لقد خاطبت أدبية القرآن الجن والجناد والمغيب، مخاطبتها للإنسان، تكريسا منها لمبدأ الجوار، الذي شكل أبرز فنيات الخطاب القرآني. "(1) فهو منهج قائم على طول الخطاب القرآني.

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشيراتي. ص 192.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وإن افتتاح الكثير من سور القرآن بآيات استفهامية، ليظهر بشكل جلي هذا المنحى الذي اتخذته الخطاب القرآني في إظهار دعوته ونشر رسالته، إذ إنه من البدهي أن يتبع الاستفهام رد، وهذا يفضي بشكل تلقائي إلى الحوار، وهو ما نجده حاضرا أيضا في سورة طه، عندما

ابتدأت القصة بسؤال الله تعالى لنيبه محمد ﷺ عن أخبار قصة موسى ﴿ هَلْ أَتَاكَ

حَدِيثٌ مُوسَى ۝١٥ ﴾، بل إنه أسلوب دعوة ومنهج دين ودنيا، كما تؤكد ذلك العديد من

الآيات القرآنية، بل إنه حتى في أشد اللحظات وطأة وصعوبة عند الإنسان، يظل الحوار

قائما ومتاحا للجميع دون تمييز، كقوله ﷻ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝١٢٤ ﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدَكُنْتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ ﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ ۝١٢٦ ﴾ سورة طه، إنه حتى في أشد المواقف

رهبة وخضوعا، فإن الله تبارك وتعالى يترك المجال لعباده أن يتكلموا ويدافعوا عن

أنفسهم، ويدعو الله عز وجل دائما المعارضين له بالإتيان بالحجة والبرهان، يقول تعالى:

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١١١ ﴾ (البقرة: 111) ، وقوله

سبحانه ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: 42) "

وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب، وبتعبير آخر، " فالقرآن كله حوار من أوله إلى

آخره. "(1)

(1) - أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر. محمد آيت حمو. ص 277.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وتختلف أشكال الحوار، كما تتعدد مرجعيات المحاورين، إذ " قد يكون الحوار بين أطراف متوافقة من حيث المقصد وإن اختلفت وجهات النظر، كحوار موسى مع العبد الصالح، وحوار ملكة سبأ مع ملئها، وقد يكون بين أطراف مختلفة، وهو الغالب الذي يلزم فيه المغالبة وإظهار الحجة، وفي جميع هذه الأحوال، نجد القرآن الكريم يكشف وجهة نظر كل فريق بأمانة ودقة، وأوضح مما لو أراد التكلم مع نفسه، ذلك أن تقديم الحجج المؤيدة والمعارضة في الموضوع الواحد، يكون أكثر فاعلية وأقوى أثرا، وأمكن في ترسيخ المعاني المراد إيصالها، كما أن القرآن لم يضق ذرعا بذكر آراء المخالفين، مهما بلغت معارضتهم، أو خفي الباطل أو كبس، لأنه لا يفوته كشف باطلها، وإظهار زيفها، ولنشدانه الحق الصريح. "(1) وهذا يؤكد إصرار الخطاب القرآني على جعل الحوار وسيلة دعوية ومنهج يقوم عليه، ويدعوننا لتمثله في حياتنا وفي جميع نظمنا.

ولا بد في هذا الصدد من تأمل الحوارات القوية التي وردت في قصص القرآن مع المشركين والكافرين، الذين كان الرسول ﷺ في محاجة معهم، وعموما " فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار. "(2) وقد تأسى علماء المسلمين وشيوخهم بالمنهج القرآني في حوارهم مع الآخر المختلف عنهم في الدين والعقيدة، وجعلوه أساسا ومنطلقا لهم للتعامل مع غيرهم والاختلاف معهم.

(1) - مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني. أحمد الشايرة. ص 172.

(2) - أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر. محمد آيت حمو. ص 277.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فوجد ابن حزم مثلاً، كان مهتماً باليهودية ونقدها اهتماماً بالغاً، " إلى درجة أن أحد أقاربه قال مازحاً ساخراً منه: ونسيت أبا محمد حاشتك وشيعتك التي صرت رئيس مدارسهم، وكبير حراسهم، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر، فتارة عن السامري والعجل، وتارة عن القمل والنمل، وطوراً بحديث التيه، وطوراً تضحكهم بحديث جالوت وذويه.. حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان مُعتكفك.. أليس هناك حوار مع الآخر أعظم من هذا الحوار، حوار يتطلع إلى معرفة الآخر دفاعاً عن القيم الإسلامية، حوار هو توأم للمعرفة." (1) وهذا هو ما سعى إلى ترسيخه الخطاب القرآني والتأكيد عليه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحوار كمنهج أساسي للتعامل والتفاهم بين بني البشر والاقتناع بما يناسبهم عقدياً أو فكرياً، " يخاطب الإنسان خطاب الخير بالخصائص الذاتية للنفس البشرية التي فطرت عليها بما تحتويه من غرائز وحاجات عضوية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (14) سورة الملك (2)

و لنا أن نتأمل في خطاب القرآن الكريم للإنسان، وحوارات الأنبياء ﷺ مع ذواتهم وأقوامهم، كيف تدفع الإنسان إلى الطاعة واليقين والإيمان من خلال البحث عن السبل

(1) - المرجع نفسه. ص 278.

(2) - مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني. محمد الشايرة. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية. م2. ع3. 2006.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

الناجعة لتحقيقها ، لذلك جاء القرآن الكريم ليضع العقل الإنساني دائما موضع التفكير والتدبر والمناقشة، فكانت الكثير من الآيات تستثير هذا الجانب في الإنسان، عبر حوارات تكشف عن مكنونات النفس البشرية، وعن حقيقة الكون وأصل الإنسان ومآله. كما جاء

في هذه الآيات الكريمة ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ ۗ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۚ ۝١٠٤ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جَبَلًا ۚ ۝١٠٥ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ ۝١٠٨﴾

فهذه الآيات تظهر حوارات متعددة: حوار على لسان المجرمين فيما بينهم، وحوار بين الله تعالى ونبيه الكريم، في جواب عن سؤال قومه عن الجبال ومصيرها، فالآيات كلها حوارات وتساؤلات وإجابات دقيقة، بأسلوب يبعث على الانفعال والتأثر والتدبر.

وفي السورة أيضا مثال آخر على هذه الدعوة للتأمل في قدرة الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ۝١٠٥﴾، إنها دعوة للتدبر وإعادة التفكير، دعوة تستثير النفس لتخرج إلى جو التفكير في ملكوت الله، وفي قوة الخالق ﷻ، عبر طرح التساؤلات والمناقشات في حوار مع العقل، ليصير أسلوب حياة للإنسان، يستقيه من خلال النماذج المذكورة وغيرها.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

وفي معظم هذه الحوارات القرآنية الموجهة للإنسان بالدرجة الأولى، تجد الإجابة عن التساؤلات المطروحة الغامضة.

والآية التي سبق الإشارة إليها تحمل دعوة للتفكير والتأمل، في قوله تعالى:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَبْقَىٰ فِيهَا

عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ ۝١٠٧ يَوْمَ يَذِرُ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا

تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۗ ۝١٠٨﴾، إنها تساؤلات تطرح، فيأتي الجواب من الله تبارك وتعالى مفصلاً

يفهمه العالم والأمي، في دعوة ضمنية عامة للتفكير في هذا الكون وتدبر آياته.

ويطرح دراز تساؤلاً في هذا الصدد إذ يقول: " فسل علماء النفس هل رأيتم أحداً

تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان، وسائر القوى النفسية على السواء، ولو مالت هذه

القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس، فهل ترونها تعمل في النفس دفعة

واحدة؟ يجيبوك بلسان واحد: كلا بل لا تعمل إلا متناوبة في حال بعد حال، وكلما

تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى، وكاد ينمحي أثرها. ⁽¹⁾ وهذا قد سبقت

الإشارة إليه، لكن دراز يطرح معنى آخر للاختلاف، فيرمي إلى أن هذه المعاني والأفكار

تظهر وتختفي عند الفرد الواحد بحسب حاجته إليها، إذ لا يمكن تواردها في نفس

اللحظة، فكيف بمجموعة من الناس أن يكونوا على فكرة أو خاطرة واحدة، ثم يبسط

(1) - النبأ العظيم. نظرات جديدة في القرآن الكريم. عبد الله دراز. دار القلم. الكويت ص 114.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

دراز أسباب هذا التنوع والاختلاف عند البشر في الإدراك والفهم، وطريقة استيعابهم. وهذه القوى العقلية والوجدانية التي يمتلكونها هي القادرة على إجراء التواصل والحوار سواء مع الذات أو مع الآخر.

وهذه الفكرة تحيلنا إلى الآيات التي ذكرها سبحانه في سورة طه في خطابه للذين ينكرون ويحدون الحقيقة المطلقة، فيخاطبهم على قدر فهمهم وطريقتهم في التفكير، ويتوجه إليهم بحديثه من خلال القرآن، في حوار مفترض لما سيقولون، لأن الله سبحانه

قد سبق في علمه ذلك: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ (106) لَا تَبْرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۖ (108) يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۖ (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ (110) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۖ (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۖ (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ (113)﴾، فهذه الآية الكريمة، قد جاءت خاتمة

للسورة، وهي أصدق دليل على أن الحوار منهج قرآني إلهي لا شك فيه، فالناس لا يزالون يتبادلون الحديث يوم الحشر رغم هول الموقف، ورهبة المكان، ولأن الحوار أساس

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

للتواصل ومصدر لبعث الألفة والطمأنينة مع الآخر، فهم يلجأون إليه، نظرا لكونه الشيء الوحيد الذي يمكنهم ممارسته في تلك اللحظات الرهيبة.

فالسورة إذن بدأت بحوار وختمت به، وسنحاول أن نوغل أكثر في هذا المفهوم عبر سبرنا لأغوار نفسيات الشخصوس التي تؤدبه، والخصوص في أعماقها، وذلك لأنها الوحيدة القادرة على إبرازه وإظهاره للوجود.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الرابع: الحوار أسلوب فني

إن للحوار وظيفة فنية وجمالية، فهو أسلوب فني بارز تميزت به القصة القرآنية، كما يشير إلى ذلك الطاهر بن عاشور في أن القصص القرآني يستعمل أسلوب التوصيف والمحاورة، وهو أسلوب لم يكن معهودا للعرب، فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن، إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع، ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه.⁽¹⁾ عند إلى إلى جانب أنه وسيلة أساسية للكشف عن مكنونات الشخصيات وانفعالاتها، فهو "من عوامل التشويق لما فيه من تلوين الأسلوب، والحوار أيضا عنصر بارز في قصص القرآن التي تتعدد فيها الشخصيات ويظهر فيها الجدل والمحاورة"⁽²⁾

وبالنسبة للقصة الأدبية، فإن " للحوار وظيفة مهمة إلى جانب تطوير الحدث، وهي البوح بعواطف ومشاعر الشخصيات في القصة عن طريق ربط شخصيات القصة بخيط واحد، مما يساعد على تكثيفها وإبرازها كوحدة فنية، وكقاعدة فنية ينبغي أن يكون الحوار

(1) - كتاب التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. ج1. الدار التونسية للنشر. تونس. 1984. ص66.

(2) - خصائص القصة الإسلامية. مأمون جرار. دار المنارة. جدة. 1988. ص 83.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ملائما للشخصية، ودالا دلالة صادقة على حقيقتها ⁽¹⁾. إلى جانب أنه يكسبها جوا من الحيوية والواقعية، تخرج بالمتلقي من جو الرتبة الذي قد يستشعره عندما يطول السرد.

وللحوار مهمة أخرى داخل السرد، إذ " يستعمل أحيانا في تطوير الحوادث واستحضار الحلقات المفقودة منها، إلا أن عمله الحقيقي في القصة هو رفع الحجب عن عواطف الشخصية وأحاسيسها المختلفة، وشعورها الباطن تجاه الأحداث والشخصيات الأخرى، وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف، على أن يكون بطريقة تلقائية تخلو من الصنعة والتعمد الافتعال. ⁽²⁾ وهذه هي الطريقة المثالية لتوظيفه، والتي بلغت في القصة القرآنية ذروتها في الكشف عن مكنونات الشخصيات ووصف عواطفهم وانفعالاتهم بشكل تلقائي وصادق.

وقد استلهم الكتاب والأدباء هذا الأسلوب، إذ لا " يستغني الكاتب المحايد الذي يحاول أن ينحي نفسه جانبا عن الحوار، وذلك لترك للشخصيات أن تمثل حوادث القصة بحرية وانطلاقة أمام ناظري القارئ، ولهذا لا يقحم نفسه بتعليق أو تعقيب، بل يؤثر أن يدع الشخصية تتكلم، تبث عواطفها وأحاسيسها، ولا شك أن هذه الوسيلة أوثق صلة بالحياة وأصدق تعبيرا عن النفس الإنسانية. ⁽³⁾ إذ يطبعها طابع الصدق والواقعية

(1) - القصة في أدب الجاحظ. عبد الله باقازي. تهامة للنشر. ط 1. 1982. السعودية. ص 91.

(2) - فن القصة. محمد يوسف نجم. دار بيروت للطباعة والنشر. 1955. لبنان. ص 113.

(3) - المرج نفسه. ص 113.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

وتغلّفها بنفس الوقت لمسة الأديب الفنية، بالإضافة إلى أن " النسق الدرامي في البنية السردية يجعل الحوار قريبا من قلوب القراء وأسماعهم، وتمكن المؤلف من الكشف عن الأحداث بسهولة، وقد يوظف الحوار في تطور الحدث والإبلاغ عنه. "(1) فلا يأخذ المتلقي وقتا في فهم الوقائع وإدراكها، لأن الحوار يساعد على الكشف السريع لها.

وإن أسلوب الحوار في القصة القرآنية لأكثر براعة وأبلغ معنى من غيره مما ذكرنا في القصة الأدبية العادية.

وكما ذكرنا سابقا فإن الحوار في القصة القرآنية يعتبر تقنية فعالة ومؤثرة لدى المتلقي، وباعتبار الخطاب القرآني " خطابا توصيليا، يصدر عن أدبية تقريرية إقناعية، فإن الحوار من أبرز فعالياته التبليغية.. والمواقف القرآنية تنزع بصورة عامة إلى الإفضاء والتقرير، بواسطة القول والتقويل، وتواتر فعل " قال " " قل " " قالوا " في النص القرآني، وتوزيعاتها السردية، الإسنادية، المحيلة على المتخاطبين، دليل على أهمية هذه الوسيلة التقريرية القرآنية القائمة على الحوار. "(2)

(1) - الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية. دار العودة. بيروت. لبنان. 1971. ص 57.

(2) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشيراتي. ص 195.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

ويكون أحيانا للحوار وظيفة وصفية لبعض المشاهد، من ذلك مثلا " كشفه عن

موقف المشادة التي بدرت عن موسى، حيال أخيه بعد ردة قومهما، ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ

بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ (1).

بالإضافة إلى وجود خصائص أخرى تميز الحوار القصصي القرآني " كالخاصية

التوسيعية، وتتمثل في نزوعه نحو الاستطراد، والخروج عن نطاق هويته الحوارية، إلى

نطاق هوية أخرى تعبيرية إضفائية، من ذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿ 53 ﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿ 54 ﴾

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿ 55 ﴾ فخطاب موسى يمكن أن يجد بنهاية

الآية (52)، ولا ينسى، ويمكن أن يسترسل إلى قوله (ماء)، لأن صيغة الالتفات، التي

يصدر عنها الخطاب في قوله (فَأَخْرَجْنَا) ترتد بالخطاب إلى الله، فيكون بذلك السياق

تعقيبا، قد أوصل خطاب موسى بخطاب الله إيصالا عضويا، من خلال شد الخطاب

باسم الصلة (الَّذِي)، حيث أخذ الموصول موقعا ابتدائيا، وتوصيفا لما قبله في ذات

الوقت، ربطا لنسيج السياق وتنويعا للإفادات ضمن وحدة ذلك السياق. (2) فمرونة

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشيراتي، ص 197.

(2) - المرجع السابق. ص 199

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الحوار وقابليته لاتخاذ أشكال مختلفة داخل القصة يزيد من دورها الفعال في التأثير وتبليغ المقصود. "ولذلك فإن فاعليته قد توطدت في الخطاب القرآني على الصعيد السردى، واضطلعت بوظيفة إيعازية تأثيرية، فجاء مركزا، موصولا بالمقصد التربوي الذي اتبعته الدعوة القرآنية تبليغا لمبادئها، ولم تقصر الأدبية فاعليتها الحوارية على المستويات القصصية القرآنية." ⁽¹⁾ فالفاعلية الحوارية حاضرة في القصص القرآني، لما تحدثه من أثر دعوي وجمالي مؤثر.

ويبقى الحوار تلك "الروح التي تسري في كيان العمل القصصي، وبغيره يتحول العمل إلى كتلة باردة متحجرة، لذلك عندما نتحدث عن الحوار، نجده يتصل اتصالا وثيقا بالقصص." ⁽²⁾ وهذا سيقودنا حتما إلى القصص القرآني، فحين نقف مثلا بين يدي موقف من تلك المواقف التي أدار فيها القرآن الحوار بين شخصيات الحدث القصصي، نجد المشهد كله حاضرا مشخصا يملأ الأسماع والأبصار، بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه.. وفضل القرآن هنا إنما يظهر أكثر ما يظهر في ملء تلك الفراغات التي تقع بين ثنايا الحوار، وذلك على الوجه الذي يجعل للقارئ منافذ ينفذ منها إلى القصة، ليملا الفراغات التي تركت عن حكمة وتدبير، لتحرك فيها بعقله وخياله، وليكون له في القصة موقف ما

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية. سليمان عشراقي. ص 203.

(2) - القصص القرآني في منطوقه ومفهومه. عبد الكريم الخطيب. ص 9.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

يصله بها، أو يشده إليها." (1) والقرآن لا يلتزم في ذلك بمنهج واحد في إقامة هذا البناء، لأن ذلك يخنقه ويحد من امتداده الفني، وإنما يجعله متنوعا حسب ما يقتضيه السياق، "لذلك نجده يذهب بالأسلوب الحوارى كل مذهب، ويلونه ألوانا مختلفة، حسب مقتضى الحال وداعية المقام، فهو حينما مختصرا للأحداث يعرضها عرضا سريعا تطوى فيه التفاصيل، وتعنى فيه الإشارة اللاحقة، وأحيانا يفصل الأمر تفصيلا، حيث لا يكون غير الكلمة ما يغني غناءها وما يسد مسدها." (2)

وتبقى الإشارة في نهاية هذه الفقرة إلى أن الحوار في القصص القرآني له خصوصية ربانية، ولذلك نجده دائما من صميم الحقيقة، مرتبطا بها في هيئة لا تخل بأدبيته وفنيته، بل تزيده جمالية وروعة، وارتباطا بوجدان المتلقي وفكره.

(1) - القصص القرآني في منظوقه ومفهومه. عبد الكريم الخطيب. ص 124.

(2) - مرجع سابق. ص 124

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

المطلب الثاني: الدلالات الفنية لحوار الشخصيات في القصة

وحتى لا نعيد ما أسلفنا الحديث عنه سابقا من سرد لشخصيات الحوار التي هي نفسها شخصيات القصة، فنكتفي بإثارة الجوانب الأخرى التي لم يتم التطرق إليها في القصة:

الفرع الأول: أسلوب حوار الشخصيات.

إن الشخصيات في الحوار القرآني تختلف عن الشخصيات العادية، كحوار الله تعالى مع موسى عليه السلام، وهو أمر خارق للعادة، ولذلك فإن الحوار أيضا لن يكون عاديا، ولن تنطبق عليه مقومات الحوار العادي، لكن بصفة عامة " فالحوار يصور بدقة وبشكل مباشر حالة الشخصية النفسية أو وضعيته داخل السرد، فهو أكثر أسلوب يجعلنا نلتقي بشكل مباشر مع الشخصيات، ونعرف مكنوناتهم ونوازعهم. "(1)، فهو بذلك أسلوب كاشف، يضيء جوانب الشخصية المعتمدة التي لم يتمكن السرد من ملامستها، وهو بذلك " معيار نفسي دقيق يستطيع أن يصنف نفسيات الشخصيات بذكاء وحق، بالإضافة إلى تطوير لهذه الشخصيات وتنمية للحدث معا. "(2) وهو ما سنأتي للحديث عنه بالتفصيل لاحقا.

(1) - الزمن في الرواية العربية. ص 239

(2) - الحوار في القصة المسرحية والإذاعة والتلفزيون. طه عبد الفتاح مقلد. مكتبة الشباب. القاهرة. مصر. 1975.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثاني: أشكال الحوار بين الشخصيات في القصة

لقد ساقَت القصة القرآنية أشكالاً من المحاورات التي دارت بين الله تبارك وتعالى وبين أنبيائه، وبينهم وبين أقوامهم... وبين من يحملون نفس الأفكار والمبادئ، ومن يختلفون فكراً وعقيدة، وبين المفسدين والمصلحين، وعندما نتدبرها في كتاب الله، نرى بأن الأخيار فيها يتميزون بالصدق في قولهم والجدية في تعاملهم مع من يخالفهم، ويكون سبيلهم إلى ذلك سلوك طريق الحق الذي يدحض الباطل ويمحوه، بخلاف أهل الشر، الذين كانوا لا يألون جهداً في التدليس والخداع والتكبر عن تقبل الحق.

وسنحاول التطرق لكل أشكال الحوار التي دارت بين الشخصيات في قصة موسى وفرعون في سورة طه. بداية بحوار الله تعالى مع موسى، وما تخللته من أحداث ووقائع ستشكل تحولاً جذرياً بعد ذلك في القصة، وقد ابتدأت من الآية 10 إلى الآية 47، وكان الخطاب فيها مهيمناً من الجانب الإلهي، في مقابل اقتصار موسى عليه السلام على الإجابة على أسئلة الله تعالى له، وتخوفه بعد تكليفه بتبليغ الدعوة والخروج أمام فرعون وقومه، تلتها مواجهة موسى وهارون مع فرعون مباشرة، ونلاحظ أن الآيتين 47 و48، قد تداخلتا في الحوار الأول والثاني، وهذه تقنية أسلوبية جميلة، جعلت الخطاب الرباني لموسى يتمازج بسلاسة مع حوارهِ مع فرعون.. فالكلام الذي صدر عن الله تعالى أصبح على لسان موسى وأخيه دون زيادة أو نقصان، وهذا يبين إلى أي مدى كان موسى صادقاً وحريصاً في تبليغ الرسالة بحذافيرها، كما يظهر براعة الحوار في نقل التفاصيل بدقة

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وموضوعية. ثم تأتي الآية 49 مباشرة بتساؤل فرعون التهكمي، الذي يتغيا منه التقليل من شأن موسى وإحراجة أمام الملأ، وهنا نجد بأن مستوى الحوار قد تغير تماما، واختلف شكلا ومضمونا، ودخل دائرة الجدل والتنطع والغطرسة من قبل فرعون إلى أن ختم بتحديد موعد للمواجهة، وهذا يوضح بأن " الحوار البناء الذي يقصد به الوصول إلى الحق والعدل ومكارم الأخلاق، هو الذي يكون لحمته وسداه الصدق في القول، والعفاف في السلوك.. أما الكذابون والجهلاء وأصحاب الهوى والنفس فإنهم يتبعون كل طريق سيء ومظلم، ويتبعون المصالح الخاصة، والذين امتلأت قلوبهم بالحق والجن والغرور، فهم الذين يجادلون غيرهم بالباطل ويكابرون بدون حجة أو دليل، ولا يقيمون دعاوهم إلا على الكذب والبهتان والزور"⁽¹⁾، وبهذا ينتهي المقطع الحواري الثاني في القصة، ليبدأ المقطع الثالث، وهنا أيضا يوجز القرآن ذكر التفاصيل وينقلنا مباشرة إلى يوم الزينة وحال السحرة وهم يتناجون مع بعضهم، وموسى يذكرهم مرة أخرى بجوهر رسالته قبل أن تبدأ المواجهة، لكنهم ظلوا مصرين على موقفهم مستكبرين وواثقين من انتصارهم، لكن هذا الموقف سيتحول إلى نقيضه تماما في هذا المقطع الحواري، عندما يخسر السحرة ساجدين، ويصور لنا القرآن تأثيرهم وانفعالهم لما شاهدوه من معجزات، ولما استشعروه من خضوع وإيمان بالله عز وجل، لم يخفهم معه تهديد فرعون ولا وعيده،

(1) -مهارات الحوار الفعال وعلاقتها ببعض سمات الشخصية على ضوء التربية الإسلامية. محمود زقزوق. مقال بمجلة "رسالة الخليج العربي، الأعداد 115-118 مكتب التربية العربي لدول الخليج، 2010.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

والمتلقي يجد نفسه أمام هذا المقطع كأنه حاضر معهم، مستشعر لقوتهم ويقينهم، بشكل أبلغ مما إذا كان معهم حقيقة أو واقعا، لأن الحوار كشف عن مكنوناتهم ودواخلهم، إلى جانب ما بدا منهم أمام فرعون، وهذه خاصية أخرى من خصائص الحوار القصصي القرآني، المرتبطة بتحديد مواقف الشخصيات ونفسياتها بكل دقة وسلاسة.

وإذا انتقلنا إلى المقطع الحواري الرابع من القصة من الآية 83 إلى الآية 85، وجدنا الخطاب يعود مرة أخرى إلى وضعه الأول بين الله تعالى وموسى، يبدؤه تعالى بسؤال موسى عن قومه الذين خلفهم وراءه، والسبب الذي دعاه للقيام بذلك -وهو أعلم العالمين-، فيجيبه موسى بأنه تعجل لقاءه والحضور بين يديه طلبا للقرب والرضا، فيخبره عز وجل بأن قومه قد ضلوا بسبب رجل من قومه، وينقلنا القصص هذه المرة بشكل مختلف، فهو يفصل في أمر موسى، ويذكر أمر رجوعه والحالة التي كان عليها حينها من الغضب والأسف عليهم. ثم ينتقل بعدها إلى المقطع الحواري الخامس، في الآيتين 85 و86، يبدؤها باستنكار موسى فعل قومه، وتذكيره بنعم الله عليهم، وتخويفهم من غضبه عليهم، ليأتي جوابهم، استهتارا واستخفافا بأوامر الله، ويكون دليلا على خسة نفوسهم ودناءتها. وقد حشد هذا المقطع أيضا مجموعة من العواطف والانفعالات المتضاربة، من شوق ومحبة وغضب وأسف واستخفاف ولا مبالاة وعتاب وتأنيب.. وغيرها من المشاعر التي تداخلت لتشكيل لوحة حوارية بديعة، تجعل النفس تحضرها وتستشعرها وتتأثر بأحداثها.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ويأتي المقطع السادس بين موسى عليه السلام مع أخيه هارون، من الآية 92 إلى الآية 94، ويظهر فيه معاتبا له، لأنه لم يمنع بني إسرائيل من عبادة العجل، والمفروض أن يكون بعيدا عن اللوم والالتهام، نظرا لمعرفته التامة به وبصدقه، لكن الغضب يحجب عنه ذلك، فيستدعي فيه هارون عاطفة الأخوة عندما يتوجه إليه بعبارة ﴿يَبْنَؤُمْ﴾ أملا في تهدئته، وبعدها يذكر له عذره، والسبب الذي دعاه لتركهم على حالتهم. وقد خيم على هذا الحوار جو من الغضب في بدايته، لينقلب بعدها إلى جو من الألفة واستثارة العاطفة، بإيجاز وتكثيف بالغ يخدم الغاية الفنية والدعوية على السواء، فيلخص الحدث بين أخوين نبين، دون دخول في التفاصيل.

ويأتي المقطع الحواري السابع والآخر خاتمة لهذه القصة بين موسى عليه السلام والسامري، من الآية 95 إلى الآية 98، ويظهر فيه موسى وقد هدأ غضبه وأصبح أكثر هدوءا، وهو يستفسر من الرجل سبب قيامه بفعله، ويترك له المجال للتعبير والتبرير، لكنه يجد حجته واهية، وادعاءه باطل، فيحكم عليه بالنفي وعدم مخالطة الناس، عقابا له على ما قام به من تضليل وتدليس.

وهكذا فالحوار قد يكون " بين أطراف متوافقة من حيث المقصد وإن اختلفت وجهات النظر، كحوار موسى عليه السلام مع العبد الصالح، أو حوار المشاورة كحوار ملكة سبأ مع ملئها، وقد يكون بين أطراف مختلفة، وهو الغالب الذي يلزم فيه المغالبة وإظهار الحجة، وفي جميع هذه الأحوال، نجد القرآن الكريم يكشف وجهة نظر كل فريق بأمانة

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

ودقة أوضح مما لو أراد التكلم بنفسه، كما أن القرآن لا يضيق ذرعا بذكر آراء المخالفين مهما بلغت معارضتهم، أو خفي الباطل ولُبس لأنه لا يفوته كشف باطلها وإظهار زيفها، ولنشدانه الحق الصريح. ⁽¹⁾

إن هذه القصة - وغيرها من قصص القرآن- تجعلنا نقف على أشكال حوارية متعددة ذات مرجعيات مختلفة للشخصيات، تظهر لنا إلى أي مدى يستوعبها الحوار جميعها ويجعلنا نقرب منها عن كثب، وينجح في توصيفها أكانت شخصيات خيرة أو شريرة، وهذا يخدم الجانب الفني والجمالي في القصة القرآنية بشكل كبير.

ويمكن أن نصنف هذه الأشكال من الحوار إلى ثلاثة أقسام أساسية، من خلال ما تناولناه في قصة موسى عليه السلام، وهي كما " تقسمها الباحثة اللسانية كاترين كيربرات:

1- حوار ثنائي (dialogue) عندما تتحاور شخصيتان، وهذا النوع من الحوار متواجد بكثرة في قصتنا، بين الله وموسى، وبين موسى وهارون، وبين موسى وفرعون..

2- حوار ثلاثي (trilogue) ثلاث شخصيات تتحاور، وهذا النوع أيضا نجده في قصة موسى بين موسى وهارون وفرعون، فلنا أن نتخيل الحوار الذي دار بينهم وهارون يفصح عما تعذر عن موسى تبليغه كما جاء في الآية ﴿ قَالَ رَبِّ اٰسْرَ لِصَدْرِي ۖ وَبَسِّرْ لِي ﴾ ⁽²⁵⁾

(1) - مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني. أحمد الشايرة. ص 172.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾

3- حوار متعدد (polylogue)⁽¹⁾ ويتم بين أكثر من شخصية، وهو أيضا حاضر

بكثرة في السورة، نجده بين موسى والسحرة، وبين موسى وبني إسرائيل، وبين فرعون والسحرة.

هكذا نجد بأن كل هذه الأشكال الحوارية كانت حاضرة بقوة في القصة القرآنية، وهو ما يجعلها نموذجا يحتذى به من قبل الأدباء والكتاب لأجل إخراج إبداعاتهم في أجمل حلة. إذ إن هذه التعددية وهذا التنوع يمنح الروح للعمل الفني، ويبعث فيه الحياة.

(1) - الصورة. الإنسان والرواية. ص 162.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

المطلب الثالث: آليات تحقق الحوار

الفرع الأول: شروط الحوار وأهدافه

إن الحوار يزرع في الإنسان أخلاقا وشيئا طيبة عديدة، لا بد أن يتحلى بها إذا أراد أن يكون حوارا هادفا له غاية ومقصد يرنو إليه، وبذلك يصبح أسلوب حياة ومنهج متبع، وسنحاول الوقوف على أبرزها من خلال ما سيأتي:

1- الالتزام بالموضوعية

في القصص القرآني وفي حوار الأنبياء والمرسلين ﷺ مع أقوامهم، نجد أنهم دائما يلتزمون بموضوع النقاش، ولا يهربون منه إلى مواضيع جانبية أخرى، وذلك لأنهم أصحاب حق ملتزمون بقضيتهم، وأداء رسالتهم على أكمل وجه، "إذ لا تجد إلا القول الفصل، والجواب الذي يهدم دعاوى المبطلين من أساسها دون خلط للأوراق، ودون خروج عن موضوع الخلاف." ⁽¹⁾ فعندما كلف الله موسى بدعوة فرعون إلى التوحيد، ذهب إليه قاصدا في طلبه، لم يطل في مقدمة ولم يسهب في كلام، وإنما بلغ ما أمر به بالحرف.

(1) - أدب الحوار في الإسلام. طنطاوي. ص 25.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

2- الاقتناع بالفكرة إذا كانت صحيحة

ومثال على ذلك سحرة فرعون، عندما تيقنوا أن ما جاء به موسى هو الحق، آمنوا فوراً، وردُّوا على فرعون الذي توعدهم بالتمثيل به وقطع أطرافهم بقولهم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) ، وهكذا ضرب سحرة فرعون مثالا صارخا في الإخلاص والشجاعة والخضوع لله تعالى بعد أن صارت كل الأدلة واضحة على أن موسى عليه السلام على حق.

3- ترك المجال للآخر المختلف في الرأي

يقول الحق ﷻ: ﴿فَأَنبِئْهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ﴿الْيَمِّ إِلَى قَوْلِهِ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ ﴿إِفْتَرَى﴾ (61) فموسى عليه السلام أفسح المجال لفرعون وهو يعلم بأن ما يقوله وما يدعيه باطل، لكن تركه يتكلم ولم يخش أن يؤثر على الناس بكلامه، وحتى يؤمن من آمن عن بيّنة، ويكفر من كفر عن بيّنة، ولأن الإنسان جُبِلَ بطبعه على اتباع الحق، وبعقله الذي ميزه عن سائر الكائنات الأخرى على التفريق بين الخير والشر، إلا من وجدت في نفسه بذور الكبر والغرور والتجبر، فإنه يحدد وهو مدرك لحقيقة الأمر. لكن سنة الله في الكون تقتضي أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن صولة الباطل ساعة، وصولة الحق إلى قيام الساعة.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وفي المقابل نجد فرعون وقد توعد السحرة بالتعذيب لأنهم خرجوا عن سيطرته، ولم يعودوا تحت تبعيته، فمارس عليهم أشكال الإرهاب النفسي والفكري ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (72) إِنَاءً أَمَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿73﴾، إذ إنه في مثل هذه الظروف يستحيل الاستمرار في الحوار، أو حتى ممارسته.

والخطاب القرآني كان دائما سباقا إلى إفساح المجال للآخر - كيف ما كان - إلى أبعد الحدود، بل أحيانا كانت تطفئ نبرة التواضع بالرغم مما يحمله الخطاب من حق وفضيلة، وما يحمله الآخر من باطل واذيلة، يقول سبحانه على لسان المؤمنين والكافرين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿25﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿26﴾ أي إنا لعلى هدى أو في ضلال، أو إنكم على ضلال أو هدى. ففي هذا الموقف تواضع جم من أهل الإيمان، فقد سوا أنفسهم مع محاورهم دون تعال، وبهذه المساواة التامة مع الخصم، إذ إن أي حوار فيه استعلاء مع الطرف الآخر فإنه منته منذ البداية.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

4- التحدث بما يدركه الآخر ويعيه

عندما كُلف موسى ﷺ بتبليغ الرسالة إلى فرعون، دعا ربه أن يحقق له بعض

الأمور التي تعينه في مواجهة فرعون، ﴿ قَالَ رَبِّ اشرحْ لِي صَدْرِي ⁽²⁵⁾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ⁽²⁶⁾

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ⁽²⁷⁾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ⁽²⁸⁾ ۝. إنا " نلاحظ أنه حينما تحدث موسى ﷺ

عن اللسان، ربط به جوهر رسالته كلها في فهم الناس عنه ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ⁽²⁸⁾ ۝، لأنهم

إذا لم يفهموا قوله ولم يفقهوه، فقد انفصمت الرابطة بينهم وبينه، لانعدام وسيلة

الاتصال. ⁽¹⁾ فنجد موسى يؤكد على هذا الأمر ويولي له أهمية بالغة، فالإبانة في الخطاب

من أهم شروط التواصل، " فموسى ﷺ يصر على أن يكتمل لديه هذا السلاح الذي لا

بديل له عند الداعية، وهو البيان ممثلا في اللسان، وحينما كلفه ربه ﷻ إعلان رسالته

وتبليغها إلى أعتى طغاة عصره فرعون، لم يطلب موسى قوة ولا سلاحا في هذا الصراع

الرهيب، سوى لسان كامل البيان، ولم يكن لسانه كامل البيان والطلاقة، فطلب

الاستعانة بأخيه الفصيح الطليق اللسان ﴿ قَالَ رَبِّ اشرحْ لِي صَدْرِي ⁽²⁵⁾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ⁽²⁶⁾

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ⁽²⁷⁾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ⁽²⁸⁾ ۝ واجعلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ⁽²⁹⁾ هَارُونَ أَخِي ⁽³⁰⁾ اشْدُدْ بِهِ

أَزْرِي ⁽³¹⁾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ⁽³²⁾ ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ⁽³³⁾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ⁽³⁴⁾ ۝ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ⁽³⁵⁾ ۝

وحين يكتمل ما لدى موسى ﷺ من شخصية قوية وعلم نافع، بما لدى هارون ﷺ من

(1) - أدب الحوار في الإسلام. طنطاوي. ص 33.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

حجة ومن طلاقة اللسان في حسن العرض والصياغة البليغة، فهذا كل ما هو في حاجة إليه." (1) فهما شخصان يكمل أحدهما الآخر، ويعضدان بعضهما، لإتمام المهمة على أكمل وجه.

وليس من الجيد أيضا استخدام ألفاظ غريبة أو مبهمّة، أو يدغم الكلمات مع بعضها، " وقد أوصى الله ﷺ بذلك نبيه، إذ أمره أن يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكَفِّرِينَ﴾ (86)، " فالمحاور الناجح يتكلم بتمهل وتروّ حتى يفهم الناس منه ويعقلوا عنه، تأسيا برسول الله ﷺ في حديثه وطريقة كلامه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث الناس حديثا لو عدّه العاد لأحصاه» (2)، كما أنه " من حسن الكلام مخاطبة الطرف الآخر بما يفهم ويعرف، فلا يطالب بأكثر منه، سواء في مجال الدين أو الفكر أو العلمي أو الثقافي." (3) فعن علي كرم الله وجهه أنه قال: «حَدَّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ» (4)، فالإنسان عدو ما يجهل، وطالما لم يفهم معنى أو قصدا، فسيظل يرفضه.

(1) - أدب الحوار في الإسلام. طنطاوي. ص 33.

(2) البخاري: كتاب العلم (127): باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية لا يفهموا.

(3) - فقه التعامل مع المخالف. دار الوطن. الرياض. ط 1. 1994. ص 111.

(4) - صحيح البخاري. رقم الحديث 127. ج 1. المكتبة العصرية. بيروت. 1994. ص 67.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

5- الانطلاق من منطلقات ثابتة لدى الطرفين

لأن تلك المنطلقات هي التي تشكل أساس الحوار، والتي " من خلالها تبني جسور التواصل والتفاهم، والتي قد يكون مرجعها أنها عقلية بحثة لا تقبل النقاش عند العقلاء المتجردين، كحسن الخلق وقبح الكذب، وشكر المحسن ومعاقبة المذنب، أو تكون مسلمات دينية لا يختلف عليها المعتنقون لهذه الديانة أو تلك، وبالوقوف على الثوابت والمسلمات والانطلاق منها، يتحدد مريد الحق ممن لا يريد إلا المراء والجدل والسفسطة، لأن الإصرار على إنكار المسلمات مكابرة قبيحة، وممارسة منحرفة عن أصول المحاوراة السليمة، وليست من شأن طالبي الحق." ⁽¹⁾ وهي دلالة على خسة النفس وضعفها، وعدم رغبتها في الوصول إلى الحق.

ولذلك يستحيل الانطلاق في الحوار بين مسلم وملحد مثلا من الدين أو من المباحات والمحرمات، فهي بالنسبة للملحد أمور غير مسلمة، ولا يؤمن بها حتى ننتظر منه أن يحاور فيها، لكن ينطلق النقاش من الأمر المشترك الذي لا يختلفان عليه، فيمكن أن يكون مثلا في دلالات وجود الله، لأن الإنسان يعرف الله بالفطرة، لكنه يرفضه، لسبب أو لآخر، فموسى عندما ذهب لدعوة فرعون بدأ بأولى الأوليات عنده وعند فرعون وهي مسألة الألوهية، لأن فرعون متيقن بوجود الله، ويعرف تماما أنه يفترى على

(1) - مفهوم الحوار مع الآخر. ص 91.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

الناس بادعائه، لكن غطرسته جعلته يكابر حتى آخر لحظة في حياته، لينطقها بعد أن أيقن الهلاك، وقد كانت هذه المسألة مدار معاناة الناس وسبب مأساتهم وظلمهم من قبله،

﴿ فَأَيْنَهُ فِقُولًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ ﴾ ، وكان رد فرعون إنكارا وجحودا بسؤاله ﴿ قَالَ

فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِسَى ﴾ (49) ، فلاحظ أن مسألة الربوبية كانت هي أرضية الحوار

الذي دار بين موسى وفرعون.

6- الإقناع بما هو صحيح ومؤكد ومتعارف عليه

وهذا مطلوب وأساسي في كل عملية حوار، ويترتب عن ذلك أمران اثنان:

أ- تقديم الأدلة المثبتة أو المرجحة للأُمور المدعاة إليه.

ب- صحة نقل الأدلة والشواهد والأحداث دون مبالغة أو تلفيق.

كما نقل عن أهل الحوار والمناظرة " إذا كنت ناقلًا فالصحة، وإذا كنت مدعيًا

فالدليل. "(1)

وقد نبه القرآن الكريم إلى مضمون هذه القاعدة في آيات كثيرة منها قوله تعالى في

سورة الروم: ﴿ أَمْ يَبْدُوُا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قُلُّ

هَآتُوا بِرَهْنِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (64) ، ففي هذه الآية دعوة من الله تعالى على

(1) - مفهوم الحوار مع الآخر. المرجع السابق. ص 93.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقدم المشركون أدلتهم وبراهينهم على أقوالهم وادعاءاتهم.

وفي سورة طه يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ⁽⁸⁸⁾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا⁽⁸⁹⁾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ⁽⁹⁰⁾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ⁽⁹¹⁾﴾ والمقصود أنه حتى إن كان عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب لهم على عادة العجول البقرية، فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية، وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا في أبسط صورة، فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية.⁽¹⁾ وقد نبههم هارون إلى ذلك، وإنما تلك فتنة فتنوا بها، لكنهم لم يلتفتوا إلى حججه ومضوا في غيهم.

7- أن يكون الكلام منسجما لا يناقض بعضه بعضا

فلا تكون بداية الكلام تناقض نهايته أو شيئا منه، لأن ذلك مدعاة للنفور من المخاطب وعدم اعتبار حديثه، " فلا يكون في الدعوى أو الدليل الذي يقدمه أحد الطرفين تعارض ما، فإذا كان كذلك، كان كلاما ساقطا بداهة، ومن أمثلة ذلك، ما قاله

(1) - في ظلال القرآن. ص 2348

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

بنو إسرائيل لموسى عندما وبخهم على عبادة العجل، ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (87) ، يقول سيد قطب بصدد هذه الآية: " إنهم يعتذرون بذلك العذر العجيب الذي يكشف أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسي والسخف العقلي، قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا، فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا، ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها.. وقد حملوا معهم أكدا من حلي المصريين كانت عارية عند نسائهم، فحملنها معهم، فهم يشيرون إلى هذه الأحمال ويقولون: " لقد قذفناها تخلصا منها لأنها حرام، فأخذها السامري فصاغ منها عجلا" (1) وهذان أمران متضادان ومن غير المقبول منطقيا أن يفعلوا الشيء ونقيضه في وقت واحد، فكيف لهم أن يتخلصوا من شيء حرام امتثالا لأمر خالقهم، ثم يعبدوا ذلك الشيء، إن حجتهم كانت باطلة منذ البداية لأنها متناقضة، ولذلك فلا يمكن أن يبنى عليها موسى عليه السلام شيئا.

8- القبول والرضا بالنتائج

لا بد قبل الدخول في أي حوار، أن تكون القناعة تامة بقبول النتيجة إذا كانت مقنعة وصائبة، " فالواجب هو الرضا والقبول بالنتائج، والالتزام الجاد بها، وما يترتب عليها، وإذا لم يتحقق هذا الأصل كان الحوار ضربا من العبث الذي يتنزعه عنه العقلاء، فلا بد أن

(1) - في ظلال القرآن. مرجع سابق. ص 2347.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

يكون في نهاية الحوار والمناظرة نتائج توصل إليها المتحاوران، فينبغي لمن لزمته الحجة ووضحت له الدلالة أن ينقاد لها، ويصير إلى موجباتها، لأن المقصود من النظر والحوار طلب الحق، واتباع تكاليف الشرع، وفي هذا الصدد يقول الإمام الشافعي: " ما ناظرت أحدا قط وأحببت أن يخطئ، بل أن يوفق ويسدد ويعان، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ، وما كلمت أحدا قط وأنا أبالي أن يظهر الحق على لساني أو لسانه." (1)

ويتجلى هذا الأمر في الحوار الذي دار بين موسى وهارون عندما عرف أنهم اتخذوا عجل الذهب إلهًا من دون الله، فتوجه باللوم والتوبيخ لأخيه وهو في قمة الغضب " يؤنبه على تركهم يعبدون العجل، دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمره بألا يحدث أمرا بعده، ولا يسمح بإحداث أمر، ويستنكر عليه عدم تنفيذه.. وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون، فهو يطلع أخاه عليه، محاولا أن يهدي من غضبه ويشرح له الأمر، ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)﴾.

ويضيف سيد قطب "فهو يعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب تقديره، وأنه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون، وقد أمره أن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث

(1) - مفهوم الحوار مع الآخر. ص 95.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فيهم أمرا، فهي كذلك طاعة للأمر من ناحية أخرى..⁽¹⁾، فنجد موسى رغم حالة الغضب التي استبدت به، وجعلته يمسك بشعر أخيه ولحيته، إلا أن ذلك لم يثنه على إفساح المجال لأخيه هارون حتى يقدم حجته، ويستمع إليه، ليقنع بكلامه في نهاية المطاف، فهو كلام منطقي وحجة قوية لا يملك موسى أمامها إلا التسليم والقبول.. ليتوجه بعدها إلى السامري بسؤاله.

9- الدعوة بالتي هي أحسن، سبيل ذلك كله

كل ما سبق من شروط وضروريات لإتمام الحوار لا بد لها من كساء يزينها ويجعلها مرغوبة ومُتقبلة لدى الطرفين، وهو الترفق واللين في القول والصبر على الآخر وتحمل آذاه، وقد تكررت هذه الدعوة مرارا في كتاب الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁽¹²⁵⁾ وقال في آية أخرى، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقد ذكرنا سابقا التوجيه الرباني لموسى أن يأخذه بالرفق عل ذلك يحرك قلبه فيلين. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾⁽⁴⁴⁾. وهذا يستدعي الاتصاف بأخلاق حميدة، تكون ديدن الإنسان دائما، وليس فقط وقت الحوار.

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب. ص 2348.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة في الحث على اللين - بصفة عامة - في الدعوة

والحوار مع المسلمين وغيرهم، يقول الرسول ﷺ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ». متفق عليه

وعنها أيضا أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » ⁽¹⁾ رواه مسلم.

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: « إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » رواه مسلم (حديث 2594).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُسِيرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» رواه البخاري. (حديث 636)

وعن جرير بن عبد الله قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُحَرِّمَ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ». ⁽²⁾ رواه مسلم.

(1) - الجامع الصحيح المسمى " صحيح مسلم " للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم. القشيري النيسابوري. المجلد الرابع. دار المعرفة. بيروت. لبنان. ج 8. كتاب البر والصلة والآداب. باب فضل الرفق.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

والأحاديث كثيرة في هذا الباب، والذي يهمننا أن القرآن الكريم كان دائما يؤكد على هذا الأمر ويدعو إليه أنبياءه وأوليائه والناس أجمعين، سواء في قصصه أو في أمور العبادات والأخلاق، وهو بذلك منهج وأسلوب حياة للبشرية جميعا.

وخلاصة ما سبق، أن هذه الشروط ترسخ في الإنسان أخلاقا عالية، إن التزم بها، وبما أن الحوار هو أسلوب نتخذه في تواصلنا مع الآخر في أي مجال، فإن هذه الآليات المذكورة تصبح خصالا ينطبع بها الفرد، ويتخذها منهجا وطريقة في حياته كلها، بالإضافة إلى دورها الديني والدعوي.

لكن لا بد في أي حوار أن يتسلح الشخص بما هو مقنع ومنطقي، حتى يكون كلامه ذا قيمة وهدف، " ففي الحوار لا يتم السعي إلى الاستمالة والإقناع والاعتقاد في شيء دون دليل أو إثبات، إنما يتم الإقناع باستخدام الحجج العقلانية، مع استبعاد الحجج غير القابلة للنقاش والتفنيد." ⁽¹⁾ وهو بذلك يربي في الإنسان خلق اللين والصدق والوضوح وعدم المكابرة.

ويرتبط بذلك أيضا شرط أساسي وهو " قابلية الأفكار المتبادلة في أي حوار للدحض Réfutation، وهي العملية التي تظهر عدم صحة أو زيف حجج النقاش

(1) - الحوار مع الغرب. آلياته. أهدافه. دوافعه. ص 75.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

بين أطراف الحوار أو تناقضها، أو عدم اتفاقها مع الواقع⁽¹⁾ لكن لا يجب أن يكون ذلك ذريعة لإغلاق باب الحوار وصد المحاورين، كما يقول طه عبد الرحمن: " والحال أن الذي يغلق باب الحوار، أو يخل بأدبه يميت في نفسه روح العقلانية النافعة التي تكون هي ثمرة الامتحان، بواسطة الأدلة من جانبيين اثنين على الأقل، ومن يميت هذه الروح، يقطع الأوردة التي تحمل إليه المعرفة الممتحنة، فيحرم نفسه من إمكان تصحيح آرائه وتوسيع مداركه، فيضيق نطاق عقل ويتسع نطاق هواه، وحينئذ لا يُفيد علمه." ⁽²⁾ إذ كلما ابتعد الإنسان عن أعمال عقله، كان أقرب للشقاء والهلاك، والابتعاد عن الحق، ويضيف مؤكدا: " وليس هذا فحسب، بل إنه يميت في نفسه وفي غيره روح الجماعة الصالحة، والجماعة الصالحة هي التي أمرها على هدى من الشورى القائمة بين أفرادها، ولو كانوا لا يزيدون عن اثنين، ومن يميت هذه الروح يسد المسالك التي تنقل إليه العمل المشترك، فيحرم نفسه من تقويم أفعاله وتهذيب أخلاقه فتقوى دواعي الاستئثار في نفسه، وتضعف دواعي التعاون فيها، وحينئذ لا يصلحه عمله، وإن توهم أنه يصلح به، ولا بالأولى يصلح لغيره." ⁽³⁾ فهو بهذا المعنى أساس المعرفة والوصول إلى الحق.

(1) - الحوار مع الغرب. آلياته. أهدافه. دوافعه.. ص 76

(2) - أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر. محمد آيت حمو. منشورات الاختلاف. دار الأمان. الرباط. ط 1. 2012. ص 274.

(3) - المرجع نفسه. ص 274.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

أ- أهداف الحوار

إن الغرض الأساسي من الحوار هو " البحث عن الحق ليتضح، فالحق مطلوب، والتعاون على النظر فيه مفيد ومؤثر، ولذلك كان أول وأهم أسلوب استخدمه الأنبياء والرسول ﷺ من أجل التواصل مع أقوامهم، لما ينتج عنه من ثمار طيبة وآثار إيجابية في الدعوة إلى الله. "(1) ويظهر ذلك جليا في إصرار موسى على دعوة فرعون بكل الوسائل المتاحة لأجل غاية واحدة وأساسية هي العبودية لله.

وهناك هدف للحوار يحمل بعدا فلسفيا وجماليا، وهو إعادة قراءة الأشياء المحيطة بنا بطريقة مختلفة " كما أشار إلى ذلك أفلاطون، وهو إلقاء الضوء shed light وتوضيح وإظهار ما يحيط بنا من أشياء، وليس مجرد جذب الانتباه لهذه الأشياء المحيطة، ثم البحث عن المعاني الثابتة التي يفترض أنها كامنة في الأشياء نفسها بطريقة أو بأخرى "(2).

(1) - الحوار في القرآن. معن ضمرة. جامعة النجاح. فلسطين. بحث ماجستير. 2005. ص 23.

(2) - الحوار مع الغرب. آلياته ودوافعه. ص 76

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثاني: مقاصد الحوار في القصة

إن للحوار مقاصد ونتائج غاية في الأهمية نذكر بعضها منها:

1- تقليص مساحة الخلاف: فتواصل الحوار بين أطراف مختلفة فئات وأفراد،

يفضي مع مرور الوقت إلى تقليص شقة الخلاف بينهم، "من حيث إن هذا الطرف أو ذاك قد يأخذ في الانصراف عن رأيه متى تبين له عند مقارعة الحجة بالحجة، ضعف أدلته عليه، ثم يتجه تدريجيا إلى القول برأي من يخالفه، أو يأخذ العكس من ذلك في تقوية أدلته متى تبينت له قوة رأيه، مستجلبا مزيدا من الاهتمام من لدن مخالفه حتى ينتهي هذا المخالف إلى قبوله أو التسليم به، وهكذا فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذي يشفي منه." (1)

2- المساهمة في التقريب بين وجهات النظر المختلفة، إذ "إن الحوار يسهم في توسيع

العقل وتعميق مداركه بما لا يوسعه ويعمقه النظر الذي لا حوار معه، إن الحوار هو بمنزلة النظر من جانبين اثنين، وليس النظر من جانب واحد كالنظر من جانبين، فمعلوم أن العقل يتقلب بتقلب النظر في الأشياء، وأن على قدر تقلبه يكون توسعه وتعمقه، والعقل الذي لا يتقلب ليس بعقل حي على الإطلاق، والعقل الذي يبلغ النهاية في التقلب فذلك هو العقل الحي الكامل. (2) لكنه قد يفشل أحيانا كما حدث في قصة موسى

(1) - أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر. محمد آيت حمو. ص 275.

(2) - المرجع نفسه. ص 275.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

مع فرعون، إذ ظل فرعون على رفضه وعنجهيته، وأما السحرة فإنهم لم يؤمنوا حتى رأوا المعجزة متحققة أمام أعينهم، وأما بنو إسرائيل فلم ينفع معهم شيء من هذا كله.

3- إعطاء الفرصة لكلا الطرفين بإقامة الحجة والبينة إن كانت صحيحة، وإظهار

الأدلة التي تؤيد الحق.

وقد ظهر في قصة موسى أسلوب الحوار جليا في مواجهة أسلوب الجدل، أولا في حوار الله تعالى مع موسى، والثاني في مجادلة فرعون مع موسى.

فالأول كان مبنيا على حسن الإصغاء، وقد توافرت فيه عناصر الحوار التي سنأتي لذكرها، أما الثاني فقد ابتدأ حوارا لكنه سرعان ما تحول إلى جدل تكبرا واستعلاء من فرعون، فكان يرمي كلاما غير منطقي وغير عقلائي فقط ليدحض به حجة موسى ~~الطاهرة~~.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

الفرع الثالث: عناصر الحوار في القصة القرآنية

يعتبر الحوار من عناصر القصة الأساسية، فهو جزء مهم من الأسلوب التعبيري في القصة، " وهو صفة من الصفات العقلية التي لا تنفصل عن الشخصيات بوجه من الوجوه، ولهذا كان من أهم الوسائل التي يعتمد عليها الكاتب في رسم الشخصيات، فكثيرا ما يكون الحوار المتقن مصدرا من أهم مصادر المتعة في القصة، وبواسطته تتصل شخصيات القصة بعضها ببعض اتصالا صريحا مباشرا، وبهذه الوسيلة تبدو لنا وكأنها تضطلع حقا بتمثيل مسرحية الحياة، والحوار المعبر الشيق سبب من أسباب حيوية السرد وتدفعه، والكاتب الفني البارع هو الذي يتمكن من اصطناع هذه الوسيلة الفعالة وتقديمها في مواضعها المناسبة. "(1)

و لا بد للحوار من مناخ يعيش فيه من أجل أن يتحول إلى عملية فكرية منتجة، بدلا من أن يكون عملا عقيما في الشكل والمضمون، ولذلك لا بد من عناصر يجب توفرها من أجل أن يكون الحوار ذا فائدة.

- 1 - شخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار، إذ لا بد للمحاور أن يتصف بالرزانة
- 2 - شخصية الطرف الآخر للحوار.
- 3 - خلق الجو الهادئ للتفكير المستقل.

(1) - فن القصة. محمد يوسف نجم. ص 117.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

4 - معرفة المتحاورين بموضوع الفكرة\ الحوار.

5 - أسلوب الحوار.

لقد اتخذ الأنبياء السابقون عليهم السلام قبل الرسول صلوات الله عليه الحوار منهجا في صراعهم مع خصوم رسالاتهم وفي دعوتهم الناس إلى طريق الله، مما نقله القرآن الكريم لنا في أكثر من سورة، " لأن إشارة القرآن إلى ذلك، لم تنطلق من الرغبة في نقل التاريخ، بل من موقع اعتبارها مواقف عملية رائدة، تعلمنا كيف نجعل مواقفنا امتدادا لها، لأنها تمثل أفضل الأساليب في موقف الصراع الفكري للرسالة في خط الحياة، مما يدفعنا إلى أن نتلمس فيها مواطن القوة التي تقودنا إلى مواقع الرسالات العملية في مفترق الطرق. "(1)

وقد برزت أحداث القصة القرآنية عبر شكلين مختلفين من الخطاب هما: " طريقة عرض الأحداث بشكل تقريرى ينتقل فيه الحدث من مرحلة إلى مرحلة حتى يبلغ نهايته، "(2) وطريقة الحوار " وإن له دورا هاما في القصص القرآني، فهو الذي يبعث الحياة والحركة في الحدث، ويؤدي إلى الهدف، ويظهر المغزى، ويكشف عن مدى الصراع في المواقف المتغيرة "(3)، كالصراع القائم بين موسى عليه السلام وفرعون، كما أنه " يترجم عن

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 11

(2) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 110.

(3) - سيكولوجية القصة في القرآن. ص 414.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

انفعالاتها وأزماتها، ويضعها في إطار نفسي معين، ويزج بالقارئ في تجربة القصة ليعيشها، وتنقله من عالمه إلى عالمها. ⁽¹⁾

و يحاول الحوار في القصة القرآنية أن " يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة ولكل بطل من أبطالها دوره الذي يعبر عنه بأسلوب واضح، ويثير فيها بعض القضايا التي يقف إزاءها البطل الآخر ليعبر عن دوره بكل أمانة ووضوح. ⁽²⁾ لذلك فإن قيمة الحوار تتجلى في " محاولتها تبسيط الفكرة في جميع مجالاتها، فلا يترك أي جانب خفي فيها، لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجوانب التي يؤمن بها ويدافع عنها.. وهناك نقطة أخرى يتميز فيها الحوار، وهي أنها تجسد الموقف فنشعر فيه بالحياة المتحركة التي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جو إلى جو، وتعيش فيها الأحداث الماضية من خلال أبطالها الذين نشعر بهم، ونحن مندمجون في القصة – يتحركون أمامنا في أدوارهم وأوضاعهم كما لو كنا حاضرين معهم. ⁽³⁾ وطبعاً لا يمكن أن نحصل على أكثر هذه المميزات في عرض القصة بالطريقة التقريرية التي نتحدث عن موضوع القصة، وإن كانت تعرفنا على الموقف أو الحدث بطريقة تفصيلية.

(1) – سيكولوجية القصة في القرآن. ص 415.

(2) – الإعجاز القصصي في القرآن. ص 110.

(3) – نفسه. ص 110.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وربما كان هذا هو السبب في "تركيز القرآن الكريم على الحوار القصصي في أكثر من موضع، وفي أكثر من قصة، من أجل التأكيد على الصورة الحقيقية المتجسدة المتحركة للتاريخ الرسالي الذي يراد له أن يرتبط بالحاضر، في عملية وحدة رسالية رائعة، أو للقضايا الحيوية التي يريد القرآن الكريم إثارتها في حياة الناس، وتعميقها في نفوسهم." (1)

ولذلك تميز الحوار القصصي القرآني بأنه لم يكن مصدره دائما هو الإنسان، كما هو مألوف، بل اشتركت فيه عناصر مختلفة، إذ "تأخذ القصة القرآنية حيويتها، من خلال ظاهرة تعدد الأصوات التي تشكل شبكة الحوار فيها، وإذا كان منطلق الحوار مرده هو الله، بحكم صدور الأمر بالدعوة عنه، فإن الفاعل المرسل يظل واسطة تبليغية حوارية بين الفاعل / المرسل، وبين الله / المصدر، تظل حيوية، توجيهها للمرسل، وتعصيها له بواسطة القول / الوحي، وبالفعل / الخارق" (2)، ولو استعرضنا الوظيفة الحوارية في قصة موسى

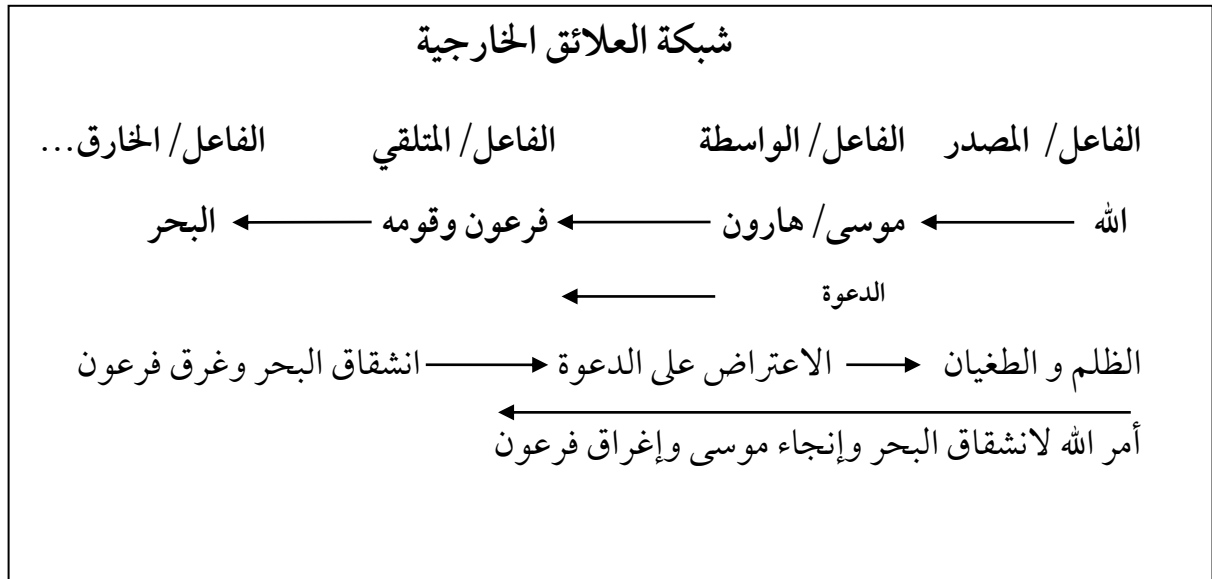
و فرعون، لوجدناها قد رافقت الحدث، وربطت الصلة ليس بين فواعل القصة: الله - النبي - القوم، بل ربطتها بين السماء والأرض، من خلال فعل الخارق، الذي قضى به الله تعالى، عصمة لنبه وانتصارا له: "وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ إِسْرِ عِبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۖ فَاتَّبَعَهُمْ فَرَعُونُ يَبْجُرُونَ ۚ فَغَشَّيَهُم مِّنَ اللَّيْلِ مَا عِيشُهُمْ ۖ ﴿٧٨﴾" (78)

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 215.

(2) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشراقي. ص 194

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

ويمكن تمثيل قصص القرآن على هذا النسق الحواري:



إن فواعل هذه القصص، تأخذ هذا الإطار النمطي (الله - النبي - القوم)، وهناك معجزة ثابتة في كل دعوة، وإن اختلفت نوعيتها، فالعلاقة الحوارية في القصة القرآنية تؤطر القصة، وتشيع فيها حيوية سردية، تجعل من الموضوع القصصي بنية واضحة المعالم حيال ذهن المتلقي، يتأملها من سائر جوانبها، من خلال وظيفة الحوار الكشفية. ⁽¹⁾ فالحوار يساهم في توضيح معالم القصة وشخصياتها وأحداثها، ويجعل كل ذلك يسيرا على فهم المتلقي، وأقرب منه إلى واقعها، بما يحققه من تجلية وإبانة لما يمكن أن يظل مبهما أو صعب الإدراك في القصة..

الفرع الرابع: الأساليب الحوارية في القصة

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. سليمان عشراقي. ص 194 / 195.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

1- الأسلوب القصصي:

ويأتي على شكل حوار بين الشخصيات داخل أحداث ووقائع معينة، ويكون إما سردا طويلا من بداية القصة إلى نهايتها، كقصة يوسف، أو يكون مقتضبا وقصيرا، كحوار موسى مع أخيه. ﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ (92) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۖ (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۖ (94) ۝. ويمكن أن تندرج تحته كل الأساليب الأخرى التي سنأتي على ذكرها. إذ إنه مشتمل عليها جميعها.

2- الأسلوب الحجاجي البرهاني:

وهو أسلوب يعتمد مخاطبة عقل وفكر الإنسان، ومواجهته بالأدلة المنطقية، وهو أسلوب شائع في كل قصص القرآن الكريم، يقول ﷺ على لسان قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ ۖ وَإِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۖ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۖ (64) ثُمَّ نَكْسُؤُا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ۖ (65) ۝ فيجيبهم إبراهيم عليه السلام إجابة مفحمة، لم يستطيعوا معها إلا أن يستشعروا صغر عقولهم، يقول سيد قطب في شرح هذه الآية: " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون، والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، وإنما أراد أن يقول لهم إن هذه التماثيل لا تدري من حطمها، إن

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

كنت أنا أم هذا الصنم الكبير الذي لا يملك مثلها حراكا، فهي جماد لا إدراك له أصلا، وأنتم مثلها كذلك مسلوبو الإدراك، لا تميزون بين الجائر والمستحيل.. ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكير، ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (64). وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وخفقة واحدة عادت قلوبهم بعدها إلى الخمود، "ثم نكسوا على رؤوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون." (1)

إن أسلوب القرآن في أحد أبعاده أسلوب حجاجي، "ولما كان الأسلوب هو التفرد والتميز والخصوصية، وهي فكرة أسلوبية معروفة وشائعة، فإن الحجاج في القرآن لا يمكن إلا أن يكون حجاجا خاصا به دون غيره من سائر الخطابات." (2)

ونجد هذا الأسلوب حاضرا في سورة طه، فمثلا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (89) إنه يخاطب عقولهم المغلفة بغلاف الغفلة واتباع

(1) - في ظلال القرآن. ص 2387.

(2) - الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية. دار المعرفة للنشر. ط 2. 2007. تونس. ص 53.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الهوى، ويدعوهم إلى إعمالها في إدراك الحقيقة، ويبرهن لهم على أن هذا العجل ما هو إلا من صنع أيديهم، ولا يملك أن يفيد نفسه، حتى يفيد غيره، لو كانوا يعقلون.

وإذا نظرنا إلى السياقات والموضوعات القرآنية، " نجد أن الحجاج في القرآن ورد في ثلاثة مسارات دلالية:

- 1- حجاج قاد إليه الكفر والنفاق والهوى والحظوظ النفسية، وطمس البصيرة.
- 2- حجاج غايته الاسترشاد والنظر والاعتبار.
- 3- حجاج هدفه إظهار الحق بالمناظرات والمحاورات التي تسعى إلى تبين وجه الصواب. (1)

وهكذا فإن أسلوب الحجاج من أهم أساليب الحوار في القصة القرآنية، وأشدها تأثيرا على المتلقي. لأن النفوس تميل إلى معرفة الأمور والوصول إليها بالحجة والمنطق.

3- أسلوب الحوار الجماعي

(1) - مفهوم الحجاج في القرآن الكريم. مجلة اللغة العربية. ع 81. ج 3. دمشق. ص 522.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

يكون هذا الأسلوب عبارة عن خطاب مشترك بين مجموعة من الناس لديهم نفس الفكرة أو المذهب ويشتركون في نفس السمات والصفات، وهو أسلوب يوظفه القرآن الكريم في عرض الواقعة فيكون تأثيرها على النفوس أكبر، إذ يندمج المستمع مع شخصياتها وأحداثها، حتى وكأنه حاضر معهم، وأيضا فيه دلالة على قوة الموقف، كقوله تعالى على لسان فرعون ﴿ قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ ﴾ (71)، لقد هددهم فرعون وتوعدهم بالعذاب الشديد، لكن ردهم الجماعي القوي، جعله في اندهاش وانبهار مما يجري، إن عقله الصغير لا يستوعب هذا الكم الهائل من القوة، وهذا السيل المتدفق من الإيمان واليقين. " لقد كان الأوان قد فات، وكانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل، فإذا هي قوية قيمة، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة، وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضئية لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل. "(1) فانظر إلى قوة هذه القلوب مجتمعة في قلب واحد وإرادة واحدة.

وفي قوله تعالى على لسان قوم موسى ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (87) أي: لقد كان الأمر فوق طاقتنا،

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب. ص 2343.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة " طه "

وجئنا بحلي المصريات فأردنا التخلص منها حتى لا نقع في الحرام⁽¹⁾، وفي هذه الآية الكريمة جاء الجواب جماعيا، إمعانا في إظهار البؤس الذي لحق بني إسرائيل، وتفاهة نفوسهم، وخفة عقولهم، فهم أيضا قلوب ضعيفة مجتمعة في قلب واحد، فلم يستثن منهم الله تبارك وتعالى أحدا، وهذا الموقف الذي جاء بهذا الأسلوب، يجعل المتلقي في دهشة من الأمر، فكيف أن يجمعوا أمرهم على فعل قبيح مثل هذا، وهم حديثوا عهد بإنجاء الله تعالى لهم، وإظهار معجزات كثيرة من أجلهم.

وبذلك نجد بأن هذا الأسلوب يستخدم اختصارا لوقائع الشخصيات، على اعتبار أنهم يشتركون في نفس التوجه.

4- الأسلوب النفسي

يعتبر الخطاب القرآني " وثيقة علمية في تاريخ السلوك الإنساني للنفس، يمكن الاستناد إليه في أي دراسة، على أنها يقين وحقيقة، كما تزداد هذه القيمة حين ندرك أن الحياة الإنسانية عبر رحلتها الطويلة الممتدة من خلق سيدنا آدم إلى قيام الساعة، تجمعها علاقة واحدة هي " علاقة إنسانية "، فما من مرحلة إلا وتضيف لبنة في بناء السلوك الإنساني، وتكون رصيда من التجارب الإنسانية، تستفيد منه النماذج البشرية المتعاقبة، كل موقف من المواقف التي يعرضها القرآن، يضيف للإنسانية عبر مسيرتها

(1) - في ظلال القرآن. سيد قطب . ص 2347.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

التاريخية الطويلة، قيمة معينة تتصل بالسلوك الإنساني⁽¹⁾. وهذا السلوك ينبني على أساس مهم وهو سبر أغوار النفس البشرية، عبر أسلوب محدد وهو الأسلوب النفسي، هذا الأسلوب الذي يصف الحالة النفسية للشخصية في حوارها مع الآخر بجميع أشكالها وتقلباتها، ونجد في سورة طه هذا الأسلوب متكررا بكثرة في القصة، وفي شخصية موسى خصوصا، بداية عندما أمره الله بمواجهة فرعون ودعوته إلى التوحيد، يقول: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوبِىٓ﴾⁽¹⁷⁾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴿⁽¹⁸⁾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوبِىٓ﴾⁽¹⁹⁾ فقد أطلعنا الله ﷻ على حالة موسى النفسية التي كانت مزيجا من الخوف والرغبة، عبر بها عليه السلام عند رؤيته العصا وقد تحولت إلى حية ضخمة، وهذه حالة طبيعية قد تعترى أي إنسان في أي زمان ومكان، بغض النظر عن كونه نبيا أو شخصا عاديا.

وفي موقع آخر من السورة عندما أمروا بدعوة فرعون إلى توحيد الله ﷻ ﴿إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾⁽⁴³⁾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴿⁽⁴⁴⁾ قَالَ لَا رَبَّآ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾⁽⁴⁵⁾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴿⁽⁴⁶⁾ وقد وصف الله تعالى لحظة تلقيهما التكليف كيف أظهر الخوف بعد أن استشعراه في قلبهما، وتثبيت الله

(1) - التعبير القرآني والدلالة النفسية. عبد الله محمد الجيوسي. دار الغوثاني للدراسات القرآنية. ط 1. 2006. ص

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

لهم، فهذا الإحساس فطري في الإنسان، وقد يصدر عنه دون أن يكون راغبا في ذلك، إنه انعكاس لهواجسه مما يراه أمامه.

والثالثة عندما وقعت المواجهة، وأظهر السحرة ألاعيبهم أمامه، كيف خاف وارتعب من سحرهم، ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ الْفَىٰ ۖ قَالَ بَلْ أَقُوا فَإِذَا جَاهُكُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخِلُّ إِلَيْهِ مِنْ سَحَرِهِمْ ۖ أَنَا تَسْبَىٰ ۖ﴾ (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۖ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفِ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ (68) وهذه المرة أيضا يصور تبارك وتعالى شعور الخوف الذي انتاب موسى لحظة مشاهدته الحسية، وحالته النفسية بدقة بالغة، هذا رغم ما عرف عن موسى من قوة بدنية وشجاعة كبيرة، لكن هذه فطرة الإنسان وهذا طبعه البشري الذي لا ينقص من إنسانيته، والأمر الذي يبقى هو كيفية التعامل مع هذا الشعور، فإما أن يُطلق له العنان ليسيطر على صاحبه وإما أن يُكبح، وهنا مكمّن الاختلاف والتميز بين الاثنين، فموسى لم يدع مجالا للخوف أن يغلب عليه، بل كان على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، إذ استمر في مواجهة السحرة وتبليغ رسالته.

ونجد في موقف آخر لموسى، اختلاف حالته النفسية من الخوف إلى الغضب، وذلك عندما وجد قومه قد اتخذوا عجلا ذهبيا يعبدونه من دون الله، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدَ ۖ﴾ (86).

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فقد كان الغضب لله سيد الموقف هذه المرة، فبدأ بقومه يسائلهم ويؤنبهم ويذكرهم بنعم الله عليهم، وبعد ردهم المتخاذل والمهين، لم يقتنع موسى عليه السلام بما قالوا، فاتجه إلى أخيه هارون عليه السلام آخذاً بلحيته وبشعر رأسه في ثورة وغضب بالغين، مستفسرا إياه عما حصل، طالبا منه تفسيراً مقنعا لما حدث، وقد صور سبحانه هذا المشهد في دقة متناهية واصفا الحالة التي كان عليها موسى، حتى لكأن ذلك الشعور ليكاد يتجسد أمامنا شاخصا واضحا، ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا؟ (92) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟ (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)﴾.

كما نجد شخصيات أخرى وصفت القصة حالتهم منها: أم موسى عليها السلام عندما أوحى إليها الله تعالى أن تضع ابنها في التابوت وتقذف به في النهر، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ. فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ فَنُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوِسِي (40)﴾. إنها حالة الأم المؤمنة الصابرة المحتسبة التي لم يمنعها صبرها وتسليمها لقدر الله من الخوف والحزن على فقد وليدها، إذ إن هذا الشعور هو شعور بشري فطري، وقد وصفه القرآن بأجل وصف

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

عندما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾⁽¹⁾ إن هذه الآية تحمل شحنة مكثفة من العواطف والأحاسيس الوجدانية التي تجعلنا نستشعرها، ونقف عليها وقفة التأثر والانفعال.

إننا نجد هذا الأسلوب بكثرة في القصص القرآني، وذلك لأهميته في إثارة شعور المتلقي وانتباهه، وفي مدى اندماجه مع أحداث القصة، وهذا من إعجاز القرآن في توظيف الأسلوب النفسي للوصول إلى التأثير المطلوب في المتلقي وقد أجمل الخولي فكرة الإعجاز النفسي واستخدامه في تفسير القرآن الكريم بقوله: إن هذا القرآن معجز من حيث هو فن أدب، ومن حيث هو هدى وبيان ديني، ولم يدر الأمر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها، لأن الفن هو نجوى الوجدان، والدين هو حديث الاعتقاد"⁽¹⁾. فالجانب النفسي يلعب دورا مؤثرا وهاما في القصص القرآني، لأنه الأساس الذي يبنى عليه الخطاب القرآني.

والفكرة الأساس إذن هي أن الخطاب القرآني، يعتمد الأسلوب النفسي، لأنه يمكن المتلقي من التفاعل والتأثر، فيستقبل الخطاب انطلاقا من حالته الوجدانية والعاطفية.

كما أن الوصول إلى دواخل النفس والتأثير فيها واكتشاف جوانبها المختلفة، أمر ليس باليسير، وقد برع الخطاب القرآني أشد البراعة في هذا الأسلوب، إذ برز دور

(1) -مناهج التجديد. أمين الخولي. ص 203

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

الأسلوب النفسي في سبر أغوار عواطف الشخصيات وإبرازها بشكل فني بديع، بعيد عن الإسفاف أو المبالغة.

ويبقى أقصر طريق إلى قلب المتلقي واستثارة فكره، هي مخاطبة وجدانه وتحريك أحاسيسه ومشاعره، فيكون بذلك الأسلوب النفسي أنسب طريق لبلوغ الغاية، دون كثير جهد.

5- الأسلوب الوصفي:

وهو أسلوب يصف فيه القرآن مشاهد حية وكأننا نحضرها، مثل حوار الملائكة،

وحوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ (49) قَالَ

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (51) قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ

رَبِّنَا فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (52) ﴿. فكأننا حاضرون أثناء حوار موسى مع

فرعون نتخيل ما يجري بينهم عن كثب.

6- الأسلوب البرهاني:

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

هذا الأسلوب يعتمد على إقامة الدليل والحجة واستخدام المنطق في الإقناع، حيث إنه يخاطب العقل ويدعوه للتدبر وفهم المغزى، دون تعصب أو مكابرة، كمثال قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۖ أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ﴾ (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ۖ﴾ (90)، فهذا العجل الذي يعبدونه لو أعملوا عقولهم لتبين لهم أنه مجرد صنم من صنع أيديهم لا يضر ولا ينفع، وأن هذه مجرد فتنة كان سببها السامري، وأن الذي يضر وينفع هو الله الذي أنجاهم قبل مدة ليست بالبعيدة من بطش فرعون وغطرسته.

7- الأسلوب التعجبي

يتم فيه استخدام أساليب الخطاب كالتعجب والاستفهام، كمثال قوله تعالى ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَتَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ۖ﴾ (86) إنه يستفسرهم ويعاتبهم في نفس الوقت على ما فرطوا في أمر الله، فبدأ بأسلوب الترغيب في تساؤله ثم تلاه بالوعيد، عبر طرحه مجموعة من التساؤلات في غضب مستبد.

بعد هذه الجولة المقتضبة بين ثنايا المفهوم وأشكاله وأساليبه، يمكننا التأكيد على أن الحوار من بين أساليب القول الذي يعتمد عليها القصص القرآني في خلق الحركة

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

وتنوعها وتلوينها، فبالحوار تتبادل الشخصيات مواقعها، وتغير مواقعها، وتبدل أحوالها وأشكالها. فتدب الحياة في القصة القرآنية، ويشعر المتلقي كأنه جزء لا يتجزأ منها لما يضيفه من جو واقعي مكسوّ بفنية أدبية عالية، وهو إلى جانب ذلك تربية أخلاقية وذوقية موجهة للإنسانية جميعا، تفرض نفسها على الكل في سبيل حياة طيبة يسودها التفاهم والانسجام رغم الاختلاف.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه "

الفرع الخامس: الصور الحسية للحوار

1 - حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام.

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه موسى عليه السلام وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْشِي (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَمْشِي (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ - آيَةٌ أُخْرَى (22) لِنُرِيكَ مِنْ - آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَبِئٌ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَازِلُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذِيرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْشِي (36) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنْ إِقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَسْحَى أَخْتُكَ فَقَوْلُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتْنَاكَ فَنُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْشِي (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) إِذْ هَبَّ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِنَا وَلَا لَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) إِذْ هَبَّا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَبِئٌ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَإِنِّيهِ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا الْهُدَىَّ (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ (48) سورة طه.

إن قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، من أكثر القصص القرآني توزيعا في سوره، فقد ذكرت فيما يقرب من الثلاثين موضعا أو تزيد، " ولعل قيمتها في هذه الحياة المتحركة أبدا.. في شخصية موسى القوية- كما ذكرنا سابقا- التي دخلت إلى الحياة في ظروف صعبة، في أول ولادته، وفي المجتمع المقهور المستعبد في ذلك الوقت، وفي الحياة القلقة التي درج فيها في أول خطوات حياته، مما يجعله يخزن ذلك كله في كيانه، ليواجه الحياة من موقع الشعور بالقوة التي ما أن تمتد في الصراع الذي يحاول أن يجرها بعيدا حتى ترجع إلى الله سبحانه في موقف إنابة وابتهاال. "(1) وهذه الصفات التي اتصف بها موسى قد تركت أثرا في شخصيته، " فجعلها تهتز قليلا في شعور خفي قلق من قوة الطغيان والكفر المتمثلة في فرعون وسيطرته الكبيرة الممتدة في حياة أمته. "(2) ولذلك نجد موسى قد وقف موقف الخائف أثناء تكليفه بتأدية الرسالة والجهار بها إلى فرعون، فهو قد خبر بطش فرعون وغلظته وطغيانه، ولذلك وبغريزة الخوف التي أودعها الله تعالى في البشر- من أجل الحفاظ على حياتهم - قد توجس في بداية الأمر حتى طمأنه ربه تعالى

(1) - الحوار في القرآن. ص 263

(2) - المرجع السابق. ص 263.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

﴿إِذْ هَبَّا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿44﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿45﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿46﴾ طه.

فشخصية موسى عليه السلام الفريدة، كان الخوف ميزة فيها مع القوة الشديدة، إذ رغم خوفه فقد أراد أن "يستجمع في نفسه وفي خطواته عناصر جديدة من القوة التي يستمدّها من ألطاف الله من جهته، ومن مشاركة أخيه له من جهة أخرى— كما سبقت الإشارة إلى ذلك - . ولقد أبرز هذا الحوار الموقف العصيب الذي وقفه موسى وهو يتلقى من الله سبحانه التكليف بالذهاب إلى فرعون لأداء الرسالة إليه." (1) فنلاحظ أن موسى عليه السلام لم يرفض التكليف، ولكنه كان يشك في قدرته على إبلاغ الدعوة بالمستوى المطلوب الذي يحقق النتيجة.

كما نجده في آية أخرى يعرض أمام الله الأمور التي قد تعيقه عن القيام بالمهمة المطلوبة، وهي قيامه بقتل أحدهم سابقا، فيما حدثنا الله عنه بقوله، ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (14) الشعراء 14. ولهذا كانت طلباته في مستوى الموقف المطلوب، وجاءه

النداء من الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ (36) طه 36

(1) - الإعجاز القصصي في القرآن. ص 113

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

وفي نفس السياق نجد أن الله ﷻ قد كلف هارون بتأدية الرسالة بمعية أخيه موسى وبطلب منه، إذ يناجيان ربهما في ضراعة وخشوع وفي حوار لطيف بينهما وبين الله تعالى، فتأتي الإجابة، ويتحقق لهما ما يرجوانه. فهذا هو هارون وموسى في موقف واحد أمام فرعون بتكليف من الله ﷻ. " وكان التكليف حاسما، فقد طغى فرعون، ولا بد له من رسول يبلغه كلمات الله ورسالته، ليهرطغيانه بالكلمة القوية الهادية من موقع المحبة التي تهز أعماقه، ثم بالقوة الإلهية القادرة التي تحطم قوته في نهاية المطاف، وكان الخط الذي رسمه الله لأسلوبهما في الدعوة هو لخط الذي يضع الكلمة في إطار المحبة بالأسلوب الهادئ والقول اللين، لأن الهدف من ذلك هو أن تفتح الرسالة قلبه على دعوة الحق، فتذكره بالله من خلال نعمه، وتخوفه من عذابه. "(1)

وينتهي حوار التكليف، ليعقبه حوار التبليغ، وما دار فيه بين موسى وهارون وبين فرعون.

2- حوار موسى مع فرعون

تجاهل فرعون في البداية معرفته بالله عند سؤاله موسى وهارون، تصغيرا لهما وتقليلًا لشأنهما ولشأن هذا الأمر العظيم أمام الملائكة، فكان " جواب موسى كلمة جامعة تضع السائل موضع الجهل التام بكل شيء، فكيف يطرح هذا السؤال وهو يعيش في هذا

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 265.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

الكون الذي تشهد كل موجوداته من أصغر ذرة إلى أكبرها عليه. " (1) ﴿ فَأَيْنَهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۖ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿٤٨﴾ ﴾ (طه: 47-48)

وبعد أن بهته موسى، أراد أن ينتقل إلى سؤال آخر، ليصرف الأنظار عن القضية الجوهرية، ويوجه الانتباه إلى مسألة جانبية بقصد التشويش على دعوته ورسالته، لأنه لم يستطع الرد على جوابه الأول، فجاء جواب موسى مقتضبا - بذكاء منه وحكمة - ومرتبطا بالموضوع الأساسي الذي جاء فرعون من أجله، وهو توحيد الله وعبادته والخضوع له، ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصُدُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۖ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۖ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۖ ﴿٥٤﴾ مِّنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۖ ﴿٥٥﴾ ﴾

فما قام به موسى عليه السلام، يعتبر " لفته بارعة منه يواجه بها فرعون، بخلاف ما أراده من الهروب عن جو الإفاضة في الحديث عن الله، خشية منه أن يؤثر موسى على

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 266.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

أفكار من حوله، الذين كانوا يستمعون إلى الحوار بترقب ولهفة، إذ لم يسبق لأحد أن واجه فرعون بمثل ما واجهه به موسى من دعوة وحوار⁽¹⁾

وفي هذه الآية أيضا لفظة مهمة إلى وجوب الصدح بالحق وعدم السكوت على الباطل، حتى إذا كان المعني من أعتى العُتاة، ومن أطغى الطُّغاة، وبأن الله سبحانه وتعالى يدافع دائما عن أهل الحق، ويمدهم بنصره وتأييده ما داموا مستمسكين به متوكلين عليه، واثقين به وبوعده لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

كُفُورٍ﴾ (38) الحج 38.

3- حوار السحرة مع موسى

بالنسبة لحوار موسى مع السحرة فقد جاء في سورة طه مقتضبا في آيتين، لكنه يحمل في طياته معاني كثيرة يمكن أن نقف على بعضها، ﴿قَالُوا يَمُوءُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَلْقَىٰ﴾ (65) الأمر الأول أن السحرة كانوا ماهرين في أسلوب الحوار وطريقة الكلام، وذلك ليستعطفوا الناس إليهم وليظنوا بهم الاحترام والإنصاف، وليظهروا بمظهر أهل الحق، فأرادوا استقطابهم إلى جانبهم بأن اقترحوا على موسى إحدى الأمرين: إما أن يلقي ما معه قبلهم، وإما أن يلقوا ما معهم قبله.

(1) - الحوار في القرآن. ص 268.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

بالإضافة إلى أمر آخر وهو الاعتقاد بتمكنهم التام في هذه المواجهة، وثقتهم بالنصر،
للأسباب التي كانت في أيديهم، لذلك ظنوا أن موسى سيُغلب وسيثبتون للناس بعد
ذلك ضعف ادعائه. لكن موسى كان أكثر يقينا وثقة منهم، وإن وصف الله تبارك وتعالى
شعوره لحظة إلقاءهم بأنه توجس خوفا، إلا أنه شعور فطري جبلت عليه النفس البشرية
﴿قَالُوا يَمُوءُ يَمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ الْبَقَى ۖ﴾ (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِ
مِنْ سِحْرِهِمْ، أَنَّهَا تَسْبَعُ ۖ﴾ (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۖ﴾ (67).

4- حوار فرعون مع السحرة

ونلتقي في هذه القصة بمستوى آخر من مستويات الحوار، فهو حوار بين فريقين
كانا قبل لحظة فاصلة متفقين أشد الاتفاق على أمر واحد، ثم تحول أحدهما في لحظة
حاسمة إلى النقيض تماما والاختلاف، فلقد كان الهدف من استقدام السحرة وتسخيرهم
من قبل فرعون تحدي موسى، لكن عندما رأوا عين اليقين ما صنعت حية موسى عليهم،
عرفوا أن ما جاء به حق، فما كان منهم إلا أن آمنوا بدعوته، بعد أن تأكدوا أن ما رأوه
ليس سحرا، بل هو شيء أكبر من ذلك كله، مما لم يشاهدوه أو يعرفوه، فتيقنوا أن ذلك من
الله سبحانه الذي كانوا يعرفونه بقلوبهم ويحدونه بألستهم وأفعالهم وليس من موسى،
فآمنوا بكل صدق وسلموا أمرهم لله، وقد كانت هذه هزيمة نكراء مني بها فرعون
وخسارة فادحة له، لم يستطع معها إخفاء انهزامه وفشله، فبدأ يلقي التهم عليهم جزافا
ويدعي أنهم قد خططوا للانقلاب عليه مع موسى، لكن الأوان كان قد فات، فما يجمله

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

فرعون أن الإيمان إذا أضاء أركان قلب، لا يمكن لقوة في الأرض أن تشنيه أو تخيفه، وهذا ما يحدث مع كثير من الطغاة والمقهورين إلى يومنا هذا، إذ لكل عصر فرعونه وموساه وقومه المستضعفين، ومشية الله قضت أن يذل الباطل وينهزم، ويتنصر الحق مهما طال ليل الظلم والجبروت.

ويعود بعد ذلك فرعون لتهديدهم بالقتل والتنكيل بهم إذا لم يعودوا إلى ما كانوا عليه " فتبدأ حرب الأعصاب بالتهديد بالعذاب وقطع الأيدي والأرجل والصلب، من أجل أن يتراجعوا، فلا يتراجعون، ويواجهونه بالإيمان القوي الصامد الذي يتزلزل ولا ينهار ولا يتراجع" (1) وقد جسدت هذه الصورة الآيات الكريمة الآتية: ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۚ ﴾ (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ - اذَنْ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَتْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ ﴾ (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ﴾ (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ۚ ﴾ (73).

فبعد أن كانت هذه القلوب "تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه بقوة، فما أقصر الحياة الدنيا" (2) وما أهونها على

(1) - الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله. ص 271.

(2) - في ظلال القرآن. ص 2343.

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا آمن خلال قصص: سورة "طه"

قلوب رجعت إلى الله وعرفت الحق بعد أن كانت عنه في ضلال من السحر أكرههم عليه فرعون وكلفهم بتعلمه عنوة دون أن يكون لهم الحق في رفضه.

إن ما دار بين فرعون وسحرته يمثل أعلى درجات الحوار بين الحق والباطل، وكيف أن قوة الإيمان واليقين في الله يصبح صخرة صماء لا تتزحزح أمام أعتى وأقوى العواصف.

وينقل لنا القرآن الكريم الحوار في صورة ثانية تشتمل على بعض العناصر التي لم تذكر في الآيات السابقة تبعا لحاجة الجو الذي يفرض الاستشهاد بقصة السحرة مع فرعون، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۚ﴾ (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ بِأَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ وَلَا صُلْبَ لَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ﴾ (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ﴾ (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ﴾ (73) إِنَّهُ مِنْ يَاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۚ﴾ (74) وَمَنْ سَحَرِهِمْ يَأْتِهِ ۚ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۚ﴾ (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۚ﴾ (76)

لقد أنكر فرعون على السحرة إيمانهم، وكأنه يجب أن يأخذوا إذنه قبل ذلك، وكيف لا وهو من كان ينصب نفسه إلهًا عليهم، فيأمرهم ويطيعون، وينهاهم فينتهون، وتلك عادة الطغاة والجبابرة في كل عصر، فهم يظنون أن لهم الحق في أن يملكوا رقاب الناس

الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة "طه"

ويتحكموا في حياتهم، ويسخروهم لخدمتهم، متناسين أنهم مجرد ولاية عليهم، واجبههم تسير شؤونهم، وتسهيل حياتهم حتى يعيشوا بكرامة وفي جو من الحرية والاطمئنان، لكن العكس هو الذي يحدث، عندما يصبحون هم أنفسهم مصدر الخوف والظلم والاستعباد.

من هنا نستخلص بأن الحوار على الصعيد السردى قد توطدت فاعليته في الخطاب القرآني عبر شخصيات القصص، " واضطلعت بوظيفة إيعازية تأثيرية، فجاء مركزا، موصولا بالمقصد التربوي الذي اتبعته الدعوة القرآنية تبليغا لمبادئها، ولم تقصر فاعلية الحوار على المستويات القصصية القرآنية، بل لقد فاعل الخطاب القرآني العقل بواسطة المداخلات الحوارية بصورة مطردة، الأمر الذي يجعل من النص القرآني في جوهره إطارا حواريا مفتوحا على الوجود، وعلى ميتافيزيقاه، وعلى اطرادية حضاراته."⁽¹⁾ فالشخصيات في القصة القرآنية هي التي ساهمت في إبراز الوظيفة الحوارية، وسلطت عليها الضوء وجعلتها أداة محورية وعنصر مؤثر وفاعل في الخطاب القرآني ككل. وبالمقابل كان للحوار دور في إكساب القصة القرآنية جمالية بالغة من خلال حركة الشخصيات ومواقفها ونفسياتها، ما جعلها تؤثر في المتلقي تأثيرا كبيرا. فهي إذن علاقة تبادلية أو تقابلية تستوجب وجود الطرفين معا، الشخصيات والخطاب الصادر عنها، الذي يتحول إلى حوار داخل القصة القرآنية.

(1) - الخطاب القرآني. مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، سليمان عشراقي. ص 203.

في ختام هذا البحث، والذي وقفنا فيه على السمات الجمالية للنص القرآني. ولم نأل جهدا في وضع القضية الرئيسية للبحث نصب أعيننا في مسيرتنا للغوص في طيات البحث ومنعرجاته ومعطياته وإشكالياته وجزئياته فضلا عن كلياته. تلك القضية التي ساورتنا في النحت الدقيق للمباحث العلمية، هي محاولة لإبراز كنه الخطاب القرآني جماليا، ومكمن تميزه عن صور الخطابات الأدبية المتعددة. ولم تكن الوسيلة المفضية للوصول إلى تلك الضالة المنشودة، سوى الارتكاز على الجمالية فنا وحسنا وخصائص، متعددين صفحات الإعجاز التي حرر فيها الأدباء قديما مباحث تتوسل التميز والمزايلة التامة للنص القرآني عن غيره من صور الخطاب. إن قضية إبراز قوة الخطاب القرآني جماليا لم تعتبر عندنا من القضايا العلمية التي لا يعبأ بها، أو تلك التي لا تسهم في بناء صرح علمي وازن، بل إن أهميتها تكمن في تأسيس منهج أدبي خاص في التعامل مع النص القرآني، وما يقتضي ذلك من عدم سريان بعض المناهج التي تجعل الخطابات القرآنية كلها دون استثناء على وزان واحد.

فهرس المصادر والمراجع

لقد اقتضت منا تلك القضية الأم نسج باين يحاولان مقاربة جمالية الخطاب القرآني تجريدا وتجسيذا في آن واحد لاعتقادنا أن الربط بين النزعة الفلسفية النظرية وما يستتبعها من تجسيد واقعي ومآلات ملموسة أفضل المسالك المنهجية المعتمدة حديثا.

في الباب الأول الذي عنوانه بهاهية الخطاب القرآني حاولنا فيه تحديد الماهية وما يقتضي ذلك من الوقوف عند المصطلحات ودلالاتها، وقد اعتمدنا المنهج الاستقرائي، لأن نصاعة الدلالة لن تتم دون تتبع دقيق لما تدل عليه الألفاظ، سواء تعلق الأمر بمصطلح الخطاب ودلالته عند اللغويين أو اللسانيين خاصة أو المفكرين المحدثين، أو بمصطلح الجمالية التي تستلزم منا الرجوع إلى دلالتها وعمق معناها، من خلال الطروحات الأدبية والفلسفية والفكرية العديدة، سواء تلك الضاربة في تاريخ الفكر أو المعاصرة.

وقد درسنا المعنى الإجمالي ككل للخطاب القرآني نصا ومنهجيا وتحليلا، وحاولنا فيه التدقيق في خصوصية الخطاب القرآني ومنهج التعامل معه، مقترحين منهجا تجديديا في تأويل النص القرآني، والذي ارتأينا أن أفضله هو منهج التصوير الفني لسيد قطب، لأنه ظل محافظا على أصالة النص وقدسيته، رغم توسله بآليات جديدة في قراءة الخطاب القرآني، استندت في أساسها على التحليل الأدبي.

فهرس المصادر والمراجع

وحين تتبعنا مآلات المنهج المعتمد في التأسيس مع محمد عبده ثم أمين الخولي من بعده، وسيد قطب، لاحظنا انزياحا في المنهج مع خلف الله وغيره، فاقضى منا ذلك إثبات واقعية النص القرآني وأدلتها المسوقة.

أما في الباب الثاني الذي عنوانه بجمالية الخطاب القرآني من خلال القصة تجريدا وتجسيذا، فقد خصصنا فصله الأول لتناول القصة الأدبية عموما ومفهوم القصة القرآنية تحديدا، واقفين على أصول نشأتها وتطورها، وعلى أهم المراحل التي مرت عبرها، وعلى أهم الخصائص التي ميزتها عن القصة الأدبية العادية، من خصائص فنية وأسلوبية، بصمتها بطابع التفرد، أما في الفصل الثاني فقد حاولنا ملامسة القصة القرآنية عن قريب، عبر تنزيل آليات التحليل الأدبي التي ارتأينا أنها تستجيب لخصوصية القصص القرآني، والعناصر الأساسية التي تشكلت منها كالحركة والحدث، اللذين يختلفان اختلافا جذريا عن مثيليهما في القصة العادية من الناحية الأسلوبية والإبداعية، لكونهما يحققان أعلى المستويات الجمالية بالارتكاز على الحقائق فقط دون الاعتماد على التخيل الذي يعتبر من أهم عوامل نجاح القصة العادية، ووقفنا على أهم الأساليب والتقنيات السردية التي ميزت القصة القرآنية، وأهمها توزيع الأحداث والتناسب والتنوع الذي ينفي عن القصة القرآنية أسلوب التكرار، بالإضافة إلى الزمن والفضاء اللذين شكلا الإطار العام للقصة القرآنية وطبعها بسمه اللامحدودية والحقيقة في الوقت ذاته.

فهرس المصادر والمراجع

ومن أهم الأساليب التي ألقينا عليها الضوء، وخصصنا لها حيزاً مهماً في الدراسة نظراً لما تحتله من مكانة مهمة في الخطاب القرآني، أسلوب الحوار، الذي شكل أهم الأساليب في القصة القرآنية، وكان سبيلاً لبث الروح والحركة فيها، فيشعر المتلقي كأنه جزء لا يتجزأ منها، لما يضيفه من جو واقعي مكسوّ بفنية أدبية عالية.

ويدخل ضمن أهم آليات عمل الحوار وتحققه، مجموعة من الشروط والأهداف والأساليب والصور الحسية، التي تمنحه الجمالية داخل القصة القرآنية، وتجعله يشع من خلالها، إذ اعتبر الحوار تربية أخلاقية وذوقية وجمالية موجهة للإنسانية جميعاً، تفرض نفسها على الكل في سبيل حياة طيبة يسودها التفاهم والانسجام رغم الاختلاف، وتتجلى في جميع جوانبها معاني الجمال.

وقد استندنا في إعداد هذا البحث، إلى المنهج الاستقرائي الذي تتبعنا فيه جزئيات المعاني لاستخلاص المعنى الكلي الجامع سواء لمصطلح الخطاب أو الجمالي أو القصة القرآنية، وهو المنهج ذاته الذي اعتمدناه في الغوص في دلالات الجمال أو المعاني الجزئية التي يكتنفها القصص القرآني.

و حين بدا لنا أن المنهج الظاهري في التعامل مع المعاني في الخطاب القرآني غير ذي قيمة بالنسبة لدراستنا التحليلية والأدبية، فإننا سلكنا سبيل النفاذ من منطوق النص إلى المعاني العميقة له، فكان المنهج الاستدلالي الاستنباطي خير أداة ناجحة في هذا الباب.

فهرس المصادر والمراجع

ويمكننا أن نقدم مجموعة من الخلاصات والاستنتاجات من خلال ما تم التطرق

إليه في هذا البحث أهمها:

1- يبقى " الخطاب " مفهوماً حَمَّالاً أوجه لتحديدات وتعريفات كثيرة لا حصر لها،

نظراً لما يقتضيه التطور والتجديد المعرفي المستمر، والذي حافظ معه الخطاب القرآني على

مفهومه المنضبط، وجوهره الثابت، بالرغم من تجدد قراءاته وتأويلاته التي تقتضيها روح

العصر، إذ إنه خطاب صالح لكل وقت، ولكل البشرية.

2- ارتبط مفهوم الجمال أو علم الجمال في الفلسفة والفكر، بكل ما يحقق الخير

والمنفعة للنفس البشرية، ويبعثها على الشعور بالسمو والرقى والطمأنينة، وفي الأدب

خصوصاً إلى كل ما يمكن إعادة إنتاجه أو التعبير عنه بأسلوب فني مبدع، يؤثر في المتلقي

ويجعله متجاوباً مع الموضوع، وهذا الأمر يتطلب بالضرورة وجود عنصرين أساسيين

بشكل متلازم، هما الذات والموضوع.

3- هناك فئة راعت خصوصية الخطاب القرآني في تناوله وتحليله، وتعاملت معه

بإنصاف، دون أن يؤثر ذلك على أدبية التحليل وجماليته، بل قد زادت رفعة وتألقاً إلى تألقه

وفرادته. إذ ظلت محافظة على أصالة المعنى وقدسية الرسالة كسيد قطب الذي شكل نقلة

نوعية في تفسير القرآن وفي تناول القصة القرآنية بأسلوب أدبي وفني غير مسبوق سمي

بمنهج التصوير الفني، فتح الباب لمن بعده أن يسيروا في هذا السبيل على قلتهم.

فهرس المصادر والمراجع

4- ظهرت قراءات وتأويلات جديدة للنص القرآني، اتخذ بعضها سبيل التقليد للمناهج الغربية وآليات التحليل الخاصة بها، فشكل ذلك فجوة كبيرة في التعامل مع الخطاب القرآني، وظهرت بذلك قراءات بعيدة بل مشوهة أحيانا للنص القرآني، وقد سرى ذلك على القصة القرآنية أيضا، وكانت الانعطافة الكبرى في هذا المنهج مع محمد خلف الله تلميذ الخولي، واللذين فتحا الباب لمن بعدهما من بعض المفكرين العرب الذين تعاملوا مع النص القرآني على غرار أساتذتهم الغربيين، فجاءت معظم هذه القراءات في واقع الأمر إعادة إنتاج لواقع الحداثة الغربي، فمنهم من أدرج القصة القرآنية في خانة الأسطورة، وهناك من اعتبرها سجلا تاريخيا مرتبطا بلحظته الزمنية ولا يتعدها إلى حقبة أخرى، مثل أركون، أو منتج ثقافي مرتبط ببيئته مثل نصر حامد، وهناك من أخرجها من مهمتها الدعوية والتعبدية، واعتبرها فنا وأدبا وفكرا ينظر إليه لذاته وليس لغاية أخرى. وهناك من تعامل مع النص القرآني من خلال أدوات التحليل اللغوية التي تطبق على النصوص العادية من غير شرط أو قيد.

5- تطور مفهوم القصة عبر العصور، وتغيرت معه النظرة للقصة القرآنية من جانب تحليلها والوقوف على مكانها الأدبية والجمال التي اكتنفتها، ولم تعد قاصرة على استخراج الأحكام الشرعية منها، أو محاولة ضبطها تاريخيا، أو سرد أحداثها سردا يفتقر إلى منهج تحليلي أدبي يعنى بها، ويبرز جوهرها وموطن قوتها المؤثرة في المتلقي.

6- اتخذ القرآن الكريم القصة وسيلة أساسية للتعبير الفني والتأثير الوجداني، لما لها من فاعلية وسطوة على روح الإنسان وعقله، والوصول به إلى الغاية الكبرى، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه.

7- تختلف القصة الأدبية عن الكلام العادي بأنها تحمل سمات فنية وجمالية تميزها عن غيرها من أشكال الكلام، قد تكون مستقاة من واقع الحال أو من خيال مبدع وتستوعب أشكالاً أدبية متعددة وتحديدات مصطلحية مختلفة. أما القصة القرآنية فهي أكثر إبداعاً وجمالاً رغم استبعادها لعنصر الخيال والأسطورة، وهذا ما جعلها تثبت فرادتها وأصالتها.

8- تميزت القصة القرآنية بمجموعة من الخصائص الفنية التي ميزتها عن القصة العادية، بحيث توزعت بهيئة هندسية فنية متفردة، وإيقاع منسجم مع سياق ومكونات السور التي وردت فيها، وقد كانت خصيصة الإبداع أهمها، حيث إنه لا يقارن بغيره، ولا يوصف بشيء من باب المقارنة أمام أي إنتاج بشري، فهو إبداع السمو والجمال العلوي، وهذا لم يمنع من التأثير بأسلوبه والاستلهام من طرقه الفنية في التعبير والكتابة والإبداع، فهو دستور حياة وملهم لكل الناس وأهم مصدر لغوي وأدبي للعرب خاصة وللناس عامة.

9- اعتبر أسلوب الإجمال والإيجاز في القصة القرآنية من أهم الخصائص الأسلوبية التي طبعتها بطابع فني خاص وفريد، توزع عبر مجموعة من التقنيات

فهرس المصادر والمراجع

كالاستباق والاسترجاع، وهذان الأخيران يتداخلان كثيرا مع تقنيات الزمن وأساليبه داخل القصة.

10- استطاع القصص القرآني أن يصل بتوظيف عنصري الزمان والمكان حد الإعجاز، وأن يبعثهما من أجل المشاركة في الحدث القرآني، بعثا أمسك بكل القوى العاملة في حياة الحدث، ووضع كل منها بالموضع المناسب، وبالقدر المناسب، مستعملا في ذلك أساليب فنية متعددة كتقنية الاسترجاع الزمني والحذف وغيرها من الأدوات.

11- سائرت القصة القرآنية وتسائر مراحل الزمن من بداية الخلق إلى نهايته، ثم تتعدى المرحلة الدنيوية إلى الآخروية، لتشمل مرحلتى الماقبل والمابعد، وهما مرحلتان لا زمنيّتان، لتؤكد وجود الخالق الأزلي قبل الزمكانية، وخلوده الأبدي بعد فناء الكون مكانا وزمانا وشخصا، في صدق تام، دون جنوح إلى الخيالات والأوهام، كما في القصة الأدبية العادية، وهذه الخاصية تجعل من الزمن أداة فنية تزيد من فاعليته التأثيرية عند المتلقي.

12- اعتبر الحوار واحدا من أهم الأساليب التي اعتمد عليها فن القصص في خلق الحركة وتلوينها وتنويعها، وقد اعتمدته القصة القرآنية، نظرا لما يشيعه من جو واقعي، وما يضيفه من جمالية عليها.

13- تميز الحوار القصصي القرآني بأنه لم يكن مصدره دائما هو الإنسان، كما هو مألوف، بل اشتركت فيه عناصر مختلفة، إذ أخذت القصة القرآنية حيويتها، من خلال ظاهرة تعدد الأصوات التي تشكل شبكة الحوار فيها.

14- العلاقة الحوارية في القصة القرآنية تؤطر القصة، وتشيع فيها حيوية سردية،

تجعل من الموضوع القصصي بنية واضحة المعالم حيال ذهن المتلقي، يتملاها من سائر جوانبها، من خلال وظيفة الحوار الكشفية.

15- تميزت سورة طه باستفتاحها بحوار الله مع نبيه ﷺ **﴿ هَلْ أَيْنُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾** (15)

﴿النازعات (15)﴾.

16- إن للحوار وظيفة فنية وجمالية، فهو يكسب القصة القرآنية جوا من الحيوية

والواقعية، تخرج المتلقي من جو الرتابة، وتأخذ بتلابيب فكره ووجدانه.

17- استعمل الحوار كوسيلة للكشف عن مكونات الشخصيات وعواطفهم

وانفعالاتهم.

18- تعددت أشكال المحاورات في القصة القرآنية، وساهمت شخصياتها في إبراز

الوظيفة الحوارية، وتسليط الضوء عليها، وجعلها أداة محورية، وعنصرا مؤثرا في

الخطاب القرآني ككل.

19- استعمل الحوار أساليب متنوعة، كان أهمها الأسلوب النفسي، الذي كان

الخولي أهم رواده، حيث اعتبره الأساس الذي بني عليه الخطاب القرآني، لأنه

يمكن المتلقي من التفاعل والتأثر لاستقبال الخطاب انطلاقا من حالته الوجدانية

والعاطفية.

فهرس المصادر والمراجع

20- إن أقصر طريق إلى قلب المتلقي واستثارة فكره، هي مخاطبة وجدانه، وتحريك أحاسيسه ومشاعره، فيكون الأسلوب النفسي أنسب طريقة لبلوغ هذه الغاية.

21- إن للحوار دورا في سبر أغوار عواطف الشخصيات وإبرازها بشكل فني بديع، بعيدا عن الإسفاف أو المبالغة.

ومن العقبات التي اعترضتنا في طيات هذا البحث إشكال الدوران بين الرؤية التاريخية للقصص القرآني من قبل جمهرة عديدة للمفسرين القدامى، وبين النظرة المعاصرة التي تحاول إخراجه إلى رحابة المعنى وعمقه، والأمر لا يخلو من مخاطر كما ذكرنا سابقا.

وحيث إن الجماليات والتدقيق في معناها المستقى من النص القرآني لم ترد في عديد المصنفات القديمة، فإن وجهتنا انصبت أحيانا حول الرؤى الفلسفية والأدبية لبعض المفكرين والمفسرين المحدثين، من أهمهم سيد قطب.

ومن العوائق التي اعترضت البحث، تلك القراءة المعاصرة للنص القرآني التي كانت متماهية مع الطرح الإنساني الذي يضم في دراسته المنهجية أي نص أدبي بشرط أن يكون خلوا من خصائصه المقدسة. وهذه القراءة لن تسري عندنا على النص القرآني باعتبار أن الآليات المنهجية المعتمدة من قبل هؤلاء قد خضعت عندنا لحمولة إيديولوجية لم نتفق معها بتاتا.

فهرس المصادر والمراجع

هذا ويحمل بنا في الأخير طرح أسئلة قد تشكل تمهيدا استشرافيا لإتمام ما بدأناه من

قبيل:

1. ألا تستدعي الجمالية المتعلقة بالنص القرآني منهجا علميا يمتد به المعنى لاسيما

حين يكون الديدن الذي تسرح فيه تلك الجماليات إنما هو عديد الآيات والقصص التي

تشكل ربع القرآن؟

2. ألا يمكن استصحاب المقاصد الجمالية التي يمتد بها المعنى خلافا للمقاصد

الشرعية المنحصرة في آيات الأحكام لوحدها وفق رؤية صاحبها، وأثرها في امتداد المعنى

القرآني؟

3. ألا تشكل الجماليات ناظما جامعا بين الأدباء والمفكرين المسلمين ونظرائهم

الغربيين؟

4. لم لا ينظر إلى القصة القرآنية نظرة بنائية تكون الأساس الذي به يتشكل خطاب

الإنسان الفرد والأسرة اللبنة ومجتمع الرفاه ودولة الحقوق عوض أن تكون منجسة في

بعض صنوف الاعتبار؟

وفي النهاية، تبقى دراستنا هذه لبنة من لبنات إقامة صرح جمالية الخطاب القرآني

اللامتناهي، وأدبيته التي لا تضاهي، وتأسيسا لنظرة جديدة في التعامل معه وتناوله.

والله ولي التوفيق

الفَهَارِسُ العامة

✓ فهرس المصادر والمراجع

✓ فهرس الموضوعات

فهرس المصادر والمراجع¹

القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق.

❖ الكتب: الأصول والمراجع:

- 1- أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، العلواني طه جابر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، أمريكا، 1996.
- 2- الاتجاه العقلي في التفسير، دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، أبو زيد نصر حامد، ط:5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2003.
- 3- الاتجاه الواقعي في الرواية العراقية، الطالب عمر، ط:1، دار العودة، 1971،
- 4- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين، تحقيق محمد إبراهيم، ط:1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- 5- الإحساس بالجمال: تخطيط نظرية في علم الجمال، سانتيانا جورج، ترجمة محمد بدوي، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.
- 6- إحياء علوم الدين، الغزالي أبو حامد، تحقيق بدوي بطانة، ط:1، دار المعرفة، بيروت، 1982.
- 7- أدب الحوار في الإسلام، طنطاوي محمد سيد، دار نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

¹ -ملاحظة بيبليوغرافية: لقد تم تقسيم لائحة المصادر والمراجع إلى أربعة أقسام. وهي: 1-الكتب العامة: المصادر والمراجع.
2-الأطروحات والرسائل الجامعية الأكاديمية. 3-المجلات والدوريات. 4-المراجع الأجنبية. وفي كل قسم رُتبت المصادر والمراجع وفق الطريقة الأبجدية المعمول بها أكاديمياً... وفيما يخص طريقة التوثيق تم التزام هذا النهج في كل أقسام لائحة المصادر والمراجع تبعاً لطريقة الهوامش المعمول بها في متن الرسالة: عنوان الكتاب. اسم الكاتب. المحقق. رقم الطبعة. دار النشر. المدينة. البلد. سنة النشر.

فهرس المصادر والمراجع

- 8- أساس البلاغة، الزمخشري محمود بن عمر بن أحمد، ط:1، دار مطابع الشعب القاهرة، 1960.
- 9- استراتيجيات الخطاب، الشهري عبد الهادي بن ظاهر، ط:1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2004.
- 10- الإسلام في معركة الحضارة، شفيق منير، ط:2، دار الكلمة للنشر، 1983.
- 11- الأسلوبية في النقد العربي الحديث، الحربي فرحان بدري، ط:1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2000.
- 12- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، العمري محمد، ط:1، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013.
- 13- الإشارة الجمالية في المثل القرآني، عشتار داود، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2005.
- 14- الإشارة النفسية في جماليات الخطاب القرآني، ملا عمر صلاح، ط:1، دار الزمان للنشر والتوزيع، 2010.
- 15- إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، الخالدي صلاح عبد الفتاح، ط:1، دار عمار، عمان، 1421 - 2000.
- 16- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي مصطفى صادق، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، 1990.
- 17- الإعجاز القصصي في القرآن، مطاوع سعيد علي عطية، ط:1، دار الآفاق العربية، 2006.
- 18- الإعجاز في دراسات السابقين، الخطيب عبد الكريم، ط:1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1974.
- 19- الأعلام، الزركلي، خير الدين بن محمود، ط:6، دار صيدا بيروت، 2006.
- 20- الأعلام العلية في مناقب بن تيمية. سراج الدين أبو حفص. تح: زهير الشاويش. ط3 المكتب الإسلامي بيروت.. 1400هـ.

فهرس المصادر والمراجع

- 21- الإعلامية في الخطاب القرآني، دراسة في ضوء نظرية التواصل، البرقعاوي زهراء، ط:1، كنوز المعرفة، 2018.
- 22- الأغاني، الأصفهاني أبو الفرج، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار الكتب المصرية، 1974.
- 23- آفاق العصر، جابر عصفور، ط:1، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق، 1997.
- 24- أفق الحوار في الفكر العربي المعاصر، آيت حمو محمد، ط:1، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، 2012.
- 25- آليات ترابط النص القرآني، برقان رشيد، ط:1، أفريقيا الشرق، 2015.
- 26- الإمتاع والمؤانسة، التوحيدى أبو حيان، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- 27- إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، البارودي محمد، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004.
- 28- انفتاح النص، يقطين سعيد، ط:2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت: 2001.
- 29- بدائع الفوائد، الجوزية ابن القيم، ط:2، المطبعة المنيرة، القاهرة، 1973.
- 30- البرهان في علوم القرآن، الزركشي بدر الدين، تحقيق محمد إبراهيم، ط:1، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلي وشركاؤه، 1957.
- 31- بلاغة الخطاب وعلم النص، فضل صلاح، ط:1، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، 2004.
- 32- بلاغة الخطاب، كيف تتحقق؟ جبار سعيد، ط:1، دار الأمان، الرباط، 2014.
- 33- بلاغة السرد القصصي في القرآن الكري، خضر محمد مشرف، ط:1، دار العواصم، 1973.

فهرس المصادر والمراجع

34- بناء الرواية: دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، قاسم سيزا، ط:1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

35- البنية الزمنية في القصة القرآنية، الاسترجاع والاستباق، نايف بشار إبراهيم، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.

36- البنية السردية بين الاسترجاع والاستباق في رواية العقرب، بلاوي رسول، جامعة خليج فارس، بوشهر.

37- بنية الشكل الروائي، بحراوي حسن، ط:1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990.

38- البيان القصصي في القرآن الكريم، عوضين إبراهيم، ط:2، دار الأصالة للثقافة، القاهرة، 1990.

39- البيان والتبيين، الجاحظ أبو عمرو، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط:5، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1985.

40- بين بين، بنعبد العالي عبد السلام، ط:1، دار توبقال، الدار البيضاء، 1999.

41- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي محمد بن محمد المرتضى، مجموعة من المحققين، دار الهداية، 2010.

42- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور محمد الطاهر، ط:1، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 2000.

43- تحليل الخطاب الأدبي، شرشار عبد القادر، ط:1، منشورات دار الأديب، وهران، 2006.

44- تحليل النص السردى: تقنيات ومفاهيم، بوعزة محمد، ط:1، منشورات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، 2010.

45- النذوق وتأريخ الفن، الشال محمود النبوي، ط:1، مكتبة الضحى، الكويت، 1980.

- 46- التصوير الجمالي في القرآن الكريم، يونس عيد سعد، عالم الكتب، 2006.
- 47- تصوير الفكر الديني في مسرح توفيق الحكيم، دبا حسن علي، ط:1، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010.
- 48- التصوير الفني في القرآن، قطب سيد، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1995.
- 49- التعبير القرآني والدلالة النفسية، الجيوسي عبد الله محمد، ط:1، دار الوثائقي للدراسات القرآنية، 2006.
- 50- التعريفات، الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط:1، بيروت، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985.
- 51- تفسير الجلالين الميسر، جلال الدين المحلي جلال الدين السيوطي، تحقيق فخر الدين قباوة، ط:1، مكتبة لبنان، 2003.
- 52- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط:1، دار المعرفة، بيروت، 1991.
- 53- تفسير القرآن العظيم، التستري سهل بن عبد الله، تحقيق طه عبد الرؤوف، سعد حسن محمد علي، ط:1، دار الحرم للتراث، 2004.
- 54- تلخيص الخطابة، القرطبي ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ط:1، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1959.
- 55- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، عبد الرزاق مصطفى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005.
- 56- التناص في القرآن، دراسة سيميائية للنص القرآني، السالمي هادية، ط:1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2014.
- 57- التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي محمد عبد الرؤوف، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1991.

فهرس المصادر والمراجع

- 58- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري محمد بن جرير، تحقيق عبد الله التركي، ط:1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر، القاهرة، 2001.
- 59- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق محمد علي القطب، هشام البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1994.
- 60- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، القرطبي أبو عبد الله محمد، تحقيق عبد الله التركي، ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006.
- 61- الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، باحذاق عمر، ط:1، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، 1993.
- 62- الجلال والجمال في القرآن الكريم: دراسة في المفهوم والدلالة، تكروك محمد، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2017.
- 63- الجمال في القرآن الكريم: مفهومه ومجالاته، المحص عبد الجواد محمد، ط:1، دار كتب عربية، 2005.
- 64- جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، صالح عزيز، ط:1، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010.
- 65- جمالية تحليل الخطاب، هاني عبد النبي، ط:1، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.
- 66- الجمالية عبر العصور، سوريو إتيان، ترجمة ميشيل عاصي، ط:2، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، 1982.
- 67- الجني الداني من جماليات النص القرآني، جاب الله أسامة عبد العزيز، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2013.

فهرس المصادر والمراجع

68- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، الهاشمي أحمد، تحقيق مجموعة من الدارسين، ط:1، مؤسسة المعارف، بيروت، 1969.

69- الحاشية على الكشف للزمخشري، الجرجاني أبو الحسن بن محمد، تحقيق رشيد بن عمر أعرضي، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016.

70- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، صولة عبد الله، ط:2، دار المعرفة للنشر، تونس، 2007.

71- الحداثة والقرآن، ناشيد سعيد، ط:1، دار التنوير للطباعة، لبنان، 2015.

72- حفريات المعرفة، فوكو ميشيل، ترجمة سالم يفوت، ط:1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1968.

73- الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، عبد الرحمن طه، ط:1، المركز الثقافي العربي، 2002.

74- حقائق التأويل في الوحي والتنزيل، الحلي محمد علي حسن، دار الكتب العلمية، 2018.

75- الحوار في القرآن الكريم وتطبيقاته في الحياة ونشر ثقافته في المجتمع، الصديق عوض الكريم، جامعة إفريقيا العالمية، المركز الإفريقي الإسلامي المؤتمر العالمي للقرآن الكريم، الخرطوم، 2011.

76- الحوار في القرآن، قواعده، أساليبه، معطياته، فضل الله محمد حسين، ط:5، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1987.

77- الحوار في القصة المسرحية والإذاعة والتلفزيون، مطر أميرة حلمي، مكتبة الشبامصر، القاهرة، 1975.

78- الحوار مع الغرب: آلياته، أهدافه، أبو الفضل منى، ط:1، دار الفكر، 2008.

79- حياة موسى، شلي محمود، ط:1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1987.

فهرس المصادر والمراجع

80- الخطاب القرآني ومناهج التأويل، بودرع عبد الرحمن، ط:1، المغرب، الرباط، مركز الدراسات القرآنية، الرباط، المغرب، 2014.

81- الخطاب القرآني، العموش خلود، ط:1، الأردن، عالم الكتب الحديث، 2008.

82- الخطاب القرآني، مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، عشراقي سليمان، ط:1، دار العراب، دار النور، دمشق، سوريا، 2012.

83- الخطاب والتأويل، أبو زيد نصر حامد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000.

84- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ج1.

85- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، العمري أحمد جمال، ط:1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1986.

86- دروس في الألسنية العامة، دي سوسير فردينان، ترجمة صالح القرمادي وآخرين، الدار العربية للكتاب، تونس، 1985.

87- دعاوي المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية. عرض ونقد. عبد الله بن صالح الغصن. ط1 دار بن الجوزي للنشر والتوزيع. السعودية. 1424هـ..

88- روائع قرآنية، دراسة في جمالية المكان السرد، حامد عبد الله خضر، دار القلم، بيروت، 2017.

89- الزمن في اللغة العربية، بنياته التركيبية والدلالية، الملاخامحمد، ط:1، دار الأمان، الرباط، 2009.

90- السرد العربي القديم، صحراوي إبراهيم، ط:1، الدار العربية للعلوم، لبنان، 2008.

91- سنن أبي داود، السجستاني أبو داود سليمان بن الأشعث، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط:1، دار الحديث، 1991.

92- سورة طه دراسة أسلوبية لغوية مقارنة، عوض إبراهيم، دار الطائف، 1993.

فهرس المصادر والمراجع

- 93- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط2، 1994.
- 94- سيكولوجية القصة في القرآن، نقرة التهامي، ط:1، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1974.
- 95- شعيرة الفضاء الروائي، كيسنر جوزيف، ترجمة لحسن احمامه، إفريقيا الشرق، المغرب، 2003.
- 96- صناعة الحوار، مقارنة تداولية جمالية حوارات سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم، سيف حمد عبد الله، ط:1، مركز نماء للدراسات والأبحاث، بيروت، 1015.
- 97- الصناعتين: الكتابة والشعر، العسكري أبو هلال، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد إبراهيم، عيسى الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1952.
- 98- صورة الآخر في الخطاب القرآني، دراسة نقدية جمالية، الشمري حسين عبيد، ط:1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2008.
- 99- الصورة الأدبية في القرآن الكريم، عبد التواب صلاح الدين، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1995.
- 100- الصورة، الإنسان والرواية: عبدالرحمن منيف في "شرق المتوسط مرة أخرى، عزيز القاديلي، لندن، أبريل، 2018.
- 101- الظاهرة الجمالية في الإسلام، الشامي صالح أحمد، ط:1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1986.
- 102- الظاهرة القرآنية، ابن نبي مالك، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط:9، دار الفكر، دمشق، 2009.
- 103- عصر النبوية، كريزويل إديث، ترجمة جابر عصفور، ط:1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993.
- 104- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، الفقهي صبحي إبراهيم، ط:1، القاهرة، دار قباء، القاهرة، مصر، 2000.

فهرس المصادر والمراجع

105- علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، زرزور عدنان، دار الكتب الإسلامي، بيروت، 1981.

106- الفارابي في حدوده ورسومه، آل ياسين جعفر، ط:1، عالم الكتب، بيروت، 1985.

107- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني محمد بن علي اليمني، ضبط وتصحيح أحمد عبد السلام، ط:9، الشركة العربية العصرية المحدودة للطباعة والنشر والتوزيع، 2013.

108- الفضاء الروائي، مجموعة من المؤلفين، ترجمة عبد الرحيم حزل، ط:1، المغرب، إفريقيا الشرق، 2002.

109- الفضاء ولغة السرد، إبراهيم صالح، ط:1، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، 2003.

110- فقه التعامل مع المخالف، الطريقي عبد الله بن إبراهيم، ط:1، دار الوطن، الرياض، 1994.

111- الفكر الإسلامي: قراءة علمية، أركون محمد، ترجمة هاشم صالح، ط:2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1996.

112- فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيد، الصديق حسين، ط:1، حلب، دار الرفاعي، دار القلم العربي، 2002.

113- فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، أبو ريان محمد علي، ط:1، دار المعرفة الجامعية، 1974.

114- فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، مطر أميرة حلمي، ط:1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

115- فن القصة، نجم محمد يوسف، ط:1، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، 1955.

116- الفن القصصي في القرآن، خلف الله محمد، ط:4، سينا للنشر، مصر، 1999.

فهرس المصادر والمراجع

- 117- في ظلال القرآن، قطب سيد، ط:17، دار الشروق، القاهرة، 1992.
- 118- في مناهج الدراسة الأدبية، واد حسين، دار سراس للنشر، تونس، 1985.
- 119- القاموس المحيط، الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، تحقيق أنس محمد الشامي وركريا جابر أحمد، دار الحديث، مصر، 2008.
- 120- قراءات في القرآن، أركون محمد، بيروت، ط:1، دار الساقى، 2017.
- 121- القراءة الأدبية للقرآن في ضوء المنهج التاريخي، بوتيا الحسن، ط:1، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2010.
- 122- قراءة النص القرآني، الأيديولوجيا والمنهج، النكر سعيد، ط:1، عالم الكتب الحديث، 2014.
- 123- القرآن وعلم القراءة، برك جاك، ترجمة منذر عياشي، ط:1، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1999.
- 124- القصة في أدب الجاحظ، باقازي عبد الله، ط:1، منشورات تهامة، السعودية، جدة، 1982.
- 125- قصص الأنبياء في القرآن الكريم، الزين سامح عاطف، ط:7، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 2005.
- 126- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح، سالم أحمد موسى، ط:1، بيروت، دار الجيل، 1977.
- 127- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، الخطيب عبد الكريم، دار الفكر العربي، 1974.
- 128- الكتاب والقرآن: رؤية، شحرور محمد، ط:1، دار الساقى، بيروت، لبنان، 2018.
- 129- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري محمود بن عمر بن أحمد، تحقيق وتعليق خليل مأمون شيحا، ط:3، دار المعرفة بيروت، لبنان، 2009.

فهرس المصادر والمراجع

- 130- الكشف والبيان في تفسير آي القرآن، الثعلبي أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق علي بن عاشور أبو محمد، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، ط:1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2002..
- 131- لسان العرب، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، ط:3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- 132- اللسانيات النشأة والتطور، مومن أحمد، ط:2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005.
- 133- اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، تامر فضل، ط:1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994.
- 134- مباحث في علوم القرآن، القطان مناع، ط:3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 2006.
- 135- المحكم والمحيط الأعظم، بن سيده أبو الحسن علي بن إسماعيل، تحقيق مجموعة من الدارسين، ط:1، معهد المخطوطات العربية، 1973.
- 136- مختار الصحاح، الرازي أبو بكر، ط:1، مكتبة لبنان، 1986.
- 137- مستويات التحليل الأسلوبي، شرارة مرتضى، ط:1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2014.
- 138- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. أبو الحسن مسلم بن الحجاج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت، لبنان، 1978.
- 139- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي أحمد، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.
- 140- معجم المصطلحات الأدبية، بول آرون، دينيس سان، جاك آلان، فيالا، ترجمة محمد حمود، ط:1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2012.
- 141- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط:4، مكتبة الشروق الدولية، 2004.
- 142- المعجم مقاليد العلوم، السيوطي، جلال الدين مكتبة الآداب، مصر، 2004.

فهرس المصادر والمراجع

- 143- معنى الجمال: نظرية في الإستيقا، ستيس ولتر، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، نشر المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2000.
- 144- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي محمد بن عمر، ط:3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420.
- 145- مفهوم القصص في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية، الرجاني سعيدة، ط:1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2019.
- 146- مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، أبو زيد نصر حامد، ط:6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.
- 147- مقدمة في خصائص الخطاب القرآني في العهدين المكي والمدني، جعفر سيد عبد المقصود، ط:1، دار الطباعة والنشر الإسلامية، 1993.
- 148- مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن، مطر أميرة حلمي، ط:1، دار المعارف، مصر، 1989.
- 149- من النص إلى الفعل. بول ريكور. أبحاث التأويل. تر: محمد برادة. حسان بوقية. ط:1. 2001.
- 150- من جماليات النظم القرآني، السلمي عبد الرحمن، ط:1، مؤسسة الانتشار العربي، 2016.
- 151- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. أمين الخولي. الأعمال الفكرية- مصر. 2003.
- 152- مناهج النقد المعاصر، فضل صلاح، دار إفريقيا الشرق بيروت، الدار البيضاء ، 2002.
- 153- منهج سيد قطب في ظلال القرآن، أسماء فدعق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1416.
- 154- الموسوعة الفلسفية العربية، حرب علي، ط:1، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986.
- 155- النبأ العظيم، دراز عبد الله، ط:1، مصر، القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 2014.

فهرس المصادر والمراجع

156- نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، أبو الفضل منى

عبد المنعم، ط:1، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996.

157- النص السردي، نحو سيميائيات للإيديولوجيا، سعيد بن كراد، ط:1، دار الأمان، الرباط،

المغرب، 1996.

158- النص والخطاب والاتصال، العبد محمد، ط:2، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، دمشق،

2014.

159- النص والسياق، دايك فان، ترجمة عبد القادر قنيني، ط:1، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق،

2013.

160- نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور ترجمة سعيد غانمي، ط:2، المركز الثقافي

العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2006.

161- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، 2008.

❖ الأطروحات والرسائل الجامعية:

162- إشكالية الزمن في القصص القرآني، لطروش بن دهيبة، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس،

الجزائر، 2017.

163- الأصول الجمالية والفلسفية للفن الإسلامي، رفاعي أنصار محمد عوض الله، رسالة دكتوراه،

جامعة حلوان، 2002.

164- تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، العتوم مهي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، الأردن،

2004.

165- تفسير سورة طه تفسيراً موضوعياً، الحسن محمود أحمد، جامعة غزة، غزة، 2004.

فهرس المصادر والمراجع

166- جمالية تصوير الحب في القصة الإسلامية في ضوء قصة يوسف، رشدي، رضوان، رسالة دكتوراه، جامعة القاضي عياض، المغرب، 2016.

167- الحوار في القرآن، ضمرة معن، بحث ماجستير، جامعة النجاح، جامعة النجاح، فلسطين، 2005.

168- سورة فصلت: دراسة بيانية، العلياني محمد، جامعة أم القرى، 2001.

169- علم الجمال آفاقه وتطوره، عبد حيدر نجم، ط:2، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة، 2001.

170- القيم في القصص القرآني الكريم، حريري عبد الله، جامعة طنطا: 1988.

❖ المجلات والدوريات:

171- الاتصال اللغوي بين الدقة والغموض، بن عيسى عبد الحليم، جامعة وهران، مجلة اللغة والاتصال، العدد:1، 2005.

172- أدب القصة القرآنية، إسلام صاحب، مجلة إيضاح، 2011.

173- بلاغة القص في القرآن الكريم وأفاق التلقي، ناصر سعاد، مجلة كتاب الأمة، قطر، 2015، العدد:169،

174- التراث والخطاب، سليكي خالد، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، الرياض، 2002.

175- الخطاب، المرجعيات السيميائية والسوسولوجية، بلحسن عمار، الدراسات العربية والخطاب، مجلة كتابات معاصرة، الشركة العربية للتوزيع، بيروت.

176- قراءة النص القرآني وشروط التجديد، شوربا زينب، مجلة المنطلق الجديد، 2006، العدد:9.

177- القرآن وليلة القدر، محمد الغزالي، محمد سيد طنطاوي، أحمد عمر هاشم، مطبوعات أخبار اليوم.

178- القصة القرآنية مفهوما وأسلوبا. صابر مشيل. المجلة الجامعة. العدد 11. 2009.

179- القصة القرآنية، رضوان فتحي، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، 1978، العدد:332.

فهرس المصادر والمراجع

- 180- مذهب الصرفه، العماري علي محمد حسن، مجلة الأزهر الشريف، 1949، مقال: 21.
- 181- مظاهر الإعجاز في الحوار القرآني، الشايرة محمد، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، الأردن، العدد 3.
- 182- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ولد الأمين محمد سالم، مجلة عالم الفكر، 2000، العدد: 3.
- 183- مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، مجلة اللغة العربية، دمشق، 1931، العدد: 81.
- 184- مفهوم الحوار مع الآخر وأهميته في الفكر الإنساني، الحفاجي، مصطفى فاضل كرم، عقيل محمد صالح، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، 2017.
- 185- مهارات الحوار الفعال وعلاقتها ببعض سمات الشخصية على ضوء التربية الإسلامية، زقزوق محمود، مجلة رسالة الخليج العربي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الأعداد: 115-118.
- 186- نحو علم جمال عربي، الدسوقي عبد العزيز، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1997، العدد: 2.
- 187- نماذج من التفسير الأدبي للقرآن الكريم عند المعتزلة، الشريف المرتضى نموذج، المراكشي عبد الله الغواسلي، كلية الآداب الجديدة، المغرب، 2007، من كتاب: التفسير الأدبي للقرآن الكريم، كليات رسائل النور نموذجاً، كلية الآداب والدراسات الإسلامية، جامعة شعيب الدكالي، مدينة الجديدة، المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات، 1428، العدد: 6.

❖ المراجع باللغة الأجنبية:

- William Bright ، *International Encyclopedia of Linguistics* ، V1 ، Oxford University Press-Now-York ، 1992.

فهرس الموضوعات

4	إهداء
5	شكر وتقدير
6	مقدمة
14	الباب الأول: جمالية الخطاب القرآني
18	الفصل الأول: تحديد المفاهيم
19	المبحث الأول: مفهوم الخطاب
19	المطلب الأول: دلالات مصطلح "الخطاب"
19	الفرع الأول: مصطلح الخطاب عند اللغويين القدماء
23	الفرع الثاني: مصطلح الخطاب عند المفسرين:
27	الفرع الثالث: مفهوم الخطاب عند الغربيين
41	الفرع الرابع: مصطلح الخطاب عند المفكرين والنقاد العرب
49	المطلب الثاني: مفهوم الخطاب القرآني

فهرس الموضوعات

54	المبحث الثاني: مفهوم الجمال
54	المطلب الأول: الجمال لغة
57	المطلب الثاني: الجمال اصطلاحاً:
59	المطلب الثالث: علم الجمال فلسفة
59	الفرع الأول: مفهوم الجمال عند الفلاسفة والمفكرين العرب القدماء:
65	الفرع الثاني: مفهوم "علم الجمال" عند الفلاسفة والمفكرين الغربيين:
71	المطلب الرابع: الجمال في القرآن الكريم:
75	الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني، نصاً ومنهجاً وتحليلاً
76	المبحث الأول: مفهوم القصة القرآنية عند القدماء
76	المطلب الأول: تعريف النص القرآني
78	المطلب الثاني: تعريف القصة القرآنية
80	المبحث الثاني: جمالية الخطاب القرآني منهجاً وتحليلاً
85	المطلب الأول: حدود القراءة الأدبية للنص القرآني
85	الفرع الأول: المنهج الأصولي في تفسير القرآن

فهرس الموضوعات

90	الفرع الثاني: المنهج التجديدي في تأويل القرآن
94	المطلب الثاني: التقعيد لمنهج التحليل الأدبي للنص القرآني
94	الفرع الأول: أمين الخولي: (بوادر التقعيد)
102	الفرع الثاني: المنهج الحدائي في تأويل القرآن الكريم
112	الفرع الثالث: القصة القرآنية في مواجهة التحليل الأدبي للنص
115	الباب الثاني: جمالية الخطاب القرآني من خلال القصة تجريداً وتجسيداً
116	الفصل الأول: جمالية القصة القرآنية أصولاً وخصائص
116	المبحث الأول: جمالية القصة أصولاً
116	المطلب الأول: القصة ماهية ونشوء
116	الفرع الأول: القصة لغة واصطلاحاً
120	الفرع الثاني: القصة نشوء وتطوراً
130	الفرع الثالث: مفهوم القصص القرآني
137	المبحث الثاني: أصول الإعجاز في القصص القرآني
137	المطلب الأول: خصائص القصة الأدبية

فهرس الموضوعات

المطلب الثاني: خصائص القصة القرآنية	138
المطلب الثالث: الخصائص الأسلوبية في القصة	149
الفصل الثاني: جمالية الخطاب القرآني تجسيدا من خلال قصص: سورة " طه " ...	157
المبحث الأول: جمالية ورود ومركزية الحركية لدى الشخصيات من خلال أحداث القصة.	158
المطلب الأول: جمالية ورود قصص " طه " ذاتا وخصائص.	158
الفرع الأول: جمالية الذات لقصص سورة " طه "	158
1. دلالات السورة ومحاورها:	158
2 -أسباب النزول وسياقاته	166
3- خصائص سورة طه	168
المطلب الثاني: جمالية السرد في قصة " طه "	175
الفرع الأول: التكرار	175
الفرع الثاني: الانسجام والتناسب بين بداية القصة ونهايتها	209
الفرع الثالث: الزمن في القصة	212

فهرس الموضوعات

233.....	الفرع الرابع: بيئة القصة وفضاءها
248.....	المطلب الثالث: جمالية الحدث والحركة في سورة طه
256.....	المطلب الرابع: جمالية خصائص الشخصيات لقصص " طه "
256.....	الفرع الأول: الشخصية في القصة القرآنية
261.....	الفرع الثاني: جمالية توزيع الحركة للشخصيات
261.....	1- شخصية موسى عليه السلام
264.....	2- شخصية هارون عليه السلام
266.....	3- شخصية فرعون
268.....	4- شخصية السامري
269.....	5- شخصية جنود فرعون
269.....	6- شخصية سحرة فرعون
270.....	7- شخصية بنو إسرائيل
273.....	المبحث الثاني: السمات الجمالية لأسلوب حوار الشخصيات في قصص سورة طه
274.....	المطلب الأول: التجليات الجمالية للحوار في القصة

فهرس الموضوعات

274.....	الفرع الأول: ماهية الحوار ودلالاته
277.....	الفرع الثاني: الحوار مشترك إنساني
284.....	الفرع الثالث: الحوار منهج قرآني
292.....	الفرع الرابع: الحوار أسلوب فني
298.....	المطلب الثاني: الدلالات الفنية لحوار الشخصيات في القصة
298.....	الفرع الأول: أسلوب حوار الشخصيات
299.....	الفرع الثاني: أشكال الحوار بين الشخصيات في القصة
305.....	المطلب الثالث: آليات تحقق الحوار
305.....	الفرع الأول: شروط الحوار وأهدافه
320.....	الفرع الثاني: مقاصد الحوار في القصة
322.....	الفرع الثالث: عناصر الحوار في القصة القرآنية
326.....	الفرع الرابع: الأساليب الحوارية في القصة
327.....	1- الأسلوب القصصي:
327.....	2- الأسلوب الحجاجي البرهاني:

فهرس الموضوعات

329	3- أسلوب الحوار الجماعي
331	4- الأسلوب النفسي
336	5- الأسلوب الوصفي:
336	6- الأسلوب البرهاني:
337	7- الأسلوب التعجبي
339	الفرع الخامس: الصور الحسية للحوار
339	1- حوار بين الله تعالى وموسى عليه السلام
342	2- حوار موسى مع فرعون
344	3- حوار السحرة مع موسى
345	4- حوار فرعون مع السحرة
349	خاتمة
360	الفهارس العامة
361	فهرس المصادر والمراجع
377	فهرس الموضوعات